سعيد بوفلاقة

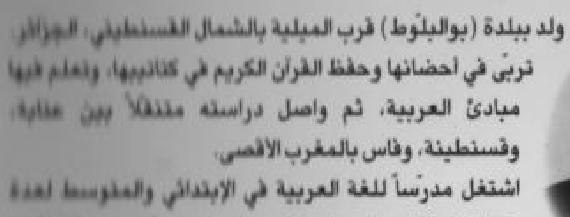
في سيمياء الشعر العربي القديم

دراسة

منشورات
اتحاد الكتاب الجزائريين

سعيد بوفلاقة
في سيمياء الشعر العربي القديم
منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين

د. سعد بوفلاقة



ولد ببلدة (بوالبلّوط) قرب الميلية بالشمال القسنطيني، الجزائر، تربّى في أحضانها وحفظ القرآن الكريم في كتاتيبها، وتعلم فيها مبادئ العربية، ثم واصل دراسته متنقلاً بين عنابة، وقسنطينة، وفاس بالمغرب الأقصى.

اشتغل مدرّساً للغة العربية في الإبتدائي والمتوسط لعدة سنوات، ثم انتدب إلى جامعة قسنطينة وبعد أربع سنوات تخرج مُجازاً في الأدب العربي. حصل على شهادة الماجستير سنة 1987، ودكتراه الدولة في الأدب العربي سنة 1998.

يعمل حاليا أستاذ بجامعة عنابة، ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقا.

عضو اتحاد الكتاب الجزائريين.

عضو اللجنة الوطنية للتعريب في الجزائر.

رئيس تحرير مجلة بونة للبحوث والدراسات.

من مؤلفاته:

- النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، الشركة الجزائرية للطباعة والنشر، الجزائر، 1994.
- الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 وبدار الفكر للطباعة والنشر، ببيروت 2003.
- في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى ... منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة، الجزائر، 2003.
- شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي (دراسة موضوعية فنية) قيد الطبع.
- دراسات في الأدب الجاهلي ... قيد الطبع.
- شعر الصحابة (جمع وتصنيف ودراسة) قيد الطبع.
- نشر عدة دراسات ومقالات أدبية وتربوية ونقدية في الصحف والمجلات العربية منذ مطلع السبعينات.
- شارك في العديد من المؤتمرات الدولية والوطنية.

طبع على نفقة الصندوق الوطني
لترقية الفنون والآداب وتطويرها
التابع لوزارة الإتصال والثقافة

الإيداع القانوني: 2351 - 2003

ردمك: ISBN: 9961 - 783 - 55 - 7

السعر: 300 ,00 دج

في سيمياء الشعر العربي القديم

ودراسات أخرى

تأليف

الدكتور سعد بوفلاقة

منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين

1425هـ - 2004 م

منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين

عنوان الكتاب: في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى

النوع: دراسة

المؤلف: سعد بوفلاقة

الناشر: اتحاد الكتاب الجزائريين

الطبعة الأولى: ربيع الأول 1425 هـ ــ مايو 2004م

التصميم: عمر هدنة

الإيداع القانوني:2351 ــ 2003

ردمك: 7-55-783-9961

طبع على نفقة الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها
التابع لوزارة الاتصال والثقافة

العنوان:

اتحاد الكتاب الجزائريين

88 شارع ديدوش مراد ــ الجزائر

هاتف: 36-26-74(12)00213

Email : Kouttab @ Wissal. dz

في سيمياء الشعر العربي القديم
ودراسات أخرى

منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين

عنوان الكتاب: في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى
النوع: دراسة
المؤلف: [illegible]
الناشر: اتحاد الكتاب الجزائريين
الطبعة الأولى: ربيع الأول 1425 هـ ـ ماي 2004م
التصميم: [illegible]
الإيداع القانوني: 2351 ـ 2003
ردمك: 9961-783-55-7

. طبع على نفقة الصندوق الوطني لترقية الفنون والأدب وتطويرها التابع لوزارة الاتصال والثقافة

العنوان:
اتحاد الكتاب الجزائريين
نهج ديدوش مراد، الجزائر
هاتف [illegible]
Email: [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

«مقدمة»

يشتمل هذا الكتاب على مجموعة من الدراسات والأبحاث، كتبتها في فترات زمنية مختلفة خلال عدة سنوات، وتعالج موضوعات متفرقة تتصل بالأدب وقضاياه وأعلامه...

كنت قد نشرتها في مجلات مختلفة، هي : حوليات جامعة الجزائر، ومجلة التراث العربي بدمشق، ومجلة الجسرة الثقافية بقطر، ومجلة الرافد بالإمارات العربية، ومجلة الفيصل السعودية وغيرها، منذ سنين.

ولكن تلك المجلات قلما يتيسر الحصول عليها، لأن انتشارها محدود، وهي لا تصل إلى كل الأقطار العربية، ولا تحفظ كما يحفظ الكتاب، ولذلك آثرت جمعها ونشرها

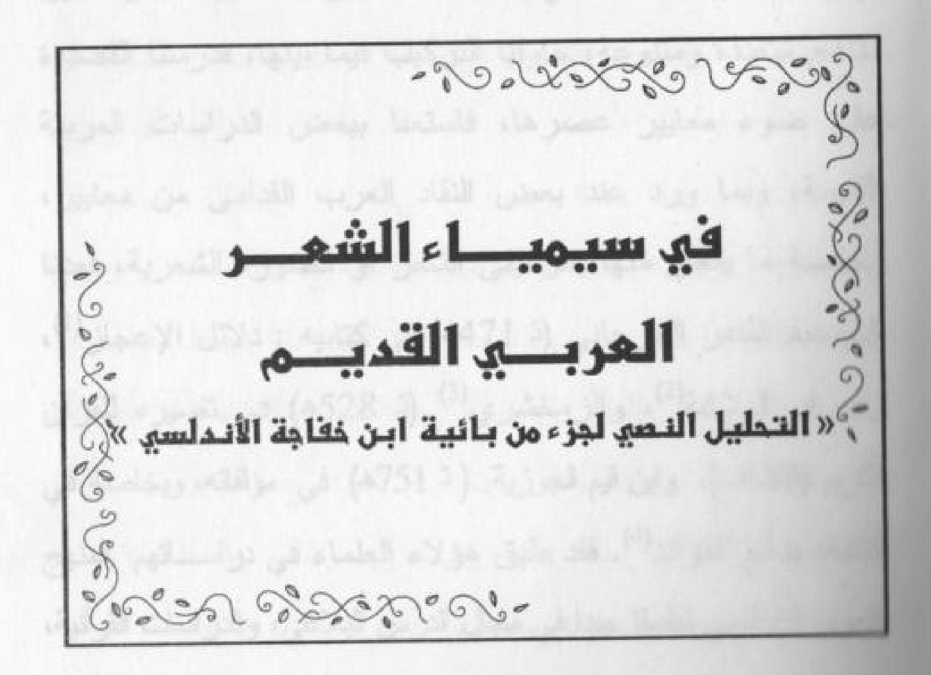
في كتاب، حتى تخرج من جوها الضيق وتنطلق إلى ميادين أرحب، فيتداولها طلاب العلم بيسر.

فأرجو أن أكون قد وفقت في بعض جوانب هذه الدراسات، وأسهمت في مد خزانة الأدب العربي بهذا الجهد المتواضع الذي آمل أن يجد فيه القارئ بعض مبتغاه وأن يرضى عنه...

فإن نلت الرضى وحزت السداد، فتلك أمنيتي وإلا فحسبي الصدق في النية، والإخلاص في العمل، والله أسأل الهدى والتوفيق، والحمد لله أولا وآخرا.

عنابة في 30 جوان 2002 م.

سعد بوفلاقة



توطئة :

يندرج موضوع هذا البحث ذو الطابع التطبيقي في إطار اهتمامنا بتحليل النصوص الأدبية القديمة، وقد اخترنا جزءا من قصيدة ابن خفاجة الأندلسي «البائية» لتحقيق هذا الهدف، ولتطبيق مناهج متعددة ومتنوعة، حاولنا التركيب فيما بينها، فدرسنا القصيدة على ضوء معايير عصرها، فاستعنا ببعض الدراسات العربية القديمة، وبما ورد عند بعض النقاد العرب القدامى من معايير، وخاصة ما يتعلق منها بموسيقى الشعر أو الصورة الشعرية، فعدنا إلى عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) في كتابيه : دلائل الإعجاز[1]، وأسرار البلاغة[2]، والزمخشري[3] (ت 528هـ) في تفسيره للقرآن الكريم (الكشاف). وابن قيم الجوزية (ت 751هـ) في مؤلفاته، وبخاصة في كتابه: بدائع الفوائد[4]. فقد طبق هؤلاء العلماء في دراساتهم المنهج اللغوي الأسلوبي تطبيقا جيدا في مجال الدرس البلاغي، والدراسات القرآنية،

---

(1) انظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز(تصحيح حمد رشيد رضا)، مكتبة القاهرة،1954.

(2) انظر المصنف نفسه: أسرار البلاغة (تحقيق : د.محمد عبد المنعم خفاجي، ود.عبد العزيز شرف)، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

(3) انظر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 ، 1981.

(4) انظر ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد (1-2) دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

وعلى من يجادل في ذلك أن يعود إلى مؤلفـاتهم المذكورة[1].

ثم درسنا النص على ضوء المناهج المعاصرة، معتمدين الدراسات الشعرية المعاصرة (السميائية، والنصانية والأسلوبية). وقد رجعنا إلى سميائيات محمد مفتاح[2].عميد السميائيين العرب، وأسلوبيات عبد الرحيم الرحموني، ومحمد بوحمدي[3]، ونصّانيات توفيق بكار[4].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض النقاد العرب المعاصرين يرون أن هذه المناهج السالفة الذكر، قد تجاوزها الزمن وأصبحت كلاسيكية، فقد قرأت مقالا في إحدى الصحف المغربية سنة 1995 ينتقد فيه صاحبه المغاربة لأنهم لا يزالون يحفلون بالسميائيات بينما الغرب يحفل بمناهج جديدة « كالتوليدية، والتداولية، والاحتجاج».

ولا شك أن « كل من عايش الشعر العربي القديم، يدرك أن دراسة نصوصه وتحليلها عقبة كأداء، يسقط في طريقها الكثيرون، ذلك أن التحليل يتطلب منهجا، واكتساب منهج ما أو تطبيقه يتطلب ثقافة واسعة وشاملة بالمنهج وأصوله وفلسفته، زيادة على ما

---

[1] انظر د.عبد الرحيم الرحموني، ود.محمد بوحمدي: التحليل اللغوي الأسلوبي (سلسلة الأسلوبية في خدمة التراث) ج2، ص:5 طبعة فاس، المغرب، 1994.

[2] انظر محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم « دراسة نظرية وتطبيقية»، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1989.

[3] د. عبد الرحيم الرحموني، ود. محمد بوحمدي : المرجع السابق، (او2).

[4] محاضرات قدمها لطلبة الماجستير سنة 1981، بقسم اللغة العربية، جامعة عنابة.

يقتضيه النص المحلل من ذكاء وفطنة يوازيان المعرفة بالمنهج»[1].

ولهذا السبب همشت دراسة النصوص، وتحليلها عند معظم الدارسين المعاصرين والقدامى فهيمنت الدراسات النظرية على الدراسات التطبيقية، فنتج عن ذلك كله ندرة المراجع في مجال تحليل النصوص الأدبية، إن لم نقل انعدامها في كثير من الأحيان »[2].

يلاحظ القارئ بعض التكرار، وبخاصة فيما يتعلق بالصورة الشعرية، ومرد ذلك يعود إلى طبيعة الدراسة التي زاوجت بين المناهج القديمة والحديثة، فكان لا بد من تكرار بعض القضايا التي تتفق فيها القراءات المتعددة.

أولاً : معطيات :

1- الشاعر :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، الهواري، الشُقري، الأندلسي، وُلِدَ في جزيرة شُقر[3] من أعمال بلنسية سنة 450هـ، ونشأ في أسرة علم وأدب وثراء. وقد تلقى

---

[1] عبد الحليم الرحموني، ومحمد بوحمدي : المرجع السابق، ج1، ص :5.

[2] المرجع السابق، والصفحة نفسها.

[3] شقر : جزيرة بالأندلس (صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، ص : 102، عُني بنشرها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال).

علوم عصره، وخاصة اللغة والأدب، على عدد من كبار علماء عصره ببلدته أوّلاً، ثم تردَّدَ بين مرسية وشاطبة. لهَا الشاعر في شبابه، ثم ترك اللهو والمجون، وعاش صَرُورَةَ (لم يتزوج قط). وقضى معظم حياته في ضيعة له قرب بلده ينظم الشعر في أغراض نفسه، ولمْ يقصد أحدًا من ملوك الطوائف، ولكن بعد أن استولى المرابطون على معظم جزيرة الأندلس، وأزالوا معظم ملوك الطوائف، اتصل ابن خفاجة – وكان قد بلغ أشُدَّهُ وذاعتْ شهرتُه – بولاة المرابطين على الأندلس، ومدحهم، إعجابًا لا تكسُّبًا، وكانت له في أيامهم حُظوةٌ[1]. كما سافر إلى عدوة المغرب، ومدح علي ابن يوسف بن تاشفين ووزراءه، ثم اشتدَّ شوقُهُ إلى وطنه الجميل فعاد إليه، وظلَّ في بلدته يهيم على وجهه بين الوديان والجبال مفتونًا بجمال الطبيعة، يستجلي أسرارها ويصفها ممعـنًا في ذلك الوصف إلىٰ أن توفاه الله سنة 533 هـ (1139 م)[2].

ولابن خفاجة ديوانُ شعر أكثره في المدح (إعجابًا بممدوحيه لا تكسُّبًا منهم)، والرثاء، والغزل، والهجاء، والحكمة، والزهد،

[1] د. عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي، ج5، ص : 218 ــ 219.

[2] راجع ترجمته ومختارات من شعره في : الذخيرة لابن بسام (تـ : د. إحسان عباس)، ق2، م2، ص: 541 وما بعدها. وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، ق4، ص : 739 وما بعدها (طبعة الأردن) والمغرب لابن سعيد، ج2 ص : 367 وما بعدها، ووفيات الأعيان لابن خلكان ج1، ص 56 وما بعدها. والرايات لابن سعيد، ص : 121 ــ 122. ونفح الطيب للمقرى، صفحات متفرقة (أنظر الفهرس). والجريدة للأصفهاني، ق2، ص : 147 وما بعدها. وق3، ص : 548 وما بعدها.

والإخوانيات. أمّا الفن الذي برع فيه، فهو وصف الطبيعة والحنين إلى الوطن، ويتسم وصفه بالتشخيص والتصوير لمباهج الطبيعة، وهو بارع جدًّا في وصف الأشجار والأزهار والأنهار حتّى سمّوه «الجنّان» وأطلقوا عليه صنوبري الأندلس لكثرة أوصافه للحدائق والجنان، ولبراعته في تلك الأوصاف[1]. ومن أجمل شعره في هذا الفن قوله :

يَا أهلَ أندلس للهِ دَرّكُمُ ... ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ

ما جنّةَ الخُلدِ إلا في ديارِكُمُ ... ولو تخيَّرتُ هذا كُنتُ أختارُ

لا تختشوا بعد ذا، أن تدخلوا سقرًا ... فليسَ تُدخَلُ بعدَ الجنّةِ النّارُ[2]

وظل شعره متداولا وذائعا على امتداد العصور الأدبية حتى يومنا هذا، وشاعريته هي التي جعلت ابن قزمان (تـ 555 هـ) يعزف عن الشعر الفصيح ويتحول عنه إلى الزجل بعد أنْ رأى نفسه تقصر عن شعر ابن خفاجة وغيره.

2- الظرف (المناسبة) :

أمّا الظرف الذي قيلت فيه القصيدة، فلم تذكره المصادر التي بين أيدينا، ولكن أغلب الظن أنّه قالها في كِبَره، وفي فترة زمنية من حياته اتسمت بالمعاناة من السفر والتنقل والاغتراب، ويبدو أنَّ تلك الفترة كانت أيام سفره إلى المغرب، وقد مرَّ في تلك السفرة

[1] د. عمر فروخ : المرجع السابق، ص : 219.

[2] الديوان، ص : 117، دار بيروت للطباعة.

بجبل أشم من تلك الجبال التي تجاور البحر في العدوتين المغربية والأندلسية، وكان الشاعر قد عمر طويلا حتى بلغ سن الحكمة، وتعرض خلال هذا العمر الطويل إلى مسرات الدهر ونكباته، فنظر إلى أصحابه وهم يذهبون واحدًا بعد آخر، ولا يعودون، فظل وحيدًا يرقب رحلته الأخيرة، فرثى نفسه بهذه القصيدة التي نحن بصدد دراستها.

3- حياة القصيدة :

وردت القصيدة في مصدرين قديمين هما: الذخيرة لابن بســـام[1]، والديوان[2]، مع اختلاف يسير في بعض الكلمات، ولكنها نالت شهرتها بفضل ابن بسام الذي كان معـــاصرًا للشاعر (ت 542 هـ)، ثم أخذها عنه الآخرون وقد أخذنا نص ابن بسام أساسا للدراسة باعتباره من أكمل النصوص التي وصلت إلينا.

4- النص :

قال ابن خفاجة الأندلسي[3]:

1- وأرعَنَ طمّاحِ الذّؤابةِ بـــاذخٍ يُطاولُ أعـــنانَ السّماءِ بغاربِ[4]

---

[1] ابن بسام : الذخيرة، ق3، م1، ص : 587.
[2] أنظر الديوان، ص : 43.
[3] ابن بسام : الذخيرة (تــح : د. إحسان عباس)، ق3، م1 ص : 587، الدار العربية للكتاب، ليبيا ــ تونس، 1981.
[4] الأرعن: الأهوج في منطقه، ويقال : جيش أرْعن : عظيم جرار، أو مضطرب لكثرته، ورجل أرعن : طويل الأنف، جمع : رُعْن، وهنا : الجبل الطويل الشديد النتوء.

2- يَسدُّ مهَبَّ الرّيح عن كل وجهَةٍ ويزحَمُ لــيلاً شُهبَه ُ بالمناكبِ[1]

3- وَقورٍ على ظَهْرِ الفلاةِ كأنّهُ طوالَ الليالي مُطرقٌ في العواقبِ

4- يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عَمائمٍ لها من وميضِ البرْقِ حمرُ ذوائبِ[2]

5- أصَخْتُ إليه وَهوَ أخرسُ صامتٌ فحدَّثني ليلَ السّـــرَى بالعجائبِ[3]

6- وقال ألا كم كنتُ ملجَـــأ فاتكٍ وَمـــوْطِنَ أوّاهٍ تبتّـــلَ تـــائبِ[4]

7- وكم مرّ بي من مدلجٍ ومـــؤَوّبٍ وَقالَ بظلّيَ من مـــطيّ وراكبِ[5]

8- ولاطمَ من نُكبِ الرّياحِ معاطفي وزاحمَ من خُضرِ البحارِ جوانبي[6]

9- فما كانَ إلاّ أنْ طوتهم يدُ الرّدى وطارت بهم ريحُ النوى والنوائبِ[7]

10- فما خفقُ أيكي غيرُ رجفةِ أضلعٍ ولا نوحُ وُرْقي غيرُ صرخةِ نادبِ[8]

11- وما غيّضَ السلوانُ دمعي وإنّما نزَفْتُ دموعي في فراقِ الأصاحبِ[9]

12- فحتّى متى أبقى ويظعنُ صاحبٌ أودّعُ منهُ راحـــلاً غيرَ آيـــبِ

13- وحتّى متى أرعى الكواكبَ ساهراً فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ[10]

---

[1] المناكب : جمع منكب : وهو مجتمع رأس الكتف بالعضد
[2] يلوثُ : يلف ويعصب، ذوائب : أطراف.
[3] أصخْتُ : أصغيت واستمعت، ليل السّرى : أي استمر يحدثني طول الليل.
[4] الأواه : هنا التائب الراهب الذي يتأوه من ذنوبه ويتعبد في الجبل. تبتّل : تنسك وانقطع إلى العبادة.
[5] المُدْلج : السائر في الليل أو السائر من أول الليل إلى آخره. المؤوّب : الراجع، العائد، أو الذي يسير جميع النهار. قال : نام القيلولة. ومطي : جمع مفرده مطية : من الدواب ما يمتطى.
[6] النُّكب : جمع نكباء : وهي الريح تَهُبّ بين مهب الريحين أو هي الريح الشديدة. معاطفي: جوانبي. خضر البحار: المراد بها : السحب.
[7] ريح النّوى : ريح الفراق.
[8] خفق أيكي : تحرك أشجاري واهتزازها. والأيك : جمع أيكة : الشجر الكثيف الملتف. رجفة الأضلع : اضطرابها : الورق : جمع ورقاء : وهي الحمامة.
[9] غيّض السّلوان : نقصه وقلّلهن وغيض أيضا: غور جعله ينضب. نزفت دموعي : سكبتُها بكثرة.
[10] أرعى الكواكب : أبيت ساهرا أرقبها.

14- فرحماكَ يا مولاي دعوةُ ضارع   يمدُّ إلى نُعماك راحة راغــب[1]

15-فأسمعَني من وعظهِ كــلَ عبرةٍ   يُترجمها عنه لسانُ التّجــارب

16-فسلّى بما أبكى وسرَّى بما شجاً   وكان على ليل السّرى خير صاحب[2]

17- وقلتُ وقد نكّبتُ عنه لطيّةٍ   سلامٌ فإنّا من مُقــيم وذاهب[3]

ثانيا : تحليل النص على ضوء معايير عصره

1- عنوان القصيدة :

تعرف هذه القصيدة في الكتب المدرسية وغير المدرسية باسم « وصف الجبل»[4] أو « بائية ابن خــفاجــة »[5] أو « مقــيم وذاهب »[6] أو « في الاعتبار »[7]. وليست هذه العناوين جزءا أصيلا في القصيدة، وإنما وضعها لها - اجتهادا - بعض المنتقين، وبالنظر إلى مضمون القصيدة فإننا نرى أنّ العنوان الأكثر التصاقا

[1] البيت من كلام الجبل، ومولاه : هو الله جلَّ وعلا.

[2] سرّى : بدّد الحزْن وأبعد الهموم. شجا : أحزان.

[3] نكّبت عنه : مِلتُ عنه وانصرفتُ. الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر، وهنا بمعنى السفر ومن في " من مُقيم " زائدة أو بيانية أي : فإنّا من بين مقيم وهو أنت، وذاهب وهو نحن.

[4] انظر محمد الطيب وإبراهيم عبد الرحيم : تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، ص : 422. والدكتور جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص : 139.

[5] انظر الدكتور محمد هيكل : قصائد أندلسية، دارسة أدبية ص : 67، مكتبة الشباب، القاهرة.

[6] انظر الديوان، ص : 42 (ط. دار بيروت).

[7] أنظر ابن بسام : المصر السابق، ص : 587.

بالمضمون هو « وصف الجبل » لأن العنوان هو ذاكرة النص ورأسه المفكر.

2- نمط هذا الشعر ونوعه :

يُعَدُّ هذا الشعر سبعة عشر بيتا، فهو في عرف النقد العربي القديم مقطوعة عند فريق[1]، وقصيدة بسيطة عند فريق آخر[2]، ويخضع تأليفه لقاعدة الوحدات الثلاث التي كانت تتحكم في الشعر العربي القديم :

- وحدة البحر : وهو الطويل هنا، وقياسه : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن في الصدر والعجز.

- وحدة القافية : وقد وردت مركبة أجزاؤها : حرف الروي (بِ)، وحركة المُجرى كسرة، وحرف التأسيس (أ)، وحركة

[1] اختلفت الأراء حوْل عدد الأبيات التي يجب أن تتوفر في النص ليصبح قصيدة أو مقطعة أو أبياتا، فابن رشيق يقول: إنه إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة أبيات غير معيب عند أحد من الناس... ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بيت واحد. أما الفرّاءُ فذهب إلى أن القصيدة ما بلغت العشرين بيتًا فأكثر .... ولكن ابن جني يرى أن القصيدة ما جاوزت أبياتها الخمسة عشر، وما دون ذلك قطعة. ويذهب الأخفش إلى أن القصيدة ما كانت على ثلاثة أبيات. أما نحن فنرجع رأي ابن رشيق الذي حدد القصيدة بسبعة أبيات لأن الإيطاء بعد سبعة أبيات غير معيب. (أنظر ابن رشيق : العمدة، ج1 ص: 188 ــ 189. الباقلاني : إعجاز القرآن، ص: 257، طبعة دار المعارف. وابن منظور: لسان العرب، مادة : قصد).

[2] قسم حازم القرطاجني القصائد إلى نوعين : بسيط ومركبٌ، فيرى أنّ القصيدة المركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين، مثل أن تكونَ مشتملة على نسيب ومدح.. وهذا أشدُّ موافقة للنفوس... أمّا القصيدة البسيطة فهي التي تكون مدحًا صرفا أو رثاءً صرفا... (انظر: حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 303 - 304، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986).

الدخيل بين التأسيس والرّوي كسرة، ومجموعها (غارب، ناكب، وائب، جائب، تائب. وهلم جرًّا)، وهي النغمة التي يجب أن يقفل بها كل بيت.

- وحدة البناء : في شكل عمودي ينفي مبدئيا كل هندسة مقطعية.

أمّا نوع هذا الشعر فهو غنائي من نوع القريض، لأنّ النقاد العرب القدماء حصروا الشعر العربي في سبعة أنواع، هي : « الشعر القريض والموشح، والزجل، والمواليا، والكان كان والحماق، وأهل العراق ودياربكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها، ويبدلون الزّجل والحماق بالحجـازي والقـوما (قوما)، وهما فنّان اخترعهما البغـاددة للغنـاء بهما في سحور شهر رمضان خاصة في عصر الخلفـاء الراشدين من بني العباس[1] ».

3-موضوع النص ومضمونه :

يتحدث ابن خفاجة في نصه هذا عن تجربة تأملية فكرية، مبعثها مشاهد طبيعية، وقالبها ذو ملامح قصصية، تجمع بين خصائص شعر التأمل والحكمة، وسمات شعر الطبيعة والوصف، وملامح شعر الحكاية والقصص، فالجانب التأمّلي في صُلب

(1) صفي الدين الحلي : العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق : د.حسين نصار، ص : 02، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهر 1981. والإبشيهي :المستطرف في كل فن مستظرف، ج2، ص : 207، القاهرة، 1385 هـ.

التجربة والإحساس، والجانب الطبيعي في الصّور التي حملت التجربة، وحرّكت الإحساس. أمـّا الجانب القصصي ففي الإطـار العـام والقـالب الفنّي الذي قدّم به الشـاعر ما أراد قوله[1]. فقد نفخ الشاعر من روحه في الجبل فإذا هو كئيب قد ملّ البقاء على ظهر الفلاة، قد ودَّع أصحابه، وهو قـائم منتصبٌ يرعى النجـومَ، ويرقبُ أفولها، وتجاوزَ الثّمانين فملَّ الحياة. إنَّ الجـبـل قد صوّرَ نفسَ الشاعر في حزنها، وعبَّر عنها في هذا النص[2] و كـأن الشاعر يبكي نفسه من خلال الجبل.

4-تقسيم النّص إلى مقاطع :

يكادُ يكونُ هذا النّص وحدة شعرية متكاملة، لا يخرج فيها الشاعر عن وصف مشاهد طبيعية معبّرًا من خلالها عن تجربة تأملية فكرية، فإذا الطبيعة ظل روحه، وصورة نفسه، وبالرُّغم من ذلك يمكننا أنْ نقسمه إلى المقاطع الآتية :

- المقطع الأول : هيئة الجـبـل وتصويره حـيًّـا وقـورًا، لا يضطرب ولا يتزعزع (1-4)
- المقطع الثاني : حديث الجبل ووعظه (5-15)

(1) الدكتور أحمد هيكل : المرجع السابق، ص : 73.

(2) انظر : محمد الطيب وإبراهيم عبد الرحيم : المرجع السابق، ص : 422.

- المقطع الثالث : ختام في العظة والاعتبار، وتسلي الشاعر بما سمع من عبر، وتحيته الأخيرة، تحية الراحـل للمقيم (16-18)

5-شرح المعاني[1] :

والشرح أهم الخطوات التي تمهد للدراسة الفنية ويجب أن يتوفر فيه ما يأتي :

- أداء المعنى الذي أراده الأديب دون زيادة أو نقصان.
- الشرح بأسلوب أدبي عربي مبين.
- النظر إلى النص على أنّه بنية حيّة متماسكة.

يتحدّث الشاعر في هذا النّص عن جبل تأمّله أثناء رحلته، فوصفه ثم شخّصه، وأجرى الحكمة على لسانه، وفي ذلك كله يقول :

1-يقف الشاعر إزاء الجبل كأنّه مع إنسان حيّ وقور ثابت، باذخ أشم، ضخم لا حدَّ لضخامته ألم به أثناء ترحاله، فرآه وكأنّه يباري جوانب السماء ارتفاعا وعلوًا.

2-وأحسّ كأنّه لضخامته يصدُّ الريحَ أنّى واجهته ويزاحم بمناكبه النجوم مهما ارتفعت.

---

[1] استعنا في شرح المعاني بكتاب الدكتور أحمد هيكل : المرجع السابق، ص : 77 وما بعدها.

وكتاب محمد الطيب وإبراهيم عبد الرحيم : المرجع السابق، ص : 425 وما بعدها.

3-وقد تخيّل منظره وما يثير فيه من خواطر، وكأنّه شيخ وقور جاثم على صدر الصحراء، وقد أطرق على مرّ الليالي يفكّر في أمور الدنيا والناس، ونهايتها ونهايتهم.

4-وقد أكمل الغيمُ صورةَ هذا الشيخ الوقور، فنسج حول رأسه ما يشبه عمامة سوداء، ذوائبها الحمر من لمعان البرق الخاطف.

5-ثم ينصت الشاعر إلى ما سيلقيه الجبل عليه – أو الشيخ الوقور المعمّم – فينطلق لسانه، وهو الأخرس الصامت، ليُحدثّه في ليل السُّرى، أي: خلال مروره به ليلا، بأحاديث عجيبة وحكم مدهشةٍ.

6-وإذا حديثه قصّةُ إنسان سئم الحياة، وملَّ البقاء وذلك الخلود الذي لا غاية وراءه فقال : إنَّ حوادث الدّهرُ قد عبثتْ به، فجمع بين المتناقضات في رحابه، فكان مأوى للقتلة الفارين من وجه العدالة، وملجأ للعابدين الزاهدين في الدنيا والناس.

7-وقد مرّ به كثيرٌ من السائرين ليلا ونهارًا، فكان لهم مقيلا يستظلون بظله، ويستريحون هم ومطاياهم في رحابه.

8-أمّا الرياحُ الهوجاء، فقد عصفت به من كلّ ناحيةٍ فلم تزحزحْهُ قيد أنمُلة، وكذلك السُّحبُ الخُضر، فكم هطلت وابلاً على ذراه، فما أثرت فيه وما أضرته.

9- ولكن، أين كلّ هؤلاء ؟ لقد طوتهم يدُ الموت المفترسة التي لا يفلت منها أحدٌ، تطوي كل شيء وتتركه هو، كما أنّ بعضهم الآخر قد انتهى إلى البعاد أو نائية، ويبقى هو وحيدًا متألما.

10- وما هذا الذي تراه من خفق الأشجار، ونوح الحمائم إلاّ ارتجاف أضلعه، وصرخاته على مصير البشر الذين كانوا أصدقاءه وجيرانه ذات يوم.

11- فهو لمْ ينسَ أحدًا من أصدقائه الذين ذهبوا واحدًا إثر الآخر، وإنما نضبت دموعه من كثرة البكاء لفراق الأصحاب، فقد نزفت نزفا حتى جفّت.

12- ثم يقول وقد انتابه السأم والضّجر مستبطئًا نهايته : إلى متى يمتدُّ بي الأجل ويرحل أصحابي ؟ هؤلاء الذين أودّعُ منهم كلَّ يوم مرتحلاً إلى غير رجعة.

13- وإلى متى أظلُّ ساهرًا أراقبُ النجوم ؟ ما بين نجم يشرق في آخر الليل وآخر في الوقت نفسه يأفل.

14- ثم يمدُّ يده متضرّعًا متذللاً يسأل الله الرحمة والفناء أملاً في واسع نعمته وسابغ رحمته.

15- وأخيرا يعود الشاعر في هذا المقطع الأخير إلى الحديث عن نفسه، ويلخص أثر أقوال الجبل في نفسه، فيقول :

وهكذا أسمعني الجبل من وعظه كلّ عبرة وقد كشف من خلال ذلك عن خبرة طويلة، فكان لي خير صاحب في رحلتي هذه.

16- وكان الجبل قد سلاّهُ ببكائه، وسرّى عنه بهذه الأحزان التي قصّها عليه، فحمل إليه العزاء والسّلوان. وقد يكون المعنى هو أنّ الجبل أراد أنْ يُسليه، لكنّه أبكاه، وحاول أنْ يخفف عنه، ولكنّه أحزنه، ومع ذلك كان أحسن صاحب له أثناء هذه السفرة الليلية القاسية الموحشة[1].

17- ثم يلقي عليه التحية، تحية الراحل (الشاعر) للمقيم (الجبل)، ويقول له : سلام عليك أيها الجبل فإنما نحن اثنان دائما، واحد يقيم، وآخر يذهب، فلتبق أنت حيثُ كنت أبدًا، ولأرحل أنا كما رحل الآخرون السابقون.

6- مناقشة المعاني :

معاني النص عميقة، ولسنا نعني بالعمق الغموض والإبهام ومعميات الفكر، وإنما نعني امتداد المعنى وثباته أمام التأمل الفكري، فالمعنى العميق لا يدرك كلّه للوهلة الأولى، وإنّما يعطيك الأديب طرفا منه، تتعلق به لدى رغبتك في التأمل، ثم تحس بعد

(1) انظر الدكتور أحمد هيكل : المرجع السابق، ص : 80.

ذلك بدافع داخلي قويّ إلى إمعان النظر فيه، وكلّما أمعنت النظر في تأمله تكشفتْ لك فيه نواح جديدة[1].

ومعاني النص تريك قدرة ابن خفاجة في الغوص على المعاني وقوة التصوير والإجادة فيه، فقد تميّزت معانيه بالعمق والتشخيص للجبل، وإجراء للحكمة على لسانه، فإذا هو إنسان يفكر وينطق ويعظ، وترتجف ضلوعه، وقاده هذا التصوير إلى شيء من التعقيد والغرابة فاستغلقت معانيه أحيانا على القراء، ولكنه ابتكر بعض المعاني الواردة في هذا النص الذي يُعدُّ من عيون الشعر الأندلسي لما فيه من طابع قصصي يقل وجوده في الشعر العربي، وأيضا لما فيه من تشخيص للجبل.

7- العاطفة :

في هذا النّص عاطفة ذاتية إنسانية، ومصدرها نفسية الشاعر القلقة التي دبتْ فيها الشيخوخة، فقوّست السنون دهره، وأعشت بصره، ودبّت في نفسه روح الملل والضّجر، فاكتأب من البقاء العابث، وقد فارقه أصحابُه وودّعوه الوداع الأخير، فشعر بتفاهة الحياة[2].

[1] انظر الدكتور أحمد بوحاقة : البلاغة والتحليل الأدبي، ص : 286 وما بعدها، دار العلم للملايين، بيروت.

[2] انظر محمد الطيب وإبراهيم عبد الرحيم : المرجع السابق، ص : 427.

ولا ريب في أنّ عاطفته صادقة، قوية، ومشاعرهُ مؤثرةٌ، عميقة، تفيضُ بالقلق والضجر والاضطراب الداخلي العنيف، ولولا ذلك، لما أحدثت انفعالاً في نفوسنا، فشاركنا الشّاعرَ فيما هو واجدٌ، وهي عاطفة سامية أيضا لأنّها تنزع بصاحبها نحو الخلاص مما هو فيه.

8- الخيال :

اشتمل النّص على كثير من الصّور البيانية والمحسنات البديعية، فنحن لا نكاد نجد بيتا عاريا من ثوب الخيال، أو مجردًا من التوشية والتنميق، ولعلَّ أجمل ما وُفّقَ إليه الشـاعرُ هو تشخيص الجبل، وتصويره تصويرًا محكمًا، فجعله شيخا معمّمًا، مهيبًا، جليلاً، وقوراً مُطرقا، يَزْحَمُ بمنكبيه النُّجوم، ويصدُّ الريح، ويفكّر، وينطق، ويعظ، ويرق، ويندبُ مصير رفاقه، ويذرفُ الدمع مدرارًا لفراقهم، وترتجف ضلوعه، ويرقب طلوع النجوم وأفولها، وللرّدى يدّ، وللتجارب لسانٌ يترجم عن الجبل.

ونسمّي هذا النّوع من الخـيال استعارات متعـددة أو « الخيال المؤلف»[1] لأنّه يؤلف بين مناظر مختلفة. ونلاحـظ أيضا أنّ الشاعر اعتمد على المحسنات البديعية في هـذا النّص، كالجـناس الناقـص بين « النوى والنوائب » في البيت التاسع،

[1] انظر عن الخيال المؤلف : أحمد أمين : النقد الأدبي، ج1، ص : 40.

وبين « سلى وسرى » في البيت السادس عشر. والطباق بين « فاتــك وأواه » في البيت الســـادس، وبين « مُــدلج ومؤوب » في البيت الســـابع، وبين « أبقى ويظعن » وبين « راحل وآيب» في البيت الثاني عشر، وبين «مقيم وذاهب» في البيت الســـابع عشر، إلى غير ذلك من تلك الصـــور البديعية التي امتاز به ابن خـــفـــاجة من دقة التصوير وحسن البيان. وهو يجيد في ذلك كلّه فتأتي الصُّور والزخـــارف جميلة سائغة كـــأنّها تصدر عن صاحبها صدورًا طبيعيا.

9- الأسلوب :

عرف العرب أربعة أنواع من الأساليب، هي : الأسلوب الجزل، والأسلوب السهل، والأسلوب السوقي، والأسلوب الحوشي[1]. أمّا أسلوب النّص، فهو أسلوب ابن خفاجة في معظم شعره، أسلوب جزل، قوي الألفاظ، فخم العبارات، له طنين وجلجلة، فهو يعمد إلى الألفاظ الضخمة الفخمة ذات الجَرْس القوي والوقع الشديد، وقد جاءت في النّص فصيحة كلُّها. أمّا التراكيب

[1] انظر الدكتور عبد العزيز عتيق : في النقد الأدبي، ص : 152 وما بعدها، والدكتور سعد بوفلاقة: أشعار النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي (رسالة دكتوراه دولة) مودعة بمكتبة جامعة الجزائر، ص:397-398.

فهي أيضا فصيحة، متلائمة، متناسقة، متوائمة، حسنة السّبك، لا اضطراب فيها ولا ضعف. غير أن أسلوبه لم يخل من التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي أحيانا، فاستعمل ألفاظا حـــوشية كما هو الحال في البيت الأول، فمعظم ألفاظه غريبة وحشية، مثل : (أرعن، طماح، الذؤابة، باذخ، غارب...) فهي كلمات مغرقة في الكلاسيكية. كما استغلقت بعض معانيه على القراء.

والقصيدة من البحر الطويل، كما أسلفت، وهو من الأبحر التي كثر استعمالها في الشعر العربي، وهو يتسع لكثير من الأغراض ومنها الوصف وهو مزدوج التفعيلة ولم يرد في شعر العرب إلا تاما.

وتقطيع البيت الأول هكذا :

وأرع/ نطمما حذ / ذؤاب / تباذخن / يطاول/ لأعنانس/ سماء/ بغارب

فعول/ مفاعيلن / فعولن / مفاعيلن / فعول/ مفاعيلن / فعول/ مفاعلن

10- خلاصة :

في ختام حديثنا عن تحليل النّص على ضوء معايير عصره، يجدر بنا أنّ نسجل الملاحظات الآتية :

يُعدُّ هذا النّص من الروائع الخفاجية والأندلسية التي ظلّت محتذاة حتى أواخر أيام مملكة غرناطة. وشاعرية ابن خفاجة وتفوقه الذي حققه في مثل هذا النّص هو الذي جعل ابن قزمان (تـ 555 هـ) يعزف عن الشعر الفصيح ويتحول عنه إلى الزجل بعد

أنْ رأى نفسه تقصر عن شعر ابن خفاجة وغيره[1]. وعُدّ النّص لونا جديدا في الأدب العربي، برع فيه ابن خفاجة وتفوق على السابقين، وبهذا التفوق الذي حققه الشاعر في هذه القصيدة يصدق رأي المستشرق الإسباني غارسيا غومث الذي يفيد أنّ هذا الشاعر وصل بالشعر المحافظ الجديد إلى الذروة في الأندلس، فكان مثل الشاعر الإسباني (جُنْجُرة) الـذي لا يوجـد بعـده إلا التكـرار أو الانحدار[2].

[1] د.منجد مصطفى بهجت: ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد (التاسع عشر) سنة 1996، ص : 67.

[2] أنظر E.G.C.MEZ.POEMAS ARABIOGO ANDALUCES P:39 اقتبسه الدكتور أحمد هيكل في المرجع السابق، ص:82.

ثالثا : تحليل النص على ضوء المناهج الحديثة[1]

سندرس نص ابن خفاجة حسب المستويات الثلاثة : المعجمي والصوتي والتركيبي.

1 ــ المستوى المعجـمي: أو الكلمة الشعرية، فالحـديث عنها شيء ضروري لأنّ المستوى المعجمي هو الأسـاس الـذي يبنى عـلـيـه النص[2] يمكن تصنيف معجـم ابن خفـاجة في هـذا النص حسب ثلاثة معايير : السجلات والمصطلحات والصفـات.

أ- السّجـلات : ونعني بالسّجـلات الألفـاظ التي وظّفها الشـاعر في النص من حيثُ وضـوحُها أو غموضُها، جـدّتُها أو قدمُها...

[1] وقد استعنت في هذه المناهج بكتاب محمد الهادي الطرابلسي : خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص : 21 وما بعدها، منشورات الجامعة التونسية، 1981، وكتاب محمد مفتاح : في سيمياء الشعر القديم «دراسة نظرية تطبيقية» دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، طبعة 1989. ومجلة دراسات سميائية، تصدر بمدينة فاس بالمغرب، العدد 1، 1987، وع2، 88 و ع7 : 1992 ومحاضرات الأستاذ توفيق بكار، قدّمها لطلبة الماجستير بجامعة عنابة، سنة 1981. وكتاب الدكتور محمد مرتاض : مفاهيم جمالية في الشعر القديم... ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر، 1998. وكتاب الدكتور عبد الرحيم الرحموني والدكتور محمد حمدي :المرجع السابق. وكتاب محمد حمود : تدريس الأدب، استراتيجية القراءة والإقراء، الدار البيضاء، المغرب وكتاب الأستاذ حسن جلاب : الدولة الموحدية أثر العقيدة في الأدب، منشورات الجامعة، المغرب، 1983 وغيرها.

[2] انظر يوري لوتمان، ص : 243 – 260. اقتبسه محمد مفتاح في كتابه : في سيمياء الشعر القديم، ص : 42.

أكثر الألفاظ من المتداول في عصر الشاعر، كلمات غريبة المعنى أحيانًا، مأخوذة إجمالاً من قاموس اللغة الكلاسيكية فالشاعر يكتب بلغة عصره. هذا هو السجل الرئيسي.

فالألفاظ الكلاسيكية الغريبة، مثل : أرْعَنَ – طمّاح – الذؤابة – باذخ – غارب – المناكب – يلوث – أوّاه– نكّب – خضر البحار– وغيرها ... والألفاظ المأنوسة، المألوفة، مثل : السماء – الريح – يزحم ليلا – ظهر – الليالي – الغيم – البرق – حُمر – البحار – دمعي – فراق – راحلا – الكواكب – سلام – مقيم.. وهلُمَّ جرًّا.

ب- **المصطلحات** : ونعني بها الحقول اللغوية في النص بعد قراءتنا للنص قراءة فاحصة، ومتأنية، وجدنا المفردات تنتمي إلى مصطلحات وأطر شتّى، وتتوزّعُ بينها حسب نسب متفاوتة، وقد أمكننا أنْ نفرزَ ونحدّدَ الأطُروا لحقول اللغوية الآتية :

2-**إطار الوصف** : من أكثر الحقول حضورًا ويمكن تقسيمه إلى قسمين :

- **وصف الفضاء** (الطبيعة) : الزمان ومؤشراته : الريح – ليلا – شُهبه – طوال الليالي – يلوث عليه الغيمُ – سود عمائم – وميض البرق – حُمر ذوائب – ليل السُرى – نُكب الرّياح – خُضر البحار – ريح النّوى – أرعى الكواكب...

المؤشرات المكانية : أرعن – أعنان السماء – الغارب – الفلاة – ملجأ – موطن ...

- **وصف الشخصية** (الإنسان) : وقورٌ – مطرقٌ – يلوثُ (يلف) – عمائم (جمع عمامة) – أصختُ – أخرس – صامت – حدّثني – قال بظلي – فاتك أوّاه (راهب يتعبد في الجبل) – تبتّل – تائب – مُدلج (من سار الليل كله...) – مؤوّب – نادب – أوَدِّع – راحل – أيب – ضارع – راغب – فاسمعني من وعظه– لسان – سلّى – أبكى – شجا – مقيم – راحل... إلخ.

ما يمكنُ ملاحظته هو أنَّ كُلَّ واحدٍ من هذه الأوصاف يدلُّ على شيء واضح يتعلق بالإنسان (على وجع الحقيقة) ويوحي بمعان خفية تتعلق بالجبل (على وجه المجاز)

3-**إطار الأخلاق** – المصطلح الأخلاقي والديني : مُتوّفرٌ إلى حدٍّ ما : وقور – العواقب – فاتك – أوّاه – تبتّل – تائب – رحماك يا مولاي – دعوة ضارع – راحة راغب – وعظه – عبرة – سلّى – أبكى – سرّى – شجا – خير صاحب. كلمات ذات صلة

دينية تنتسب كلها إلى معجم الأخلاق (الخير – الشر).

4- **المصطلح النّفسي** : يساهم بقسط في تكوين الكلمة الشعرية : رجفة أضلع – نوح ورُقي صرخة نادب – يزحمُ بالمناكب – السلوان – دمعي – نزفتُ دموعي – لاطم – زاحم.

– نلاحظ أن الكلمات مطبوعة بطابع الحزن العميق ومشدودة إلى الطبيعة

– كما نلاحظ تناصًّا نوعيا بين هذه الأطر المعجمية.

– ونسجل هيمنة الوصف على القصيدة بشكل يجعل من هذه التقنية غرضًا أساسيا، إلى تلك الدرجة التي يغدو معها المشكل الاجتماعي الأخلاقي المعالج، قضية عارضة.

– كانت هذه أهم المصطلحات التي وردت في النّص، وقد اكتفيتُ بهذه النماذج خوف الإطالة والإملال.

ج- **الصّفات** : ونعني بالصّفات لغة النّص من حيث الحسي والمعنّوي والواقع والرمز.

1- **الحسي والمعنوي** : ما يمكنُ ملاحظته هو : أنَّ الكلمات ذات المدلول المعنوي أوفر بكثير من الكلمات ذات المدلول المادي، وذلك لأنَّ الكلمات المعنوية وثيقة الصّلة بحياة

الشّاعر وأوضاعه، فقد نظم هذه القصيدة في كبره، وفي فترة زمنية من حياته اتسمت بالمعاناة من السفر والتنقل والاغتراب وقد عمّر الشاعر طويلا حتى بلغ سن الحكمة، وتعرّض خلال هذا العمر الطويل إلى مسرّات الدهر ونكباته، فملَّ الحياة بعد أن نظر إلى أصحابه وهم يذهبون واحدًا بعد آخر ولا يعودون، وظل وحيدًا يرقُب رحلته الأخيرة. فحالة القلق والضجر هذه التي أفرغها الشاعر على الجبل تتطلب منه أنْ يكون معجمُه المعنوي أوفر من معجمه المادي ومع ذلك فلا يخلو النّص من بعض المعاني الحسية.

2- **الواقع والرمز** : يستعمل ابن خفاجة – ككل أديب – كلمات المعجم تارة على وجه الحقيقة، وتارة على وجه المجاز، ويحمّل عبارته دلالتين متراكمتين، إحداهما واقعية، والأخرى رمزية، الأولى تشخص ظاهرا ملموسا، والثانية توحي بمعان خفية : وقور على ظهر الفلاة (الجبل والشيخ) – مطرقٌ في العواقب (الجبل والشيخ) – وقال ألاكم كنتُ ملجأ فاتك (الجبل والشيخ)...

كلُّ واحدة من هذه الكلمات تدلُّ على شيء واضح وتوحي بمعنى غامض يتداخل فيها الواقع والرّمز [1].

[1] استعنتُ في هذا المنهج بالأستاذ توفيق بكار، المرجع السابق.

2- المستوى الصوتي : الموسيقى

1. الصوت الداخلي : الموسيقى الداخلية

أ- تكرار الأصوات على مستوى الأبيات :

البيت 1 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 13 مرة، والصوت (ب) تكرّر : 4 مرات.

البيت 2 : الصوت (أ) – لينة – تكرّر : 4 مرات و الصوت (ل) تكرر : 5 مرات. والصوت (ب) تكرّر : 4 مرات، والصوت (ي) تكرّر : 4 مرات.

البيت 3 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 7 مرات، والصوت (ل) تكرّر : 6 مرات. والصوت (و) تكرّر : 4 مرات.

البيت 4 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرر : 5 مرات، والصوت (ل) تكرر : 5 مرات.

البيت 5 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرر : 7 مرات، والصوت (ل) تكرر : 5 مرات.

البيت 6 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 8 مرات، والصوت (ت) تكرّر : 5 مرات. والصوت (ل) تكرر : 5 مرات.

البيت 7 : الصوت (م) تكرّر : 7 مرات. والصوت (و) تكرّر : 6 مرات والصوت (ب) تكرّر : 4 مرات.

البيت 8 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 8 مرات.

البيت 9 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 9 مرات.

البيت 10 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 5 مرات. والصوت (ر) تكرّر : 4 مرات.

البيت 11 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 9 مرات.

البيت 12 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 9 مرات.

البيت 13 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 14 مرة. والصوت (ل) تكرّر : 5 مرات.

البيت 14 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 8 مرات.

البيت 15 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 5 مرات. والصوت (ل) تكرّر : 5 مرات.

البيت 16 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 12 مرة. والصوت (ل) تكرر : 5 مرات.

البيت 17 : الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 4 مرات.

يلاحظ أننا سجلنا فقط الأصوات التي تكررت في البيت الواحد أربع مرات فأكثر.

انّ تركيب الأصوات الأكثر تكرارًا في البيت الأول يؤدي إلى تكوين كلمة محور وهي : (أبّ)، والأبُّ : هو العُشب رُطبُه ويابسهُ أي : الكلأ والمرعى وكلُّ ما ينمو بدون تدخل الإنسان، ويرعاه الحيوان، وفي القرآن الكريم ﴿وفاكهة وأبًا﴾[1]. ونُلاحظ بأنّ كلمة المحور لها علاقة مع الطبيعة كما هو الحال في القصيدة.

ب- تكرار الأصوات على مستوى القصيدة كَكُلّ :

الصوت (أ) – لينة وأصلية – تكرّر : 142 مرة. والصوت (ل) تكرّر : 64 مرة.

بتركيبنا لكلمة من هذه الأصوات المرتفعة التكرار نحصل على كلمة – محور – هي : (ألّ)، وبرُجوعنا إلى المعجم وجدنا بأنّ الكلمة (ألّ) تعني : أسرع، وبَرَق ولمَعَ. وأنّ – من الأنين – ورفع صوته بالدُّعاء. وصرخ من الألم. وهذه المعاني كلها متضمّنةٌ في القصيدة، وبخاصة في الأبيات : 4 – 7 – 10 – 11 – 12 – 13 – 14.

ج – صفات الأصوات في النص : الجهر والهمس بالنسبة لصفات الأصوات في النّص يلاحظ هيمنة الأصوات المجهورة، فهي أوفر بكثير من الأصوات المهموسة[2]، «وذلك لأنّ الاستقراء

[1] سورة عبس، الأية : 31.

[2] الحروف المَجْهُورة تسعة عشر حرفا، وهي : (ء-أ – ع – غ – ق – ج – ي – ط – د – ز – ظ – ذ – ب – م – و – ض – ل – ن – ر) والعشر الباقية مهموسة وهي :-

يُثبتُ أنّ أربعة أخماس الكلام العربي تتكون من المَجْهُور، بينما لا تزيد نسبة الأصوات المهموسة على 20 %[1] ». وكذلك فإنّ غلبة الأصوات المجهورة على الأصوات المهموسة يعود إلى طبيعة الموضوع المطروق، وهو وصف الطبيعة الذي تناسبه الأصوات المجهورة، وبخاصة الشديدة منها، أو التي هي ما بين الشدة والرّخاوة[2].

- (هـ – ح – خ – ك – س – ش – ت – ص – ث – ف). وقد عرّف عبد القاهر الجرجاني المجهور بقوله : هو « أنّه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، و منع النفس إن يجري معه حتّى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ». أما المهموس، فهو « حرف اضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس ».

انظر عبد القاهر الجرجاني : المقتصد في شرح الإيضاح والتكملة (ميكر وفيلم بجامعة الدول العربية، الأسكوريال رقم 44)، ج2، ورقة : 324. اقتبسه د.تامر سلوم في كتابه : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، ص: 16–17، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 1983

[1] د.محمد مرتاض : مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ص : 145، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.

[2] وقسم عبد القاهر الجرجاني من جهة أخرى الحروف إلى ثلاثة أقسام : الشديدة والرخوة والمعتدلة. فالحروف الشديدة ثمانية، وهي : (ء – ق – ك – ج – ط – د – ت – ب). وما بين الشدة والرخاوة ثمانية أيضا، وهي : (ا – ع – ي – ل – ن – ر – م – و). وباقيها (هـ – ح – غ – خ – ش – ض – ص – س – ز – ص – ذ – ث – ف) هي الرخوة، وعددها ثلاثة عشر حرفا. ومعنى الشديد أنّه حرف صلب قوي لا يجري الصوت فيه. (انظر : عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق : ص 324. اقتبسه د.ثامر سلوم : المرجع السابق، ص 17).

د- التنوين :

وهو نون ساكنة تلحق آخر الاسم لفظا لا كتابة ورسمًا. وهي من حروف الغُنّة[1]، ذلقية خيشومية من حيث مخرجها الصوتي. لذلك يحدث تتابع التنوينات المشكل لتلك النونات المنطوقة نغما موسيقيا متتابعا، يُشعرك بتلاحق أنفاس الشاعر تلاحقا بين الحزن والفرح (فسلى بما أبكى وسرى بما شجا) وتتغير حركـاتها رفعًـا وهمسًـا ولينـًا وشدة، وانسيابًا وتهدُّجا[2].

وهذه نماذج من تنوينات ابن خفاجة في النّص توضح ذلك، فقد رسم خطا إيقاعيا حزينا عكس تأثره العميق لرحيل اصدقائه الذين ذهبوا واحداً إثر واحدٍ، وهو لم ينسَ واحدًا منهم، وإنما نضَبَت دمُوعُه من كثرة البكاء، وقد شكلت تنويناته فضاء موسيقيا يطبعه الحزن والأسى، ومنها : ليلاً – مطرقٌ – صامتٌ – فاتكٍ – أوّاهٍ – مُدلج – مؤوّبٍ – أضلُع – صاحبٌ – راحلاً – ساهرًا – ضارع – عبرةٍ – مقيم – إلخ.

---

[1] الغُنة : (م – ن) ويقصد بهذه الصفة أنّ كلاً من هذين الصوتين إذا كان مشكلا بالسكون فإنّه يتأثر بالصوت الذي يجاوره فيخفى معه أو يفنى فيه مع بقاء غنة تشعر بوجوده أو صوت أنفي يدل عليه ويحول بينه وبين فنائه في غيره من الأصوات (انظر المصدر السابق ج2، ص : 324 – 332).

[2] د.عبد الكريم الباقي : دراسات فنية في الأدب العربي، ص : 222، طبعة دمشق، 1972.

هـ- حروف المد :

وتسمى حروف اللين أيضا، وهي : الألف والواو والياء، والمقصود بذلك أنّ هذه الحروف قد امتازت على غيرها من الأصوات بصفة المدّ التي تعدُّ صفة قوة فيها. والمدُّ كما عرّفه عبد القاهر : نفسٌ يمتدُّ بعد مُضيّ نفس الحرف، ولذا فإنّه يُعدُّ بمنزلة حرف متحرك[1].

بناء على ذلك يشكل توالي حروف المد في النص انسجامًا نغميا تاما عبر توالي الألفاظ التي ارتبطت به فتتمدّدُ أصوات الشاعر. والملاحظ أن حروف المد من أكثر الأصوات حضورا في النص، وهي تعبّر عن انفعالات الشاعر وانشغالاته النفسية وبخاصة عبر الألف لسهولة مخرجه من الحلق فقد ترددت الأصوات الممدودة بكثرة في معظم أبيات القصيدة، بالإضافة إلى ورود حرف ممدود في آخر كل بيت، ولامتداد الصوت والنفس، فضلا على الجانب التنظيمي، تأثير معنويٌّ، فقد يقصد به استطالة الآهات (الحزن) ومنها : الذُّوابة – باذخ – يطاول – أعنان – السماء – بالمناكب – الفلاة – طوال – العواقب – ذوائب – بالعجائب – نائب – وقور – عيون – وميض – دموعي ... وهلُم جرًّا.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني : المصدر السابق، ص : 320.

و- التجنيس (الجناس) :

التجنيس لون من ألوان البديع، وهو اتفاق الألفاظ في الحروف أو في بعضها، وهو ضرب من ضروب التكرار، ونسلكه فيما يراد بالتكرار من تقوية نغمية لجرس الألفاظ[1]. وهو يساهم بقسط في تكوين مادة الكلام ذي الإيقاع الموسيقي، فجانس الشاعر بين : النوى والنوائب (جناس ناقص) وبين : سلّى وسرّى (وهو جناس ناقص أيضا).

ز- الطباق :

الطباق والمقابلة من فنون البديع ومحسنات الكلام، وهو جمع بين لفظين متقابلين، أي : متضادين في المعنى، وهو محدود نسبيا في النّص، ونسُوق نماذج منه وظف فيها الشاعر الطباق لتقوية الجانب الإيقاعي وارتباطه بالجانب النفسي للشاعر، فطابق بين فاتك وأواه، وبين راحل وآيب وبين مقيم وذاهب.

خلاصة عن الصوت الداخلي : إنّ ورود هذه الظواهر الصوتية في القصيدة ليس ورودًا اعتباطيا، بل له حضوره الوظيفي في تشكيل الجانب الإبداعي للإيقاع عند الشاعر، وكان لتلك الموسيقى الداخلية دور كبير في خلق فضاءات موسيقية لأمت ظروف النفس وتبدلاتها، فأعطت للنّص نكهة موسيقية خاصة.

[1] د. ماهر مهدي هلال : جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي، ص : 270 ، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980.

الصوت الخارجي - الموسيقى الخارجية : الوزن والقافية دعامتا الصوت الخارجي في الشعر العربي،وهما ركنان أساسيان من أركان القصيدة العربية، لا يُمكنُ أن يقوم بناؤها إلا عليهما، هما حجر الأساس في موسيقاها الخارجية التي يقيسها العروض وحده. والقصيدة من الطويل، وهو من البحور التي كثر استعمالها في الشعر العربي، وهو يتسع لكثير من الأغراض ومنها الوصف والحكمة والفخر، وهو مزدوج التفعيلة (فعولن مفاعيلن)، ولم يرد في شعر العرب إلا تامًا[1]. وهو بمقاطعه المزدوجة إيقاعات موسيقية شبه متجانسة وطويلة. وقد ذكر النقاد العرب القدماء أنّ البحور الطويلة لا تستخدم غالبا إلا في الأغراض الجدية (الحكمة - الاعتبار - الرثاء - الوصف..)، الأمر الذي ينطبق على قصيدتنا.

وإلى جانب وحدة البحر، هناك وحدة في القافية، وقد وردت مركبة أجزاؤها. ورويُّها الباء من الحروف المجهورة، وحركة المجْرى : كسرة، وحرف التأسيس ألف، وحركة الدّخيل كسرة. والقافية هي النغمة التي يجب أن يقفل بها كل بيت. ويزداد هذا التنغيم الموسيقي والمد الصوتي بالتصريع[2] في البيت السابع (مؤوّب).

وكخلاصة عن الصوت الخارجي نقول : بأنّه خاضع لخصوصيات القصيدة العربية العمودية ولأعرافها الخليلية، أي : أنّه يخضع لقاعدة الوحدات الثلاث التي تتحكم في الشعر العربي القديم :

- وحدة البحر
- وحدة القافية
- وحدة البناء في شكل عمودي

[1] الطرابلسي : المرجع السابق، ص 22.
[2] التصريع هو اتفاق نهاية الشطرين : الأول والثاني بحرف واحد وحركة واحدة.

3- المستوى التركيبي :

1. التركيب البلاغي :

أ- الأسلوب :

الأسلوب – اصطلاحًا – هو الطريقة التي يعتمدها الأديب في تأليف كلامه للتعبير عن المعاني الدائرة في نفسه[1]. وهو المذهب من النظم والطريقة فيه[2] وهو في أقرب مداه تعامل مع اللغة، وفي أبعد مداه تعامل من خلال اللغة مع المجتمع والكون[3]. وقد تنوّعت الأساليب في الأعمال الأدبية بتنوع الموضوعات التي تعالجها، والفنون الأدبية التي تنتمي إليها[4]. ففي الشعر عرف العرب أربعة أنواع من الأساليب – كما أسلفت – هي : الأسلوب الجزل، والأسلوب السهل، والأسلوب السوقي، والأسلوب الحوشي، ومن ناحية أخرى هناك نوعان أساسيان من الأسلوب هما : الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري.

وقد كشف الاستقراء والتتبع للنص عن وجود ظواهر أسلوبية، تتجلى فيما يأتي :

---

(1) الدكتور أحمد أبو حاقة : البلاغة والتحليل الأدبي، ص : 209، دار العلم للملايين، بيروت.

(2) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص : 361، طبعة المنار، مصر.

(3) الأستاذ توفيق بكار : المرجع السابق، ص : 1.

(4) الدكتور أحمد أبو حاقة : المرجع السابق، ص : 210.

- طغى الأسلوب الخبري على معظم أبيات القصيدة، لأنّ الشاعر في موقف إخبار ووصف، وهو يتحدث عن تجربة تأملية فكرية تجمع بين شعر الطبيعة والوصف، وشعر التأمل والحكمة. والأسلوب الخبري في عرف البلاغيين القدامى هو الذي يحمل في ثناياه إمكان التصديق والتكذيب. ويقابله الأسلوب الإنشائي، وهو عندهم كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته.

ويتضمّن الأسلوب الإنشائي في النص – على قلته – النداء في البيت الثاني عشر، والاستفهام في البيت العاشر والثالث عشر، وكم الخبرية في البيت السابع، والمصدر النائب عن فعل الأمر، والنداء في البيت الرابع عشر. وما عدا ذلك فأساليب خبرية.

- نسجل عدم تكافؤ الأسلوبين (الخبري والإنشائي) حيث هيمن الأسلوب الخبري بنسبة 95 % تقريبا.
- تمركز الأسلوب الخبري حول وصف الطبيعة الصامتة والتأمل.
- اجتناب الشاعر لأساليب : النهي، والأمر، والقسم.
- تستقر القصيدة داخل بنية أسلوبية مغلقة إذ يفتتحها الأسلوب الخبري، ويختتمها في الوقت نفسه.

ب- الصورة الشعرية :

تشكل الصورة الشعرية أبرز ظاهرة أسلوبية طبعت نص ابن خفاجة باعتبارها تجسيدًا وتصويرا لرؤية رمزية للمعنى المتضمن في الألفاظ.

ولقد تبين من خلال الاستقراء الفاحص للنص أنّ أبرز الصور الشعرية وأكثرها انتشارا في النّص هي تلك التي اعتمدت على الاستعارة، فنحن لا نكاد نجد بيتا واحدًا عاريا منها، ولعل أجمل ما وفق إليه الشاعر هو تشخيص الجبل، فجعله طمّاحًا، يطاول أعنان السماء، (البيت الأول)، ويسُدُّ مهب الريح، ويزحم بمنكبيه النجوم (البيت الثاني)، وصوّره مهيبا جليلاً وقورًا مطرقا (البيت الثالث)، وجعله شيخًا معمّمًا (البيت الرابع)، ويفكر وينطق (البيت الخامس والسادس)...ونسمّي هذا النوع من الصور استعارات متعدّدة، أو الخيال المؤلف لأنّه يؤلّف بين مناظر مختلفة. كما اعتمد على الصورة التشبيهية حين جمع بين مجموعة من الصور الاستعارية والتشبيهية في سياق واحد وعلى أشكال متعددة، ومتعلقة كلّها بالجبل، فخلق جوًّا خياليا خاصا كما هو الحال في البيت الثالث.

وجمع أيضا من الصور الاستعارية والكنائية في البيت الثاني، معتمدا في بنائها على الطبيعة الصامتة، فالبيت بالإضافة بين الصور الاستعارية كناية عن ضخامة الجبل وعلوّه.

إنّ هيمنة الاستعارة على أنماط الصُّورة الشعرية يعكس أهمية هذه الصورة في شعر ابن خفاجة وعمقها، لأن الاستعارة وجه بلاغي تنتقل به دلالة اللفظ الحقيقية إلى دلالة أخرى لا تتناسب مع الأخرى إلا من خلال تشبيه مضمر في الفكر، وهي صورة مقتضبة من صور التشبيه[1].

2. التركيب النحوي :

أ- **طبيعة الجمل** :تهيمن الجملة الفعلية على الجملة الاسمية، فقد بلغ عددها ثلاثا وثلاثين جملة، مقابل عشر جمل اسمية.

ب- **طبيعة الأفعال** : معظم الأفعال ماضية، فقد استعمل ابن خفاجة في قصيدته ثلاثة وعشرين فعلاً ماضيا، وعشرة أفعال مضارعة، توزعت بين ثمانية عشر فعلا معتلاً، وخمسة عشر فعلاً صحيحا. وخلت القصيدة من أفعال الأمر. ويعزى طغيان الجملة الفعلية الماضية في النص إلى أنّ الشاعر يتحدّثُ عن أحداث ولّت بأسلوب قصصي على لسان الجبل. كما يدلُّ على حركية النّص ودلالته على التحول من حال إلى حال.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة، ص : 28.

ج – طبيعة الضمائر:

يشتمل النّص على الضمائر الثلاثة المتداولة (المخاطب –المتكلم– الغائب)، مع هيمنة ملحوظة لضمير الغائب ولا شك أن لهذه الهيمنة علاقة معينة مع زمن الأحداث، ومع مجهولية بعض أشخاص القصيدة، ما دام ضمير الغائب هو ضمير الأشخاص، كما ذهب إلى ذلك بعض اللسانيين[1].

خلاصة :

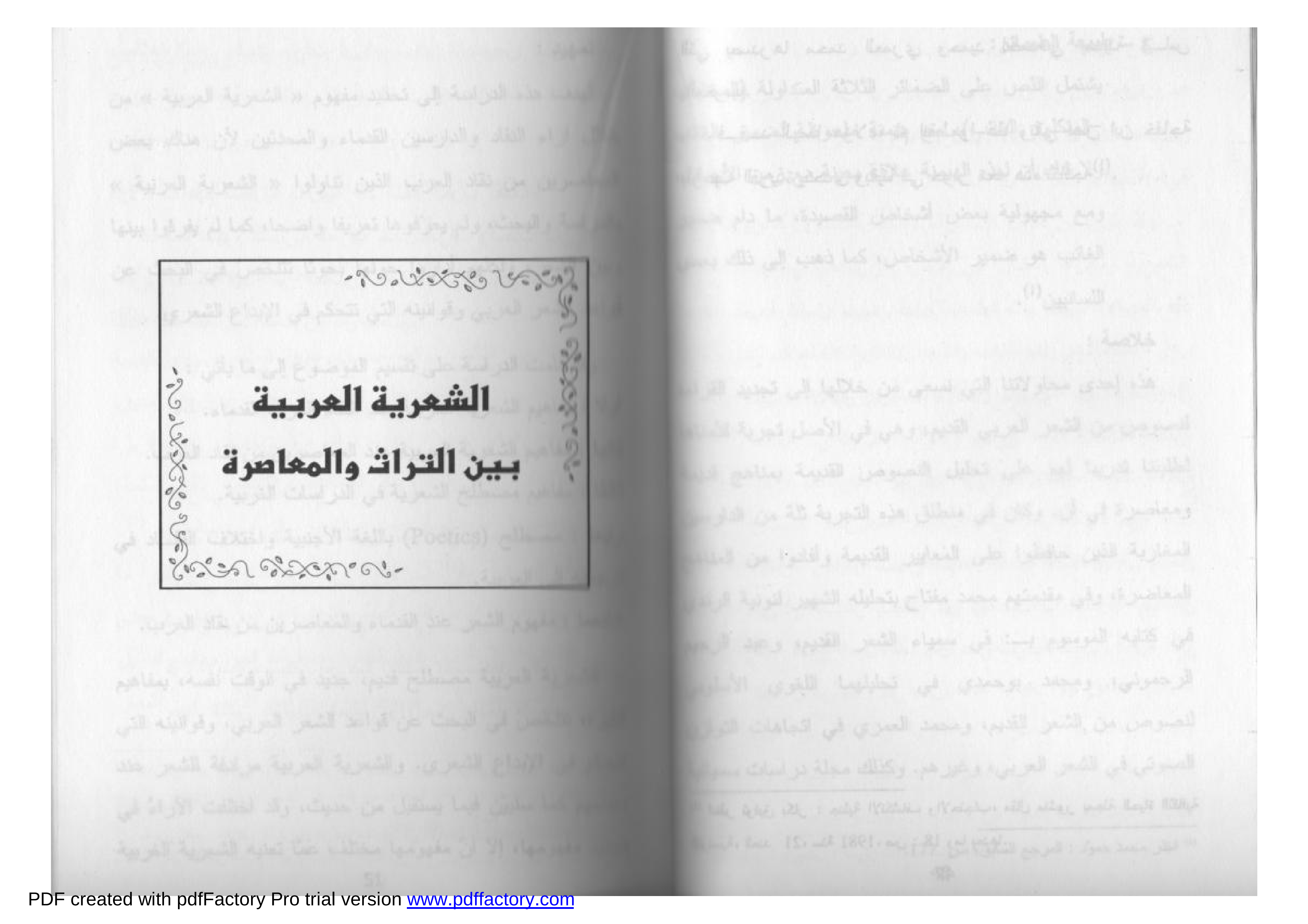
هذه إحدى محاولاتنا التي نسعى من خلالها إلى تجديد القراءة لنصوص من الشعر العربي القديم، وهي في الأصل تجربة قدّمناها لطلبتنا تدريبا لهم على تحليل النصوص القديمة بمناهج قديمة ومعاصرة في آن. وكان في منطلق هذه التجربة ثلة من الدارسين المغاربة الذين حافظوا على المَعايير القديمة وأفادوا من المناهج المعاصرة، وفي مقدمتهم محمد مفتاح بتحليله الشهير لنونية الرندي في كتابه الموسوم بـ: في سيمياء الشعر القديم، وعبد الرحيم الرحموني، ومحمد بوحمدي في تحليلهما اللغوي الأسلوبي لنصوص من الشعر القديم، ومحمد العمري في اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي، وغيرهم. وكذلك مجلة دراسات سميائية

[1] انظر محمد حموّد : المرجع السابق، ص 177.

التي يصدرها محمد العمري وحميد لحمداني بمدينة فـاس بالمغرب.

فـقـد ألهمنا هؤلاء، ثم انقطعوا عنّا وبقي نص ابن خفاجة بنوعيته الفريدة يتحدى وبقينا في حوار معه هذه نتائجه[1].

[1] انظر توفيق بكار : جدلية الانكشاف والاحتجاب، مقال منشور بمجلة الحياة الثقافية التونسية، العدد 21، سنة 1981، ص : 18 وما بعدها.



الشعرية العربية بين التراث والمعاصرة

تمهيد :

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد مفهوم « الشعرية العربية » من خلال آراء النقاد والدارسين القدماء والمحدثين لأن هناك بعض المعاصرين من نقاد العرب الذين تناولوا « الشعرية العربية » بالدراسة والبحث، ولم يعرّفوها تعريفا واضحا، كما لم يفرقوا بينها وبين الشعر، ولكنّهم أداروا حولها بُحوثا تتلخّصُ في البحث عن قواعد الشعر العربي وقوانينه التي تتحكم في الإبداع الشعري.

وقد قامت الدراسة على تقسيم الموضوع إلى ما يأتي :

أولا : مفاهيم الشعرية العربية عند النقاد العرب القدماء.

ثانيا : مفاهيم الشعرية العربية عند المعاصرين من نقاد العرب.

ثالثا : مفاهيم مصطلح الشعرية في الدراسات الغربية.

رابعا : مصطلح (Poetics) باللغة الأجنبية واختلاف النقـاد في ترجمته إلى العربية.

خامسا : مفهوم الشعر عند القدماء والمعاصرين من نقاد العرب.

الشعرية العربية مصطلح قديم، جديد في الوقت نفسه، بمفاهيم كثيرة، تتلخّصُ في البحث عن قواعد الشعر العربي، وقوانينه التي تتحكم في الإبداع الشعري. والشعرية العربية مرادفةٌ للشعر عند بعضهم كما سنبيّن فيما يستقبل من حديث، وقد اختلفت الآراءُ في تحديد مفهومها، إلا أنّ مفهومها مختلف عمّا تعنيه الشعرية الغربية

يمعناها العام. وقد حاولتُ أنْ أعود إلى النّصوص العربية التي وردت فيها لفظة « الشعرية» أو الشعر، محددًا معانيهما، ومتتبعا نشأتيهما.

أولا : مفاهيم الشعرية العربية عند النقاد العرب القدماء

لقد نشأ مفهوم الشعرية العربية خلال فترات وأحقاب كان الشعر العربي يتشكل فيها عبر العصور المختلفة، ومن أهم الشواهد على ذلك، هذه التعاريف المأثورة عن بعضهم.

1- قال الفارابي (339 هـ) : « والتوسع في العبارة بتكثير الألفاظ بعضها ببعض، وترتيبها وتحسينها فيبتدئ حين ذلك، أن تحدث الخَطبيةُ أوّلا ثم الشعرية قليلاً قليلا»[1] ويعني الفارابي بلفظة (الشعرية) هنا السمات التي تظهر على النص بفعل ترتيب وتحسين معنيين، حيث تؤدي هذه السمات – في الأخير – إلى ظهور أسلوب شعريّ يطغى على النص[2].

2- وقال ابن سينا (428 هـ) : « إنَّ السبب المولد للشعر في قوة الإنسان، شيئان أحدهما الالتذاذ بالمحاكاة، والسبب الثاني حبُّ النّاس للتأليف المتفق والألحان طبعا، ثم قد وُجدت

(1) الفارابي (أبو نصر) : كتاب الحروف (تحقيق محسن مهدي)، ص : 141 بيروت، لبنان.

(2) حسن ناظم : مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمناهج والمفاهيم، ص : 12، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994.

الأوزانُ مناسبة للألحان، فمالت إليها الأنفس وأوجدتْها، فمِنْ هاتين العلتين تولدّت الشعرية، وجعلت تنمو يسيرًا يسيرًا تابعة للطباع، وأكثرُ تولّدها عن المطبوعين الذين يرتّجلون الشعر طبعا، وانبعثت الشعرية منهم بحسب غريزة كلّ منهم وقريحته في خاصتّه، وبحسب خُلقه وعاداته»[1]. ويبدو من النّص أن مفهوم (الشعرية) عند ابن سينا يعني عِلل تأليف الشعر التي يحصرُها في المتعة المُتأتية من المحاكاة وتناسب التأليف والموسيقي بمعناها العام، ويجعل المتعة والتناسب المحفزّين على تأليف الشعر. ولهذا فإن مفهوم الشعرية في نص ابن سينا يتخذ مَنْحًى نفسيا يرتبط بغريزة الإنسان الذي تُحققُ لهُ المحاكاة والتناسب تلك المُتعة، وتفسيريا يعالج أسباب جنوح الغريزة إلى ممارسة الشعر[2].

3- أما ابن رشد (520 هـ) فينقل قول أرسطو : « وكثيرا ما يوجد في الأقاويل التي تُسمّى أشعارًا ما ليس فيها من معنى الشعرية إلاّ الوزن فقط كأقاويل سقراط الموزونة، وأقاويل أنبادقليس في الطبيعيات، بخلاف الأمر في أشعار

(1) ابن سينا : فن الشعر من كتاب الشفا ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو (تحقيق : د.عبد الرحمن بدوي)، ص : 172، بيروت، لبنان.

(2) حسن ناظم : المرجع السابق، ص : 12 – 13.

أوميروس»[1]. فقد عدَّ ابن رشد ما يميّزُ الشّعرية عن بعض الأقاويل الموزونة هو الأدوات التي تُوظف في الشعر، بحيث أن الوزن لا يمثل في نظره سوى عنصر إضافي، وأنَّ ما جـاء من بعض الأقـاويل قائمٌ على الوزن فقط، فهو لا يعد من الشعرية في شيء لخـلوه من أدوات الشعر الأخرى.

4-أما حازم القرطاجني (684 هـ): فقال في معرض حديثه « وكذلك ظنّ هذا أنَّ الشعرية في الشعر إنّما هي نظمُ أيّ لفظ كيفما اتفق نظمهُ وتضمينهُ أيّ غرض اتفق على أي صفة اتفق لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع»[2]. ويقول أيضًا : « وليس ما سوى الأقاويل الشعرية في حسن الموقع من النفوس مماثلاً للأقاويل التي ليست بشعرية ولا خطَابية ينحو بها نحو الشعرية لا يحتاج فيها إلى ما يحتاج إليه في الأقاويل الشعرية إذ المقصودُ بها سواها من الأقاويل إثبات شيء أو إبطاله أو التعريف

[1] ابن رشد : تلخيص كتاب أرسطو (فـن الشعـر)، ضمن كتاب أرسطو (فـن الشعـر)، ص : 204.

[2] حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج البلغاء (تحقـيـق محمد الحبيب بن الخـوجة) ص : 28، تونس، 1996.

بماهيته وحقيقته»[1]. ويبدو أنَّ مفهوم « الشعرية » عند حازم القرطاجني يقترب إلى حدّ مَا من مفهومها العام، أي قواعد الشعر وقوانينه التي تتحكم في الإبداع الشعري، ولكن لفظة « للشعرية » لم تتبلور مصطلحا واضحًا ولم تكن ذات فعالية إجرائية ولم تكرس تمامًا في النصوص النقدية العربية القديمة، وإن كان حازم أراد أنْ يجعل قانونًا « للشعرية » كما يتجلى ذلك في النّص المقتبس الأول لحازم، حين أنكر أنْ تكونَ « الشعرية في الشعر» نظمًا للألفاظ والأغراض بصورة اعتباطية، فهو يبحثُ عن قانون « للشعرية » يمنح الشعر شَعريته، أو بالأحرى يجعل من النص اللغوي نصا شعريا. ويبدو أنَّ حازمًا كان المرجعية الأكيدة للشعريات الحديثة[2].

ثانيا : مفاهيم الشعرية العربية عند المعاصرين من نقاد العرب :

أمّا بعض المعاصرين من نقاد العرب الذين تناولوا « الشعرية » بالدراسة والبحث، فلم يعرفوها تعريفا واضحا كما لم يفرقوا بينها وبين الشعر، ولكنهم أداروا حولها بحوثا تتلخصُ في البحث عن قواعد الشعر العربي، وقوانينه التي تتحكم في الإبداع

[1] حازم القرطاجني : المرجع السابق، ص : 119.

[2] حسن ناظم : المرجع السابق، ص : 13.

الشعري، كما هو الحال عند رشيد يحياوي ونور الدين السد وحسن ناظم، وأدونيس[1].

أمّا الذين حاولوا تحديد مفهوم « الشعرية » من النقاد العرب المعاصرين فإنّهم لم يعطوها تحديدًا واحدًا فقد كان مفهومها عندهم مختلفا عمّا تعنيه « الشعرية » في النقد الغربي، إذ « ليس للشعر أو (الشعرية) مفهوم مطلق، وإنّ هذا المفهوم عرفٌ يكتسب دلالته من المرحلة التاريخية والحضارية التي يعيش فيها الشاعر والباحث»[2]. ويذهب أدونيس إلى أنّ « سرّ الشعرية هو أنْ تظل دائما كلامًا ضد الكلام، لكي تقدر أن تسمّي العالم وأشياءه أسماء جديدة – أي تراها في ضوء جديد – والشّعر هو حيثُ الكلمة تتجاوز نفسها مُفْلِتَة من حدود حروفها، وحيثُ الشيءُ يأخذُ صورةً جديدةً، ومعنى آخر»[3].

أمّا كمال أبو ديب فيحدد تعريفه لمفهوم الشعرية بقوله : « لا يمكن أنْ توصف الشعرية إلا حيثُ يمكن أنْ تتكون أو تتبلور، أي في بنية كلية، فالشعرية إذن خصيصة علائقية، أي أنّها تجسد في

(1) انظر رشيد يحياوي : الشعرية العربية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب. ونور الدين السد : الشعرية العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. وحسن ناظم : مفاهيم الشعرية، المركز الثقافي، بيروت، وأدونيس : الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، لبنان.

(2) الدكتور عز الدين الحسين : شعر الطليعة في المغرب، ص : 100، منشورات عويدات، بيروت.

(3) أدونيس : الشعرية العربية، ص : 78، دار الآداب، بيروت، لبنان.

النص لشبكة من العلاقات التي تنمو بين مكونات أولية سِمَتُها الأساسية أنّ كلا منها يمكن أنْ يقع في سياق آخر دون أنْ يكون شعريا، لكنّه في السياق الذي تنشأ فيه هذه العلاقات، وفي حركته المتواشجة مع مكوّنات أخرى لها السّمة الأساسية ذاتُها يتحول إلى فاعلية خلق للشعرية ومؤشر على وجودها»[1] ويبدو أنَّ كمال أبو ديب قد تخلى عن المفهوم القديم للشعرية العربية، واقترب من مفهوم الغرب لمصطلح الشعرية.

ثالثا : مصطلح الشعرية في الدراسات الغربية

أمّا عن مصطلح الشعرية (Poetics) في الدراساتٓ الغربية فإنّ له مفهومات متعددة، ففي التعريف السائد يدل هذا المصطلح على « مجموعة المبادئ الجمالية التي تقود الكاتب في عمله الأدبي[2] ». مقابل هذا التعريف السائد، والذي ترسخ في الاستخدام إلى درجة كبيرة، تظهر مفهومات أخرى أكثر دقة تحولُ الشعرية إلى حقل دراسي يعهد لنفسه مهمة تكوين «نظرية داخلية للأدب» وتطوير « المقولات التي تؤدي إلى الإحاطة بالوحدة والتنوع معًا

(1) كمال أبو ديب : في الشعرية، ص : 14، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

(2) [illegible] في بنية النص، ترجمة الدكتور : وائل بركات، ص : 33، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية.

في كل الأعمال الأدبية»[1]. وقد عرفها فاليري (VALERY) بقوله : « يبدو لنا أن اسم شعرية ينطبق عليه إذا فهمناه بالعودة إلى معناه الاشتقاقي، أي اسمًا لِكُلّ ماله صلة بإبداع كُتُب أو تأليفها حيث تكون اللغة، في آن واحدٍ الجوهر والوسيلة لا بالعودة إلى المعنى الضيق الذي يعني مجموعة من القواعد أو المبادئ الجمالية ذات الصلة بالشعر»[2]. وتتعلق كلمة (الشعرية) في هذا النص بالأدب كلّه سواء أكان مَنْظُومًا أم منثورا، بل قد تكاد تكونُ متعلقة على الخصوص بأعمال نثرية[3].

ويرى تودوروف (TODOROV) أنّ موضوع الشعرية ليس هو العمل الأدبي في حد ذاته، فما تستنطقه هو خصائص هذا الخطاب النوعي الذي هو الخطاب الأدبي، وكل عمل عندئذٍ لا يُعدُّ إلاّ تجليًا لبنية محــدّدة وعامة، وليس العمل إلا إنجازًا من إنجازاتها الممكنة، ولذلك فإنّ هــذا العلم لا يعنى بالأدب الحقيقي بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخــرى يعنى بتلك الخــصائص المجرّدة التي

(1) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

(2) أنظر تزفيطان تودوروف : الشعرية (ترجمة شكري المخوت ورجاء سلامة)، ص : 23 – 24، المعرفة الأدبية، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990.

(3) المرجع نفسه، ص : 24.

تصنع فــرادة الحــدث الأدبي، أي الأدبية[1].

بهذا المعنى يكون موضوع الشعرية مشكلا في الأعمال المحتملة أكثر مما هو عليه في الأعمال الموجودة[2]...

ومن البَدَهيّ أنَّ هذه السطور الموجزة لا يمكن أن تستنفد مجال الحديث عن مفاهيم الشعرية عند نقاد الغرب، لكنها مجرد إشارات مقتضبة، لم نَرَ مندوحة من إدراجها في بحثنا هذا بالرغم من أنَّ موضوعنا يتعلق بالشعرية العربية لا غير. ويمكن لمن أراد أن يتوسع في تحديد مفهوم الشعرية عند الغربيين أن يعود إلى المراجع الآتية المذكورة ضمن هوامش الدراسة[3].

رابعا : مصطلح (Poetics) باللغة الأجنبية واختلاف النقاد في ترجمته إلى العربية

أمّا عن مصطلح (Poetics) باللّغة الأجنبية، فقد اختلف النقاد والمترجمون في ترجمته وتعريبه من لغة المصدر (اللغة الأجنبية)

(1) المرجع السابق، ص : 23.

(2) حسن ناظم : مفاهيم الشعرية، ص : 19.

(3) أ- بنية اللغة الشعرية لجان كوهن، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، المغرب، 1988.

ب- قضايا الشعرية لرومان ياكبسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، المعرفة الأدبية الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1988.

ج- الشعرية لــ تودوروف (ترجمة شكري المبخوت ورجاء سلامة)، المعرفة الأدبية، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990.

إلى لغة الهدف (اللغة العربية) وقد اقترحوا بعض الترجمات المختلفة، أعرضُها فيما يأتي[1] :

1- يترجم د.سعيد علوش (Poetics) إلى «الشاعرية» ويعطيها المدلولات الآتية :

أ- مصطلح يستعمله تودوروف كشبه مرادف لـ (علم/نظرية الأدب).

ب- والشاعرية درس يتكفل باكتشاف الملكة الفردية التي تصنع فردية الحدث الأدبي أي الأدبية عند (ميشونيك).

ج- أما ج.كوهن، فيكتفي بتحديد المعنى التقليدي لـ (الشاعرية) كعلم موضوعه الشعر.

د- كما تعرف الشاعرية كنظرية عامة للأعمال الأدبية[2].

ولقد اقترح هذه الترجمة د.عبد الله الغذامي، فهو يراها مصطلحًا جامعًا يصف اللغة الأدبية في النثر وفي الشعر. ويقوم في نفس العربي مقام (Poetics) في نفس الغربي[3].

---

(1) وقد استقينا هذه المعلومات المتعلقة بترجمة مصطلح (Poetics) إلى العربية من كتاب : مفاهيم الشعرية لحسن ناظم، ص : 14 وما بعدها.

(2) د.سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص : 74، الدار البيضاء، المغرب.

(3) د.عبد الله محمد الغذامي : الخطيئة والتكفير، ص : 19، المملكة العربية السعودية، ط، 1985.

وبالمقابل ينتقد الغدامي ترجمة (Poetics) إلى (الشعرية) كون هذا اللفظ (يتوجه بحركة زئبقية نافرة نحو الشعر)[1]، ويبدو لي أن هذا التسويغ لا يؤدي مهمته إطلاقا، فلفظة (الشاعرية) ليس لها المؤهلات الكافية – بما هي لفظة فحسب – لتصف أو تشير إلى اللغة الأدبية في الشعر والنثر، فـ(الشاعرية) هي – في الأخير – مشتقة من (شاعر) وبالتالي فهي ألصق بالشعر، وبالتالي يوجه إليها الانتقاد نفسه الذي وجهه الغذامي إلى لفظة (الشعرية)، وبذلك يصبح لفظ (الشاعرية) متوجهًا – هو الآخر – (بحركة زئبقية نافرة نحو الشعر)، فينتفي – بهذا – الاستناد الذي اتخذه الغذامي ذريعة في تفضيل لفظة (الشاعرية) على لفظة (الشعرية)، ليصبحا – على حد سواء – لصيقين بالشعر من دون النثر.

2- تترجم (Poetics) إلى (الإنشائية)، وقد تبنى هذه الترجمة كل من توفيق حسين بكار في مقدمته لكتاب حسين الواد (البنية القصصية في رسالة الغفران)، والدكتور عبد السلام المسدي في كتابه (الأسلوبية والأسلوب) مع الإشارة إلى أنه يترجم (Poetics) أيضا – إلى الشعرية، والدكتور فهد عكام في ترجمته لكتاب جان لوي كابانس (النقد الأدبي والعلوم الإنسانية)، والطيب البكوش في ترجمته لكتاب جورج مونان

---

(1) المرجع نفسه، ص : 19.

(مفاتيح الألسنية) وحسين الغزي وحمادي صمود في كتابيهما (التفكير البلاغي عند العرب – أسسه وتطوره إلى القرن السادس).

3–يعرب د.خلدون الشمعة (Poetics) إلى بويطيقا في كتابه (الشمس والعنقاء) وهذا التعريب القديم الذي وضعه بشر بن متى في ترجمته لكتاب أرسطو.

4–عرب المصطلح (Poetics) إلى بويتيك، وقد تبنّى هذا التعريب حسين الواد في كتابه (البنية القصصية في رسالة الغفران).

5–تُترجم (Poetics) إلى (نظرية الشعر)، وهذا ما تبناه د.علي الشرع في ترجمته لمقدمة كتاب نورثروب فراي (تشريح النقد)[1].

6–تترجم (Poetics) إلى (فن الشعر)، وقد تبنى هذه الترجمة د.يوئيل يوسف عزيز في ترجمته لدراسة أدوارد ستاكيفينج (فن الشعر البنيوي وعلم اللغة – في اتجاهات النقد الحديث)[2]، وعلية عزت عياد في (معجم المصطلحات اللغوية والأدبية). وتجدر الإشارة إلى أن ترجمة د.يوئيل

(1) نور ثروب فراي: مقدمة (تشريح النقد)، ترجمة د.علي الشرع – في مجلة الأقلام – العدد 9، 1989.

(2) أدوارد ستاكيفيج : فن الشعر البنيوي وعلم اللغة، ترجمة د.يوئيل يوسف عزيز – في مجلة الأقلام – العدد (11 – 12)، 1989.

يوسف عزيز تتضمن خطأ، ذلك أنه يترجم (Structural Poetics) إلى (فن الشعر البنيوي)، ويكمن الخطأ في أنه لا يوجد فن بنيوي للشعر، ولا يصح وصف الفن أو الشعر بأنه بنيوي، بل إن (البنيوي) وصف للدراسة أو النقد اللذين يتناولان الشعر بنيويًا، وينبغي أن تترجم (Structural Poetics) إلى (الشعرية البنيوية).

7–تترجم (Poetics) إلى (فن النظم) في كتاب (أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب) – رومان ياكوبسون – ترجمة فالح صدام الإمارة والدكتور عبد الجبار محمد علي.

8–تترجم (Poetics) إلى (الفن الإبداعي) أو إلى (الإبداع)، وقد تبنى هذه الترجمة د.جميل نصيف في ترجمة كتاب ميخائيل باختين (شعرية دستويفسكي)[1] حيث طبع تحت عنوان (قضايا الفن الإبداعي عند ديستويفسكي)، كما تبنى هذه الترجمة محمد خير البقاعي في ترجمته لمقال رولان بارت (نظرية النص)[2].

(1) ذكر د.جميل نصيف أنّ المغاربة أصروا على طبعه تحت عنوان (شعرية ديستويفسكي) غير أنّ الأستاذ حسن ناظم يرى أن الصحيح والدقيق هو (قضايا شعرية ديستويفسكي).

(2) رولان بارت : نظرية النص (ترجمة محمد خير البقاعي) – في مجلة العرب والفكر العالمي – العدد الثالث، 1988.

9-تترجم (Poetics) إلى (علم الأدب)، وقد تبنى هذه الترجمة د.جابر عصفور في ترجمته لكتاب (عصر البنيوية) لاديث كيرزويل، ومجيد الماشطة في ترجمته لكتاب ترنس هوكز (البنيوية وعلم الإشارة).

10-والترجمة الأخيرة لـ (Poetics) هي (الشعرية)، وقد تبنى هذه الترجمة كثير من المهتمين بقضاياها، منهم محمد الولي ومحمد العمري في ترجمتهما كتاب جان كوهن كاظم جهاد في بعض مقالاته، ود.عبد السلام المسدي الذي يراوح بين ترجمتين هما الإنشائية والشعرية كما ذكرت فيما سبق، وسامي سويدان في ترجمته لكتاب تودوروف (نقد النقد).

كما تبنى هذه الترجمة د.أحمد مطلوب في بحثه (الشعرية)، وأشار إلى أن الشعرية، مصدر صناعي ينحصر معناه في اتجاهين يمثل الأول « فن الشعر وأصوله التي تتبع للوصول إلى شعر يدل على شاعرية ذات تميز وحضور»[1] ويمثل الثاني «الطاقة المتفجرة في الكلام المتميز بقدرته على الانزياح والتفرد، وخلق حالة من التوتر »[2]، ولا شك في أنَّ هذا التقسيم استنباط من تعريفات الشعرية، وعلى الرغم من أن د.مطلوب يوضح أن الاتجاه

(1) د.أحمد مطلوب: الشعرية – في مجلة المجمع العلمي العراقي – ج3 – المجلد 40، 1989.

(2) د.احمد مطلوب : المرجع نفسه.

الأول يمثل الأصول والاتجاه الثاني يمثل نتيجة تلك الأصول، إلا أنه ليس ثمة معيار دقيق يستند إليه ذلك التقسيم، فالشعرية – مثلاً – بوصفها علمًا موضوعه الشعر – حسب كوهن – تندرج ضمن الاتجاه الأول، والشعرية بوصفها (انزياحا) – حسب كوهن أيضا – تندرج ضمن الاتجاه الثاني، وكلا المفهومين عائدان لجان كوهن، وبهذا يتأرجح المعيار أو بالأحرى ليس هناك معيار نستطيع من خلاله تصنيف شعرية كوهن، وهكذا يصبح من الصعب محاولة إخضاع الشعريات إلى تصنيف يؤطرها في اتجاهات عامة، وذلك عائد – ببساطة – إلى مفاهيم متنوعة وخاضعة إلى مناهج متنوعة هي الأخرى.

وعلى أي حال، فإن هذه الترجمات المتعددة والمتباينة تسهم – من دون ريب – في تصعيد أزمة الاصطلاح التي يعاني منها النقد العربي الحديث، إذ لا مسوغ لاجتراح ترجمات عديدة لمصطلح غربي واحد في الوقت الذي يدعو فيه كل أولئك المجترحون إلى ضرورة حل أزمة المصطلح في نقدنا العربي، وذلك عن طريق المناقشة الشاملة والاتفاق من دون أية مماحكة أو تحذلق يحلو لبعض النقاد ممارستهما، واستنادا إلى هذا، فإني أرى أن لفظة (الشعرية) مقابلاً مناسباً لـ (Poetics) من دون محاولة خلق جدل يزيد المسألة تشابكا وتعقيدا، وربما تكون وجهة النظر هذه مستندة

فقط وببساطة – إلى أن لفظة (الشعرية) قد شاعت وأثبتت صلاحيتها في كثير من كتب النقد، فضلاً عن الكتب المترجمة إلى العربية، وبهذا ترسيخ لقضية توحيد المصطلح، في الوقت الذي يخبو فيه كثير من بريق البدائل الأخرى.

خامسا : مفهوم الشعر عند القدماء والمعاصرين من نقاد العرب

أمّا مفهومُ الشّعرِ العربي فقد نشأ – هو الآخر – خلال فترات وأحقاب كان الشعر العربي يتشكّلُ فيها منذ العصر الجاهلي ويتقدم نحو صياغته الأخيرة التي تعود أقدم نصوصها إلى ما قبل الإسلام بأكثر من ثلاثة قرون. إنّ وصف العرب المشركين للقرآن الكريم بأنّه شعر، وللرسول بأنّه شاعرٌ، دليلٌ على أنّ العرب في الجاهلية لم يكونوا يفرّقونَ بين الشعر والنثر، بالمعنى الحاضر، فهم لم يشعروا بالفرق بينهما، وإنّما كان لهم نوع واحد من الإنشاد الفني الأدبي، يؤثر في السامعين، فيحملُهم على الانتباه، فالإصغاءُ، فالتّأثُّر، فالحفظ إلى ما شاء الله، ألا وهو (الإنشاد)، كان فنُّهم (إنشاداً)، وهم كانوا (منشدين)[1]. وإنْ كُنّا نعتقد أنّ ادعاء المشركين ذلك كان مجرّد اعتبار القرآن صادرًا عن قريحة شخصية، أو

(1) انظر : فؤاد أفرام البستاني : الشعر الجاهلي... (سلسلة الروائع) ص : 69. والسجستاني : كتاب المعمرين، وفيه أورد السجستاني نصوصا شعرية تعود إلى ما قبل الإسلام بأكثر من ثلاثة قرون.

صادراً عن تلقّفِ صوتٍ من الغيبِ على نحوِ ما يصنعُ الكهانُ والشعراءُ الذين يتلقون قولهم من شياطين أو قوى خفية لها تأثير السّحر، ولذلك وصفوا الرسول بكل هذه الصفات المُتداخلة: الشاعر، الساحر والكاهن[1]. وفي الجملة فإنّه لم يصلنا شيء ذو أهمية عن مفهوم الشعر عند العرب الجاهليين ولعلّ أشهر ما وصلنا من ذلك بيتان نُسبا لحسان بن ثابت، الشاعر المخضرم الذي صار في الإسلام شاعر الرسول (ص)، يقول فيهما :

وإنَّ أشعَرَ بَيْتٍ أنتَ قائلُــهُ   بيتٌ يُقــالُ إذا أنشدتَــه : صَدَقَا

وإنّما الشعرُ لُبُّ المَرء يَعْرِضُهُ   على المجالِسِ إنْ كَيْسًا وإنْ حُمُقا[2]

فالشّعر في مفهوم حسان هو لُبُّ المرء، وهو في هذا السياق مُتّصل بالأخلاق، إذ هو خلاصة صفات الإنسان الباطنية – عقلية كانت أو قلبية – مُعَبراً عنها تعبيرًا جعلها معروضة أمام المُتلقيْنَ الذين يظهرُ لهم بجلاء ما فيها من الكياسة والرّفق، أو الحماقة

(1) الدكتور محمد الكتاني : مصطلح الشعر بين التراث والمعاصرة، (مقال) ضمن مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ص : 135 عدد خاص (ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم)، 1409 هـ 1988م.

(2) ديوان حسان بن ثابت، ص : 174 دار الكتب العلمية، بيروت وأنظر الآمدي : المؤتلف والمختلف، ص : 63، دار الكتب العلمية، بيروت وقد نسبها إلى الصّحابي أبي المنهال الأشجعيّ، بُقيلة الأكبر.

والخرق[1]. وبما أنّ الشّاعر يهدفُ (بتعريفه) هذا إلى ضرب من التوجيه الاجتماعي للشعر والشعراء، فقد أبرَزَ جانب المضمون والمُتلقي إبرازًا : (لبّ – المَجالس – كيسا – حُمقا)، وطوى جانب الشكل والقائل – أو كاد – طيًّا : (المرء – يعرضه)، إلاّ أنَّ اللّمحَ مع ذلك بـــ(يعرضه) كافٍ للإشارة إلى نوع العبارة الشعرية اللازمة، وهي العبارة القادرة على تحقيق هدف (العَرض)، الذي يستلزم درجةٍ معينة في استخدام أدوات التعبير المشخّص للبّ لدى القائل، ودرجة معينة في الوضوح والتشخُّص، تسمح بالحكم بالكَيْس أو الحُمق لدى السامع. ومن ثمَّ فليس من العسير التماس عناصر الشعر، أو استخراجها من هذا (التعريف)، الذي لم يقصد منه – لشاعريته وسياقه – وهو بالرغم من ذلك يفيد :

أنّ الشّعر لبٌّ .

وأنّه تعبيرٌ

وأنّه تصويرٌ

وأنّه إنتاجٌ

وأنّه رسالة قائلٍ لسامع

[1] الدكتور الشاهد البوشيخي : مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، قضايا ونماذج، ص : 101، مطبعة القلم، المغرب، 1993.

وأنّه أداة للخير والشر.

وأنّه للجميع لا للنُّخبة.

وأنّ أجودَه أصدقُه.

إلى أخر ما يسمح به النص.[1]

وقد نَسبوا أقوالاً مختلفة في تعريف الشعر ووصفه إلى الرسول (ص)، وصحابته، إذا صحّتِ الرواية، من ذلك قول الرسول (ص) في وصف الشعر: إنّه كلام مؤلف، فما وافق الحقَّ فهو حسن، وما لم يوافق الحق فلا خير فيه[2]. كما يرى أنّه، كلامٌ فمن الكلام خبيثٌ وطيبٌ[3]، كما نسبوا أقوالا شبيهة إلى عمر بن الخطاب[4] ومعاوية بن أبي سفيان[5]، وعبد الله بن رواحة[6]، وابن عباس[7]، ومحمد ابن سرين[8]، وغيرهم. غير أنَّ هذه التعاريف في مجملها، ذاتية وصفية، ولم يُعرّف ممّن ذكرنا الشعر بصورة واضحة، ويبدو أنَّ أول من عرّف هذه الشعر بالوزن والقافية هو قدامة بن جعفر

[1] الدكتور الشاهد البوشيخي : المرجع السابق، ص : 101–102.
[2] ابن رشيق : العمدة، ج1، ص : 27، دار الجيل، بيروت.
[3] ابن رشيق : المرجع نفسه والصفحة نفسها.
[4] انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج5، ص : 281، القاهرة، 1965. وابن سلام الجمحي : طبقات الشعراء، ص : 10، دار النهضة العربية، بيروت.
[5] انظر : ابن رشيق : المرجع نفسه، ص : 29.
[6] انظر : ابن عبد ربه : المرجع السابق، ج5، ص : 281.
[7] انظر: ابن عبد ربه: المرجع السابق،ج5، ص:281 وابن رشيق: المرجع السابق، ص:30.
[8] ابن رشيق : المرجع السابق، ج1، ص : 27.

(337 هـ). إنَّ مفهوم الشعر عنده كما ورد في كتابه (نقد الشعر) هو : «قول موزون مقفى يدل على معنى[1]».

- فقوله : قول دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر.

- وقوله : موزون يفصله عمّا ليس بموزون إذا كان من القول موزون، وغير موزون.

- وقوله : مقفى، فصل بين ماله من الكلام الموزون قوافٍ، وبين ما لا قوافي له، ولا مقاطع.

- وقوله : دال على معنى، يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مِمَّا جرى على ذلك من غير معنى[2].

وقد سلك هذا النهج الذي سار عليه قدامة طائفة من النقاد واللغويين والعروضيين.

فاللغَويون كابن فارس وابن منظور والفيروز آبادي، عَدُّوا الشعر بأنَّه الكلام المنظوم المقفى المؤسس على هذين الثابتين قصدًا[3].

---

[1] قدامة بن جعفر : نقد الشعر، ص : 53، دار الكتب العلمية، بيروت.

[2] د.محمد الكتاني : المرجع السابق، ص :136.

[3] د.محمد الكتاني : المرجع السابق، ص :136.

أمَّا النقاد العرب القدماء الذين تأثروا بقُدامة بن جعفر تأثرا واضحًا حسب رأيِ مصطفى الجُوزُ والذي يسمى هذه المرحلة بالمدرسة القدامية[1] (نسبة إلى قدامة)، فهم : الحاتمي[2] (338 هـ)، والآمدي[3] (370هـ)، والعسكري[4] (395هـ)، ويوسف العامري[5] (381هـ)، والمرزوقي[6] (421هـ)، وابن رشيق[7] (453هـ)، وابن خفاجة الأنـــدلسي[8] (533 هـ)، وابن الأثير[9] (637 هـ)، وغيرهم...

ونحن لا نوافق الجوزو في عَدَّ هؤلاء جميعا من مدرسة واحدة لأنَّ كلاً منهم كان يضيف جديدا، أو يكشفه في التمييز بين الشعر والنثر، وتحديد معايير هذا التمييز وتعميق مفهوم الشعر أو مصطلحه في الوقت نفسه.

وقد اضطرّ نقاد العرب القدماء إلى زيادة عنصر القصد والنية عن الوزن وحتّى يميّزوا بين ما جاء في القرآن الكريم والحديث

---

[1] مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب، ص : 198 وما بعدها.

[2] انظر : الخاتمي : الرسالة الموضحة، ص : 25.

[3] انظر : الآمدي : الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ص : 400 (تحقيق أحمد صقر)، القاهرة، 1966.

[4] انظر : (أبو هلال العسكري) : كتاب الصناعتين ، ص : 43، الأستانة، 1320 هـ.

[5] انظر : (أبو حيان التوحيدي) : المقابسات، ص : 359.

[6] انظر : المرزوقي : شرح ديوان الجماسة، ج1، ص : 8، دار الجيل، بيروت.

[7] انظر : ابن رشيق : المصدر السابق، ، ج1، ص : 119.

[8] انظر : ديوان ابن خفاجة الأندلسي، ص : 9، منشاة المعارف، الإسكندرية، مصر.

[9] انظر : ابن الأثير : المثل السائر، ق2، ص : 342، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

النبوي الشريف مُتزنا عن الشعر، يقول ابن رشيق: « لأنّ من الكلام موزونًا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية، كأشياء اتزنت من القرآن، ومن كلام النبي (ص)، وغير ذلك مما لم يطلق عليه شعر »[1] فهو مُتّزن لا موزونًا. وقد أخذ بهذا التحديد لمفهوم الشعر علي بن محمد الجرجاني(816 هـ) ولكنّه أضاف جديدا حين تحدث عن الشعر في اللغة، واصطلاح المنطقيين، فقال : « الشعر : في اللغة : العلم، وفي الاصطلاح : كلام مقفى موزون على سبيل القصد والقيد الأخير يخرُج نحو قوله تعـالى : ﴿ الذي انقضَ ظَهركَ ورَفعنا لكَ ذِكْرَكَ ﴾[2]، فإنّه كلام مقفى موزون، لكن ليس بشعر لأنّ الإتيان به موزوناً ليس على سبيل القصد، والشعر في اصطلاح المنطقيين : قياسٌ مؤلف من المخيّلات والغرض منه انفعال النفس بالترغيب والتنفير»[3].

أمّا ابن طباطبا (322 هـ) فيكاد يتبنّى مفهوم الناشئ الأكبر[4] للشعر، فهو عنده : «كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتِهم، بِمَا خُصّ به من النظم الذي إنْ عُدِل عن

(1) ابن رشيق : المصدر السابق، ، ج1، ص : 119.
(2) سورة الشرح : الأيتان : 3-4.
(3) الجرجاني (علي بن محمد) : كتاب التعريفات (تحقيق إبراهيم الأبياري)، ص : 167، دار الكتاب العربي، بيروت.
(4) يبدو أنّ الناشئ الأكبر (أبو العباس عبد الله بن محمد الأنباري : 293 هـ) أول من عرّف الشعر بالنظم، وترسم خطاه ابن طباطبا (انظر الجوزو : المرجع السابق، ص : 196).

جهته مجّته الأسماع، وفسد على الذّوق، ونظمُه معلوم محـدود، فمن صحّ طبعُه وذوقُه لم يحتج إلى الاستعـانة على نظم الشعر بالعـروض الذي هو ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستـغـن من تصحيحه وتقـويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتّى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه»[1].

لكن ينبغي لنا أنْ نشير إلى أنّ مفهوم (النّظم) لا يعني دائمًا إقامة الوزن الشعري، بل كثيراً ما ترد هذه الكلمة بمعنى حسن التأليف، ولهذا فالحديث عن النظم قد يشمل الشعر والنثر على السواء، وقد استُعمِلَ هذا المفهوم في الكلام على إعجاز القرآن، فقد وسم أربعة مُصنّفينَ كُتبهم بعنوان « نظم القرآن»، وهم: الجاحظ (255هـ)، والسجستاني (316هـ)، وأبو زيد البلخي(322هـ) وأبو بكر احمد المعروف بابن الأخشيد المعتزلي (326هـ). كما تناول هذا الموضوع أبو سليمان الخطابي (388هـ) وعبد القادر الجرجاني (471هـ) في كتابه دلائل الإعجاز وغيرهم.[2]

ويبدو أنّ مفهوم الشعر عند ابن طباطبا كذلك لا يختلف عن مفهومه عند قدامة بن جعفر، غير أنّ قدامة صاغه صياغة منطقية، بينما ابن طباطبا صياغته نقدية لا تختلف من حيث مضمون الصياغة الأولى إلا باستعمال كلمة الذوق[3]، ويعرف الأزهري

(1) ابن طباطبا : عيار الشعر، ص : 9، دار الكتب العلمية، بيروت.
(2) أنظر : الجوزو : المرجع السابق، ص : 76-197-198.
(3) أنظر : الدكتور محمد الكتاني : المرجع السابق، ص : 138.

(370هـ) الشّعر بقوله : « الشّعر القريضُ المحدودُ بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار، وقائله شاعر، لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره، أي يعلم»[1].

ولكن هذه، فيما يبدو لي، مفاهيم قاصرة لا تتناول في مجملها إلا الشكل، مع مـــا بين تعاريف أصحابها من تفاوت واختلاف، فإنّهم يُجمعون على أنّ الوزن والقـــافية عنصران أساسيان في الشعر، وركنان من أهـــم أركانه.

وقد امتدّ مفهوم الشّعر عند القدماء إلى مدى أوسع، وبشكل أوضح عند طائفة من الفلاسفة والنقاد العرب الذين تأثروا بالفكر الفلسفي اليوناني الذي كان يتنامى في الحياة العقلية العربية بصفة عامة. وكان لهذا المد الفلسفي أثره في مفهوم الشعر الذي اصبح يعرّف بجوهره، ويحدّد على أساس بلاغي فلسفي. وكان من جرّاء ذلك أن دخلت مصطلحات جديدة في تعريف الشعر كالمحاكاة، والتخيل والتخييل. ولعل أوّل من أدخل مفهوم المحاكاة في تحديد طبيعة الشعر، متحوّلاً بتعريفه من حيّز الوزن والقافية إلى تعريفه بطبيعته أو بجوهره الذي هو (محاكاة)، هو الفارابي (339 هـ) يقول : « فقوامُ الشعر وجوهره عند القدماء هو أن يكون قولاً مؤلفًا مما يحاكي الأمر، وأنْ يكون مقسومًا بأجزاء يُنطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس بضروري في قوام وجوهره وإنما هي أشياء يصير بها الشعر أفضل، وأعظم هذه في قوام الشعر هو المحاكاة »[2].

يبدو من هذا التعريف أنّ الفارابي لم يجعل القافية من جوهر الشعر، وأنّه أقام على شيئين أساسيين هما (المحاكاة)، أي تقليد العمل أو الطبيعة في مفهوم أفلاطون ومن تبعه، والتقسيم المتساوي الأجزاء أي الوزن. ويلاحظ بعض الغموض في تعريف الفارابي،

(1) انظر : مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص : 211، مكتبة لبنان، بيروت.

(2) انظر : جوامع الشعر في تلخيص كتاب أرسطو (تحقيق سليم سالم)، ص : 171 – 172.

وذلك في قوله :« مما يحاكي الأمر» لأنّه لم يوضح أي أمر يقصد[1].

أما ابن سينا (428 هـ) فيعرفه بقوله : « الشّعر كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة»[2].

وعرّفهُ ابن رشد الفيلسوف (595 هـ) بقوله : « إن القول الشعري هو المغيّر، أي أنّه إذا غيّر القول الحقيقي سمي شعرًا أو قولا شعريا ووجد له فعل الشعر، وهو يقصد بالتغيير الخروج من الحقيقة إلى المجاز أو الصور البيانية والبديعية بصورة عامة »[3].

امّا الشعر عند حازم القرطاجني (684هـ) في كتابه منهاج البلغاء فهو «كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبّبَ إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بمَا يتضمّن من حُسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه، أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك »[4].

لقد نظر حازم إلى الشعر باعتباره محركا للنفس ومثيرا للانفعال، وهذا يعني أنّ مفهوم الشعر عنده ظلّ قائما على أساس بلاغي من جهة كون البلاغة منهجا متكاملا للتأثير في النفس،

(1) انظر : الجوزو : المرجع السابق، ص : 204.

(2) انظر : ابن سينا :فن الشعر (ت: بدوي)، ص : 161.

(3) انظر : الجوزو : المرجع السابق، ص : 206 – 207.

(4) حازم القرطاجني : المصدر السابق، ص : 72.

متكاملا من اللغة الموحية ومراعاة حال المتلقي، واجتلاب المعاني وصياغة ذلك صياغة لها قوانينها التأسيسية والتخييلية والتقويمية[1].

أمّا ابن خلدون (808 هـ) فنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة ولذلك عرفه بقوله: «الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، والمفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والرّوي، مستقلّ كلّ جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»[2]. ثم يستطرد شارحا تعريفه : « فقولنا الكلام البليغ جنس، وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل له عمّا يخلو من هذه، فإنّه في الغالب ليس بشعر، وقولنا المفصل بأجزاء مُتفقة في الوزن والرويّ فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل، وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عمّا قبله وبعده، بيان للحقيقة، لأنّ الشعر لا تكون أبياته إلاّ كذلك ولم يُفصل به شيء. وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به، فصل له عما لم يجر منه على أساليب الشعر المعروفة، فإنّه حينئذ لا يكون شعرًا، إنما هو كلام منظوم، لأنّ الشعر له أساليب تخصّه، لا تكون للمنثور، وكذلك أساليب المنثور لا تكون للشعر، فما كان

(1) أنظر : الدكتور محمد الكتاني : المرجع السابق، ص : 193.

(2) ابن خلدون : المقدمة (ط.وافي)، ج3، ص : 1305.

من الكلام منظومًا وليس على تلك الأساليب فلا يُسَمَّى شعرًا»[1].

إنّ تعريف ابن خلدون للشعر الذي يُعد اكتمالاً للمفهوم الشعري البلاغي في عصور اتسمت بسيطرة الفكر البلاغي بَدْءًا من عصر عبد القاهر الجرجاني (471هـ) صاحب كتاب "أسرار البلاغة" و"الإعجاز" ووصولاً إلى عصر ابن خلدون (808هـ). إنّ هذا التعريف سيظلّ أقوى تعريف وأشمله يسود الحياة النقدية العربية إذ يَمتّد تأثيره إلى القرون اللاحقة حتى مطلع العصر الحديث، حين تقوم (الوسيلة الأدبية) للمرصفي (1889 م) بنشره من جديد وترديده على أسماع نقاد عصر الإحياء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[2]. وبالرغم من كون هذا التعريف هو الأقرب إلى مفهوم الشعر، ولكن يؤخذ عليه أيضا أنّهُ عُنِيَ بالشكل فقط من بنائه على الاستعارة والأوصاف ولم يلتفت إلى أهم أركان الشعر، وهو إثارة الشعور. وشيء آخر أنّهُ جعل من التعريف : « استقلال كل جزء من أجزائه في غرضه ومقصده عما قبله وبعده». وهذا ليس من العناصر الأساسية للشعر[3].

(1) ابن خلدون : المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(2) حسين المرصفي : الوسيلة الأدبية للعلوم العربية، ج2 ص : 464، ط. المدارس الملكية، 1875م، واقتبسه الدكتور محمد الكتاني في المرجع السابق، ص 140.

(3) أنظر: الدكتور عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص : 165 – 166. دار النهضة العربية، بيروت.

أمّا المعاصرون فطرحوا مصطلح الشعر من جديد للتحليل وإعادة النظر في مفهومه، ومحاولة التوفيق بينه وبين مصطلح الشعر في الآداب الغربية، فانتقد إبراهيم اليازجي مفهوم الشعر كما صاغه ابن خلدون بالرُّغم من اعتماده على الصورة الفنية ومقومات البيان العربي، ورأى أنّه يجوزُ أن نعتبر من الكلام ما ليس بمنظوم ولا مقفى[1].

ويؤيّدُ هـذا الاتجاه كتاب آخرون في مقدمتهم حافظ إبراهيم[2] والمنفلوطي الذي يقول في إحدى مقالاته « الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ ... لا علاقة بينهما وبين جوهره وحقيقته...»[3]. بهذا الموقف مهّد المنفلوطي من حيث يدري أو لا يدري إلى المرحلة اللاحقة التي ستدعو إلى تحرر الشعر العربي من قيود الأوزان والقوافي.

أمّا العقاد فيعرّف الشعر بقوله : « إن الطريق الواضح القويم للشّعر هو التعبير عن حالات النفس الشاعرة، وشاعريةُ النفس

(1) أنظر : الدكتور محمد الكتاني : المرجع السابق، ص : 142.

(2) مقدمة حافظ إبراهيم لديوانه، أنظر : مختارات المنفلوطي، ص : 196.

(3) أنظر : المنفلوطي : النظرات، ج1، ص : 121.

نظرا يتميّز بها الشاعر بين أفراد نوعه إلى هذا الوجود وما فيه»[1]

« ومنذ نَدِ حاول الشعراءُ والنقاد عبثًا إمساك الماء بين أناملهم، ففي الملتقى الشعري الذي انعقد بدمشق سنة 1970، لم يحصل أيُّ حَد أدنى من الاتفاق بين المهتمين بالشعر حول مفهوم الشعر، ولا تحديد لغته، فبعضهم اعتبر هذه اللغة هي الرمز والأسطورة، وبعضهم اعتبرها هي الصورة، وبعضهم تحدث عن لغة الصمت والإيحاء والنبوءة... وبعـضهم رأى أنّ الكلمة تَكتسِبُ بإضافتها الشعـرية مـن خـلال العمل الشعري »[2].

وبذلك تأكد أنّ مفهوم الشعر ظل يتأرجح بين التطورات أو المفاهيم الذاتية وبين التنظيرات النقدية.

والمؤكّدُ أن تعريف الشعر كتجربة أصبح يُعَدُّ بعدد أنفس الشعراء، فمحاولةُ وضع مصطلح للشعر على أساس تعدُّد هذه التجارب والرؤى يَبْدُو أمرًا عسير المنال[3]. وقد أعلن أدُونيس يوما أنه « ليس هناك وجود قائم بذاته نسميه الشعر ونستمد منه المقاييس والقيم الشعرية الثابتة المطلقة، وأنّه ليستْ هناك بالتالي خصائص

(1) أنظر : مقدمة ديوان لآلئ الأفكار لعبد الرحمن شكري، اقتبسه الدكتور محمد الكتاني في المرجع السابق، ص : 146.

(2) الدكتور محمد الكتاني : المرجع السابق، ص : 147.

(3) الدكتور محمد الكتاني : المرجع السابق، ص : 147.

أو قواعد تحــدّد الشّعر ماهيّة وشكلاً»[1].

أما فؤاد أفرام البستاني فيخالف أدونيس ويحاولُ تحديد مفهوم الشعر تحديدًا موضوعيا، فيقول : الشعر هو مجمل عواطف النفس ونزواتِها، يبدو تارة زفرات حرّى يصعّدُها صدرٌ هائجٌ وطورًا ابتسامات عذبة تعلو ثغرًا جميلاً، وقد تتّسع دائرته حتّى يعبّر عن عواطف جمهور من النّفوس، بل رُبّما عبّر عن عواطف أمّة بأسرها. والشاعر هو الذي يشعر بعواطفه الشخصية، أو بعواطف غيره من حُبٍّ وبغض، وفرح وحزن، فيراها منعكسة على مرآة نفسه، فيبرزها إلى الخارج بطريقة تجعلنا شاعرين معه ببعض تلك العواطف ...

هذا وللشعور عون عظيم على إنماء الشعر، ألا وهو المخيلة ذاك الجناح الخفيف الذي يسمو بالشاعر فوق الأرجاء المجهولة، والأطراف السحيقة، فيبسط أمامه اشدّ المعاني تجرُّدًا عن الحسّ بصورة حسية بديعة يزيّنُ بهَا مروج قصائده. ولا غنى للشاعر عن المخيلة « وما الشعر إلا ابن المخيلة ».

وللشعر ركنٌ ثالث ليس دون ما تقدّمَ، وهو العقل، إذ لولاه لطوّحَ الشعور والمخيلة بالشاعر، فقاداهُ إلى الهذيان. فالشاعرُ إذن، جالسٌ – على قول قدماء اليونان – في مركبة فخمة، يجرُّها

(1) أدونيس : مقدمة للشعر العربي، ص : 107.

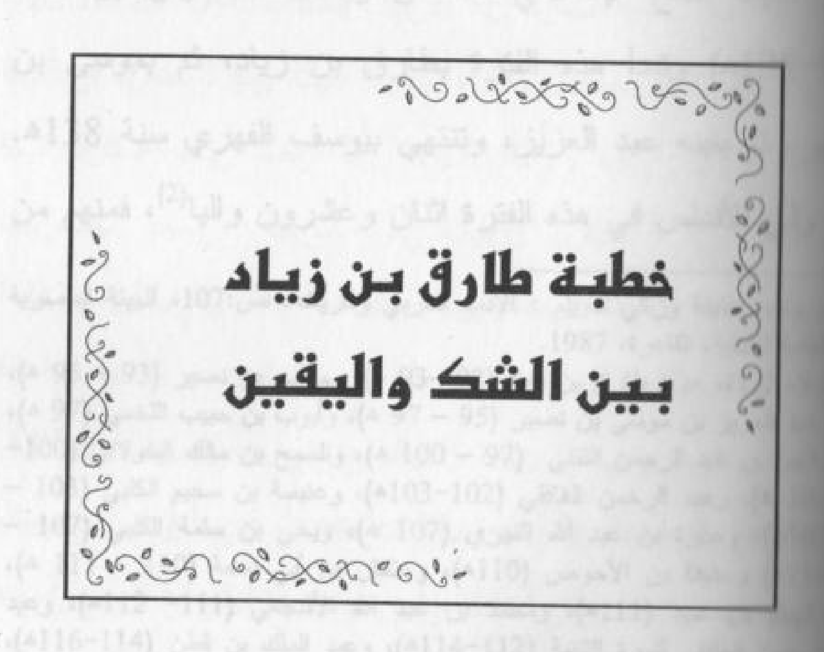
جوادان قويان، هما الشعور والمخيّلة، يسيّرهما حوذيٌّ حكيم، وهو العقل[1].

خلاصة :

هذه محاولاتٌ تقريبية في تحديد مفهومي الشعر والشعرية، كما يبدو في مظاهر إخراجهما المادية، أمّا جوهرهما فأسمى من أن يناله تعريف، أو يحيط به تحديد، وإذن فليس هناك حتّى الآن عيار للشعر أو الشعرية وإنما هناك فوضى تختلط فيها المقاييس وتُهدر فيها العبقريات[2]، لأن مفهوم الشعر والشعرية زئبقي ومتمرد.

(1) باختصار عن فؤاد أفرام البستاني، المرجع السابق، ص : 62 – 63.

(2) أنظر البستاني : المرجع السابق، ص : 63 والكناني : المرجع السابق، ص : 152.



خطبة طارق بن زياد بين الشك واليقين

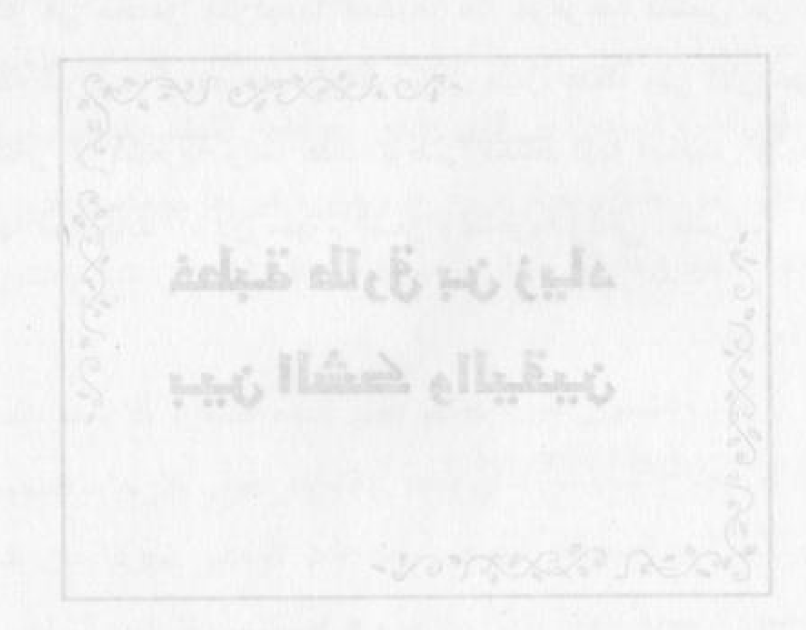
توطئة :

منذ وطئت أقدامُ المسلمين أرض الأندلس، وهم يعيشون في نزاع دائم مع سكان البلاد الأصليين، وقد ظلت السيوفُ مشرعة بين الفريقين طوال مدة حكم الولاة[1]، ويطلق عصر الولاة عل الفترة التي عقبت الفتح الإسلامي للأندلس ودامت ستة وأربعين عاما (92-138هـ) وتبدأ هذه الفترة بطارق بن زياد، ثم بموسى بن نصير، ثم بابنه عبد العزيز، وتنتهي بيوسف الفهري سنة 138هـ. وقد ولي الأندلس في هذه الفترة اثنان وعشرون واليا[2]، فمنهم من

---

(1) د. محمد خليفة وزكي سويلم : الأدب العربي وتاريخه، ص:107، الهيئة المصرية العامة للكتابة، القاهرة، 1987.

(2) هؤلاء الولاة، هم : طارق بن زياد (92 –93 هـ)، وموسى بن نصير (93 – 95 هـ)، وعبد العزيز بن موسى بن نصير (95 – 97 هـ)، وأيوب بن حبيب اللخمي (97 هـ)، والحرّ بن عبد الرحمن الثقفي (97 – 100 هـ)، والسمح بن مالك الخولاني (100-102 هـ)، وعبد الرحمن الغافقي (102-103هـ)، وعنبسة بن سحيم الكلبي (103 – 107هـ)، وعذرة بن عبد الله الفهري (107 هـ)، ويحي بن سلمة الكلبي (107 – 110هـ) وحذيفة بن الأحوص (110هـ)، وعثمان بن أبي نسعة (110 – 111 هـ)، والهيثم بن عبيد (111هـ)، ومحمد بن عبد الله الأشجعي (111- 112هـ)، وعبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية (112-114هـ)، وعبد الملك بن قطن (114-116هـ)، وعقبة بن حجاج (116-122هـ)، وعبد الملك بن قطن للمرة الثانية (122-123هـ)، وبلج بن بشر (123-124هـ)، وثعلبة بن سلمة العاملي (124-125هـ)، وأبو الخطار حسام بن ضرار (125-128هـ)، وثوابة بن سلمة (128هـ)، وعبد الرحمن بن كثير (129هـ)، ويوسف الفهري (129-138هـ). (أنظر أخبار مجموعة لمؤلف مجهول، ص : 17 وما بعدها. وابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص:19 وما بعدها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، وابن عذاري : البيان المغرب، ج2، ص : 4 وما بعدها، دار الثقافة، بيروت. وعبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص : 19 وما بعدها. دار الكتاب، المغرب. وحسن مؤنس : فجر الأندلس، ص : 67 وما بعدها. وقد اختلف المؤرخون في تسمية الولاة وتعاقبهم، فثمة التقديم والتأخير والزيادة والنقصان).



كان يُعيّنهم خلفاءُ بني أمية في دمشق، ومنهم من كان يعيّنهم والي إفريقية في القيروان، وكانوا يختلفون قوةً وضعفا، واستقامة وانحرافا. وفي هذه الفترة توغل المسلمون الفاتحون في بلاد إسبانية وفتحوا بلادًا جديدة كبرشلونة (BERCELONE)، وقشتالة (GASTILLE)، ثم فتحوا جزءاً من فرنسة بقيادة عبد الرحمن الغافقي، فوصلوا إلى مدينة ليون (LYON) ومازالوا يتقدمون في قلب فرنسة حتى بلغوا تور (TOURS) ولكن شارل مارتل اعترضهم بجموع الفرنجة في سهول بواتيه[1]، وردّهم على أعقابهم. وقُتل في تلك المعركة، التي يسميها العرب بَلاط الشهداء قائدهم عبد الرحمن الغافقي، وكثيرون معه، وكان ذلك سنة 144هـ (732م). ولم يقتصر عصر الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في أوربة بل حدث شقاق عظيمٌ في المسلمين أنفسهم[2]، فقد كانت هناك نزاعاتٌ وحروب داخلية عل أشدها بين العرب والبربر تارة، وبين العرب أنفسهم تارة أخرى، ولا سيما بين القيسية واليمانية، ثم بين مؤيدي الأمويين والعباسيين. لهذا كله كان عصرُ الولاة عصرًا مضطربًا، وكانت السمات السياسية فيه، هي :

(1) وقعت معركة بلاط الشهداء في سهول بواتيه وعلى بعد نحو 250 كيلومترا من باريس جنوبا.

(2) انظر بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص : 16، دار مارون عبود، بيروت.

الحروب والصراع، وعدم الاستقرار، مما جعل القلق يدبُّ في أوصال المجتمع، ويفكك قوّته ويصدّع تماسكه[1].

وفي هذا العصر بدأت الخيوطُ الأولى لفجر الأدب الأندلسي، فقد عرف عصر الولاة شذرات من الشعر والنثر قالها أدباء من الطارئين على الأندلس[2]، كانت بمثابة خيوط الفجر الأولى التي تؤذن بصبح مشرق. ويبدو أنَّ أول نص أدبيّ عربيّ تردد في الأندلس هو هذه الخطبة وأبياتٌ شعرية أخرى قالها طارق بن زياد في الفتح، وقد أوردها المقري في النفح[3].

أولا : معطيات :

1- الشخصية :

هو طارق بن زياد وُلد سنة 50 هـ، وتولى طنجة سنة 89 هـ، ثم فتح الأندلس سنة 92 هـ. أما وفاته فكانت على الأرجح سنة 10[illegible] هـ. وقد اختلف في نسبه، ولكن أرجح الأقوال أنّه بربريٌّ أصيلٌ، ولكنه كان على صلةٍ بالعروبة والإسلام منذ زمن ليس بالقصير فقد ذكر له ابن عذاري أبوين في الإسلام، فاسمه الكامل

(1) انظر أخبار مجموعة، ص : 19 وما بعدها. وابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس، ص : 19 وما بعدها. وابن عذاري : البيان المغرب، ج2، ص : 4 وما بعدها.

(2) هؤلاء الأدباء هم : أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وجعونة بن الصمة الكلابي، وطارق بن زياد، وغيرهم.

(3) انظر المقري : نفح الطيب، مج1، ص : 265.

: طـــارق بن زياد بن عبد الله، ويبدو أنّه ليس هو الذي أســلم أولا بل والــدُه وجــدُه الذي يكون قــد انتقل إلى المشرق، وهناك نشـــأ طـــارق في بيئة عربية إسلامية، مع احتفاظه بلهجة أجـــداده البربرية، ثمّ جُنّد بعد ذلك في جيش موسى بن نصير، وجـــاء معه إلى المغرب، وكان من أشد رجاله[1].

2- الظرف :

أمّا الظرف الذي قيلت فيه الخطبة فهو كما ذكر ابن خلكان والمقري، أنّ طارق بن زياد لمّا استقر بأرض الأندلس، وبلغ دنوّ لذريق منه قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم في الشهادة، ثم قال : « أيها الناس، أين المفر...»[2]. أمّا ابن هذيل الأندلسي، وهو من أهل القرن الثامن الهجري، فأورد لنا رأيًا آخر عن الظرف الذي قيلت فيه الخطبة، خالف فيه ابن خلكان والمقري، وغيرهما من المؤرخين، فقال : « ... فاقتتلوا ثلاثة أيّام اشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من

---

[1] ابن عذاري : المصدر السابق، ج2، ص : 4 وما بعدها. وابن القوطية : المصدر السابق، ص: 28 وما بعدها وأخبار مجموعة لمصنف مجهول، ص : 6 وما بعدها. وحسين مؤنس : فجر الأندلس، ص : 67 وما بعدها. وعبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ص:29. وسيف الدين الكاتب : طارق بن زياد فاتح الأندلس، ص : 6 وما بعدها، والدكتور سهيل زكار: مائة أوائل من تراثنا، ص: 170 وانظر تاريخ العرب والإسلام له، ص:423.

[2] انظر المقري : المرجع السابق، مج1، ص : 240.

الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة ثم قال : أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم...»[1].

ومهما يكن من أمر فإنّ الظرف الذي قيلت فيه الخطبة هو فتح الأندلس، ولا يهم أكان ذلك قبل بدء المعركة الفاصلة أم أثناءها.

3- حياة الخطبة :

لقد عاشت الخطبة في المصادر المغربية والمشرقية التاريخية والأدبية، كتاريخ عبد الملك بن حبيب[2]، المتوفى سنة 238 ه والإمامة والسياسة لابن قتيبة[3]، المتوفى سنة 276 ه، وسراج الملوك للطرطوشي[4]، المتوفى سنة 520 ه، وريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب لأبي محمد عبد الله المواعيني الإشبيلي[5]، عاش في عصر الموحدين، ووفيات الأعيان لابن

---

[1] انظر تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس (النسخة المخطوطة التي نشرها مصورة لويس مرسييه في باريس، سنة 1932، ص : 70 – 71، نقلا عن د.سوادي عبد محمد : طارق بن زياد، ص : 84، بغداد 1988).

[2] نشر جزءًا من الكتاب الدكتور محمود مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 5، ص : 222 نقلا عن الدكتور عبد الرحمن علي الحجي في كتابه : التاريخ الأندلسي، ص : 59.

[3] انظر : ج2، ص : 106 – 107، طبعة موفم للنشر، الجزائر، 1989.

[4] انظر : ص : 154، نقلا عن الدكتور عباس الجراري في كتابه : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص : 66 – 67، مكتبة المعارف، الرباط، 1979 م.

[5] مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم2647. نقلا عن د.عباس الجراري: المرجع السابق، ص: 61.

خلكان[1]، المتوفى سنة 681 هـ، وتحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل[2]، وهو من أهـل القرن الثامن الهجري، ونفح الطيب للمقري[3]، المتوفى سنة 1041 هـ.

وقد وردت الخطبة في هذه المصادر بنصوص متشابهة حينا ومختلفة حينا آخر، ولكنّها نالت شهرتها بفضل ابن خلكان الذي نقل حرفيات الخطبة عن مصدر لم يذكره، ثمَّ أخذها عنه المقرى، فأورد لنا نصًّا «منقحًا ومشذبا» عما كان يتناقله المؤرخون والكتّاب في تأليفهم ومصنّفاتهم خلال عَصره من أخبار تتعلق بالإطار البنائي والأدبي للخطبة دون مناقشتها وتحليلها[4].

وقد اتخذنا نص « نفح الطيب » أساسا للدراسة باعتباره من أكمل النصوص التي وصلت إلينا، وإنْ كان اختلافُ النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة حتى انتهت إلى الشكل الذي هي عليه الآن.

(1) أنظر : مج5، ص : 321 – 322، ط. دار الثقافة، بيروت.
(2) أنظر ابن هذيل، المرجع السابق، ص : 70 – 71.
(3) المقري : نفح الطيب، مج 1، ص : 240 – 241.
(4) د.سوادي عبد محمد : المرجع السابق، ص : 85 – 86.

4- نص الخطبة[1] :

قال : « أيّها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيَعُ من الأيتـام، في مـأدُبَة اللـئـام، وقد استقبلكم عـدوكم بجيشه وأسلحـتـه، وأقواتُهُ موفورة، وأنتم لا وَزَرَ[2] لكم إلا سيـوفـكـم، ولا أقوات إلاّ ما تستخـلصونه من أيدي عـدوكم، وإن امـتـدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجـزوا لكم أمـرًا ذهبت ريحكم[3]، وتعـوّضت القـلـوب من رُعبها منكم الجراءة عليكم، فـادفـعـوا عن أنفـسـكم خـذلان هـذه العـاقـبـة من أمـركم بمُناجزة[4] هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحصينة، وإنّ انتهاز الفُرصَة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنَجْوة[5]، ولا حملتكم على خُطة أرخصُ متاع فيها النفوسُ (إلاّ وأنا)[6] أبدأ بنفسي، واعلموا أنّكم إنْ صَبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حَظّكم فيه

(1) أنظر المقري : نفح الطيب (تحقيق إحسان عباس)، مج1، ص : 240– 241.
(2) الوزر : الملجأ والمعتصم والمراد به هنا السلاح.
(3) ذهبت ريحكم : ذهبت قوتكم من قوله تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ﴾ سورة الأنفال، الآية : 46.
(4) المناجزة : المقاتلة والقضاء على الخصم.
(5) بنجوة : بمنجاة، بخلاص والأصل في النّجوة : المكان المرتفع.
(6) زيادة من ابن خلكان.

بأوفى من حظي، [وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمَرْجان، والحُلل المنسوجة بالعِقيان[1]، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان]، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرْبانا[2]، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا[3]، ثقة منه بارتياحكم للطـعان[4]، واستماحكم بمُجالـدة الأبطال والفُرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مَغْنَمُها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أني أوّل مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه، وأنّي عند مُلْتَقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتِلُهُ إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يُعْوِزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا

(1) العقيان : الذهب.
(2) عُرباناً : فقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عزبان : جمع أعزب كأعمى وعميان، أو جمع عازب : كصاحب وصحبان، أو جمع عَزيب : كشجيع وشجعان : وهو الذي لم يتزوج، ويبدو أنّ هذه الرواية هي الصحيحة بدليل قوله بعد ذلك « ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا وأختانا ».
(3) أختانا : جمع مفرده ختن بالتحريك : وهو الصهر وكل مَنْ كان منْ قِبَل المرأة كالأب والأخ والعم وكزوج البنت أو زوج الأخت ومن كان من قبل المرأة جميعهم أختان، ومن قبل الزوج أحماء.
(4) ارتياحكم للطعان : رضاكم بالقتال، ارتاح إلى الشيء : رضى به وقبله.

بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخذَلون ».

ثانيا : تحليل الخطبة :

1- عنوان الخطبة :

تُعرفُ هـذه الخطبة في الكتب المدرسية باسم « خطبة طارق بن زياد» أو « خطبة طارق في الترغيب في القتال»[1]، وليس هـذا العنوان جُزْءًا أصيلا في الخطبة، وإنّما هو عنوان وضعه لها، اجتهـادًا، بعض المنتقين للتمييز بينها وبين خطب الآخرين، وهذا يعني أنّ هؤلاء المنتقين قد أقرّوا أنّ لطارق خطبة واحدة، ونحن لا نشاطرهم الرأي في ذلك، لأننا نعرف أنّ ما وصلنا من مصادر قديمة قليل جدا، وأنّ ما وصلنا فيها من أخبار ونصوص ليس غير جزء ضئيل مِمّا كنا ننتظر وما زلنا ننتظر أن يأتينا يومٌ يُكشفُ فيه النقابُ عن تراثنا الدّفين، ولعلّنا نكتشفُ عندئذٍ أنّ لطارق خُطبًا أخرى وأشعارًا أخرى، كما ذكرت بعض المصادر[2].

ومن هنا جاءت بادرتُنا، في التفكير في وضع عنوان لخطبة طارق، هذه، حتى نُميزها من غيرها من الخطب المنتظرة من

(1) أنظر الدكتور محمد خليفة وزكي سويلم : الأدب العربي وتاريخه، ص : 104.
(2) أنظر : المقري : المرجع السابق، مج1، ص : 265، ذكر أنّ الأبيات الثلاثة من قصيدة، وهذا يعني أن أصلها أطول من ذلك.

ناحية، وحتى نبيّن بأنّ العنوان هو ذاكرة النص ورأسه المفكر من ناحية ثانية، ونرى بأنّ العنوان المناسب لخطبة طارق، هو: « خطبة الفتح» على غرار « خطبة الوداع » للرسول الأعظم محمد (ص).

2- نوع الخطبة :

تعدُّ خطبة طارق بن زياد هذه من عيون الأدب العربي، وهي من أروع الخطب الحربية التي عرفها التاريخ، وهي من النوع الحماسي والحض على الجهاد.

3- هدف الخطبة :

هدف الخطبة الأساسي هو تحريض الجُنْد على القتال وبعث الحماس في نفوسهم، وحثهم على الصمود والثبات لمواجهة العدو والانتصار عليه.

4- أقسام الخطبة ومضمونها :

تخلو هذه الخطبة من أيّ شكل من أشكال المقدمات، إذ يتناول طارق الموضوع مباشرة، ويشتمل على ثلاثة مقاطع متتالية تكوّن فيما بينها وحدة في الموضوع (الحث والتحريض على الجهاد).

المقطع الأول : الترهيب : ويبدأ بـ (أيها الناس، أين المفر؟..) وينتهي بـ (إلاّ وأنا أبدأ بنفسي).

وقد وجّه فيه طارق الخطاب إلى أصحابه، ورسم لهم صورة عامة للظروف التي هم فيها، مما يفرض عليهم الصمود والثبات لمجابَهة العدو، وقد اعتمد في ذلك على المقابلة بين وضعيتهم ووضعية أعدائهم، فالمسلمون محاطون بالبحر الذي خلفوه وراءهم، وبالعدو الذي يزحف نحوهم، وقد شبّههم في وضعهم هذا بالأيتام الضائعين في مأدبَة اللئام، لا سند لهم ولا معين إلا سيوفهم، ولاقوت إلاّ ما يستخلصونه بأنفسهم من أعدائهم الذين يتوافرون على جيش جرّار، وأسلحةٍ كثيرةٍ، وأقواتٍ موفورة، ثم حذّرهم من خطورة النتائج، إنْ طالت بهم الأيام وهم على هذا الوضع، ولم ينقذوا ما هم بصدده من القضاء على عدوهم، الذي يمكن أن ينقلب خوفه منهم جراءة عليهم[1]، أي : أنّه جعل جنوده في موقفٍ حرج لا مجال فيه إلاّ للموت أو الاستماتة في القتال، وجعل نفسه مثالاً حيًّا يتقدم صفوف المجاهدين[2]

---

[1] علي لغزيوي : أدب السياسة والحرب في الأندلس، ص:412، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1987.

[2] الموجز في الأدب العربي وتاريخه، وضع لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية (الأدب في الأندلس والمغرب) ص :157، دار المعارف، القاهرة.

وقد لجأ في خطبته إلى العقل أوّلاً دون العــاطفة عندما وضع جنوده في الإطار الحقيقي بعد إحراق سفنه[1]، وحين يسيطر العقل على العاطفة في الخطبة تغيبُ الصور عن الساحة، ويتوقف الخيال عن التّدخل... فحديث العقل هامسٌ هادئ، أمّا حديث العاطفة

---

[1] واقعة إحراق السفن المنسوبة إلى طارق بن زياد لم تحظ بالتحقيق والعناية، وقد اختلف المؤرخون حولها بين الظن واليقين، وأول من ذكر هذه القصة هو أبو عبد الله محمد الإدريسي(560هـ) صاحب كتاب "نزهة المشتاق"، إذ يقول :" لمّا جاز طارق بمن معه من البرابر، وتحصنوا بهذا الجبل أحسّ في نفسه أنّ العرب لا تثق به فأراد أن يزيح ذلك عنه، فأمر بإحراق المراكب التي جاز عليها..." (أنظر نزهة المشتاق ص:178). ولئن شكّ بعض المؤرخين في الحادثة، فإنّ هذا الشك جاء أولاً من بعض المستشرقين الذين يشك في نواياهم، ونحن لا نشك في الحادثة، وإن شك فيها بعض الناس، لأنّ حرق السفن عمل جيد من الناحية الاستراتيجية، فهو بهذا العمل يكون قد قطع على الجيش كلّ أمل في العودة إلى المغرب، وليدفع جنوده إلى الاستبسال في القتال وليستميتهم في الاندفاع، إلى الأمام. كما أنّ الخطبة تؤيد صحة هذه الواقعة فهو يستهلها بقوله: « أيّها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...» والدليل على صحة الرواية أنّ مثل هذه الواقعة كانت شائعة ليس فقط في التاريخ العربي الإسلامي، وإنّما في التاريخ الإنساني عموما، ومنذ أقدم العصور فقد ذكر جرجي زيدان أنّ الأحباش عندما غزوا اليمن وبعد عبورهم البحر تصدّت لهم جيوش الدولة الحميرية الكثيفة، فخطب أرباط قائد الجيش الحبشي في جنده قائلا : "يا معشر الحبشة قد علمتم أنكم لن ترجعوا إلى بلادكم أبدا، هذا البحر بين أيدكم إن دخلتموه غرقتم وإن سلكتم البر هلكتم واتخذتكم العرب عبيدا وليس لكم إلا الصبر حتى تموتوا أو تقتلوا عدوكم" (أنظر العرب قبل الإسلام ص148). وكذلك أورد الطبري أنّ سيف بن ذي يزن خطب في عسكره الذي ذهب لتحرير اليمن من الأحباش بعد أن أحرق سفنه قائلا :« ليس أمامكم إلا إحدى» اثنتين إمّا القتال بشجاعة حتى الظفر وإلا الاستكانة والتخاذل، وحينذاك يلحقكم العار والخزي العظيم" (تاريخ الطبري، ج2، ص119). وقد أثرت قصة إحراق طارق بن زياد للسفن في المكتشف الإسباني "هرنا ندوكورتيث" الذي فتح المكسيك سنة 926 هـ/1519م فقد فعل فِعلَ طارق عندما أحرق سفنه التي قدم عليها جيشه من إسبانية حالما أشرف على شواطئ المكسيك لكي يقطع على جنده كل تفكير في الرجعة والارتداد (محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص:49 هامش رقم1، نقلا عن د.سوادي عبد محمد: طارق بن زياد، ص:95) وانظر عن الحادثة مجلة الفيصل، السنة 24، العدد 279، رمضان 1420هـ.

فحديث قارعٌ ضاج يستثيرُ النّوازع البدائية في النفوس كما تستثيرها الطبول بأصواتها القوية المدوية[1].

المقطع الثاني : التّرغيب : ويبدأ بـ(واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً)، وينتهي بـ(والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين).

وبعد أنْ فصّل في جانب الترهيب، عمد إلى الترغيب، ليبث في نفوس جنُوده مزيدًا من الحماس، فحثهم على الصمود والجهاد، وأوصاهم بالصبر على مشاق الحرب مدة قصيرة ليستمتعوا بثمار النصر زمنًا طويلاً، ولينالوا رضى الخليفة (الوليد بن عبد الملك) الذي اختارهم من أبطال العرب والمسلمين لفتح تلك الجزيرة، رغبة منه في أنْ يكون حظه منهم ثواب الله عزّ وجلّ على إعلاء كلمته وإظهار دينه في هذه الأرض، وهو يعدهم بأنَّ ما يُحْرِزُونَهُ من غنائم في الحرب حق خالص لهم لا يشاركهم فيه أحدٌ، لا الخليفة، ولا غيرُه ممّن لم يحارب معهم، ثم ذكرّهم بأنّ الله سبحانه وتعالى سيكون في عونهم على هذا العمل الصالح الذي سيكسبهم ذكرًا حسنا في الدارين.

أمّا الفقرة التي وضعناها بين حاضنتين (في نص الخطبة)، فإنّنا نرتاب في نسبتها إلى طارق، ونعتقد أنّها من وضع بعض

---

[1] الدكتور أحمد بسام الساعي : خطبة طارق بن زياد هل قالها حقا ؟ مجلة العربي، العدد 293، أفريل 1983.

المستعربين (المستشرقين) الحاقدين على الإسلام والمسلمين وتدبيجهم، لأن ما ورد فيها لا يتلاءم والروح الإسلامية العالية التي يتميز بها الفاتحون الأوائل من أمثال طارق بن زياد، فالفارق واضح بين لغة الخطبة كلها، ولغة هذه الفقرة التي يُغري طارق فيها جنوده بفتيات الأندلس وبالحور من بنات اليونان (ولسنا ندري لماذا اليونان؟) اللائي يرفلن باللآلئ والمرجان، وهن بنات الملوك والأمراء (كما زعموا). فهي فقرة شاذة طغى عليها السجع طغيانًا لم نجده في سائر الخطبة من ناحية وانحطت لغتُها في الوقت نفسه إلى دركٍ لا يمكن أنْ نظنّ معه أبدًا أنّها وبقية أجزاء الخطبة من عمل واحدٍ. إلى جانب ما جاء فيها من التناقض في المعاني، وفي الأسلوب، ومن مخالفتها لحقائق تاريخية، كإقحام كلمة «اليونان» في الفقرة، في حين أنّ المؤرخين الأندلسيين قد اعتادوا على استعمال كلمة « الروم» أو «القوط» وكذلك اصطلاحَ « العلوج والعجم أو المشركين والكفار»[1].

وفضلاً عن ذلك فإنّ المؤرخين العرب القدماء الذين ينتمون إلى أزمنة مختلفة، وأمكنة متباعدة تجاهلوها، وكأنّها شيء لا أصل له في الخطبة، فلم يثبتها أحد من المؤرخين الأوائل، أمثال : عبد الملك ابن حبيب (تـ 238هـ) صاحب كتاب « مبدأ خلق الدنيا »

[1] د.سوادي عبد محمد : المرجع السابق، ص : 86.

المعروف بتاريخ ابن حبيب، وابن قتيبة (تـ276هـ) صاحب كتاب « الإمامة والسياسة »، والطرطوشي (تـ520هـ) صاحب كتاب «سراج الملوك»، وغيرهم. وأول من أورد هذه الفقرة في الخطبة هو ابن خلكان (تـ 681هـ) صاحب كتاب «وفيات الأعيان». ويبدو أنّ الفقرة قد أضيفت إلى الخطبة بعد عصر ابن خلكان عندما استولى الصليبيون على بلاد المسلمين وعبثوا بتراثهم...

وإذن، فلا بد من الوقوف وقفة شكّ كبير أمام هذه الفقرة « ومما يزيد هذا الشك رسوخا تلك الحقيقة التاريخية التي عُرفت عن الجيوش الإسلامية عامة – ولا سيما في تلك القرون الأولى من حملات الإسلام – وهي أنّ هذه الجيوش لم تكن تغزو للغزو وللغنائم التي ينالها الغزاة عادة، بل كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة »[1].

وهذه الحقائق التّاريخية، لا تُعجبُ الصليبيين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، فعملوا ما في وسعهم على تشويه التاريخ الإسلامي المجيد بجوانبه المتعددة، تارة بالزيادة، وطورًا بالحذف،

[1] د.أحمد بسام الساعي : المرجع السابق.

ولكن ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[1].

المقطع الثالث : إبراز خطته الحربية في المعركة، ويبتدئ بـ(واعلموا أني أولُ مجيب إلى ما دعوتكم إليه)، وينتهي بـ(فإنّهم بعده يخذلون).

وبعد أنْ تناول جانب الترغيب مركزا على الجانبين المادي والمعنوي معًا، انتقل إلى إبراز خُطّته الحربية في المعركة التي يقبل عليها، واضعًا كل الاحتمالات الممكنة أمام أعينهم تجنّبا للاضطراب أو تصدّع الصفوف في حالة استشهاد القائد، وقد أعلن عن خطته في اللحظات الحاسمة قبل نشوب المعركة، مما يدلُّ على حنكته وبعد نظره[2]، ثم أخبرهم بأنّ قتل لذريق ملك الأعداء سيسهل مهمة فتح الأندلس، لأن قومه سيخذلون بعد قتله، وقد اتخذ نفسه قدوة لجنده عندما تكفل هو بنفسه بقتل لذريق، وقال لهم : فإنْ متُّ بعد قتل الطاغية فقد كفيتكم شره، عندئذ تستطيعون إسناد أموركم إلى بطل عاقل يخلفني في قيادتكم.

(1) سورة الصف الآية : 8 ﴿ يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواهِهِم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾

(2) علي لغزيوي : المرجع السابق، ص : 413.

5- الأسلوب :

الأسلوب في هذه الخطبة، هو أسلوب الخطابة بشكل عام، يمتاز بالقوة والجزالة، وبالإيجاز والفصاحة، وبتماسك الجمل، والبعد عن الحشو والمبالغة وتكلف ما لا طائل تحته، وهو أسلوبٌ عربيّ النسج، خالٍ من أية عجمة تشينه، أو غرابة وتعقيد يزريان به، ويحطان من قدره، وهو فوق هذا بعيد عن المحسنات البديعية المتكلفة الممقوتة (باستثناء الفقرة الشاذة المضافة المشار إليها سلفا)، والسجع الموجود في الخطبة من السجع القصير الفقرات الذي لا ينبو عنه الذوق، ولا تمجُّه الأسماع، لأنّه خال من كلّ مظاهر الصنعة والتكلف والخطبة في الجملة، تجري على طبيعتها، وعلى هدى معانيها، فجملها قصيرة وقوية، متينة السبك، جميلة الصياغة، فلا نجد لفظة مقحمة في غير مكانها.

6- العاطفة :

تزخر الخطبة بالعواطف الدينية الصادقة، وتظهر عاطفته الدينية واضحة في هذه الخطبة وتتجلى في اهتمامه بالجانبين الروحي والمادي معًا، وفي سعيه إلى الاستشهاد بإيمان كبير وروح عالية، وحث قومه على الجهاد، كما تتجلى العاطفة الدينية في الجمل الدعائية التي تتخلل الخطبة، وفي بعض المعاني التي يستمدها من

القرآن الكريم[1].

وعاطفة طارق تتدفق بحب الجهاد والتوق إلى النصر، ولا ريب أنّها عاطفة صادقة، قوية، ولو لا ذلك ما أحدثت انفعالاً وأثرًا قويين في نفوس الجند.

7- **المعاني :**

ومعانيه واضحة سهلة، بعيدة عن العمق والتكلف خالية من الصور الفلسفية، ولكن الروح الدينية، تعمُّ معاني الخطبة، فنلحظ تأثر طارق بأفكار القرآن الكريم والحديث الشريف، ولا سيما حين يتحدث عن الأثر النفسي للتقاعس واحتمال تجرؤ العدو عليهم بعد جبنه أمامهم، ثم حين يغريهم بالألذ الأرفه بعد الأشق القليل، وكأنّه يقيس تلك المكافأة الدنيوية على العمل الطيب بمكافأة الآخرة على الدنيا[2].

8- **خلاصة :**

في ختام حديثنا عن تحليل الخطبة، يجدر بنا أنْ نسجل الملاحظات الآتية :

[1] علي لغزيوي : المرجع السابق، ص : 414.

[2] د.أحمد بسام الساعي : المرجع السابق.

أ- إنَّ مجمل الروايات العربية والإسلامية، قد أشادت بهذه الخطبة، ونوَّهتْ بما كان لها من أثر قي إذكاء شجاعة الجند، وتَمتين الثقة في نفوسهم لتحقيق الانتصار والظفر بهذه الجزيرة[1].

ب- تفكير طارق من خلال هذه الخطبة تفكير سليم، فهو يجيد التعليل والتدليل، ويحسن تقديم الحجج والبراهين.

ج- له ذكاء متوقدٌ، يسبرُ أغوار النفس البشرية، ويعرفُ ما يدور في أذهان المستمعين، فيخاطبهم حسب عقولهم.

د- له مخيلةٌ نشيطةٌ، وإحساسٌ مرهفٌ، فمخيلته تُجسّمُ الأفكار، وتصنع الخطط، وتصوّر المواقف، وإحساسُه يتلقى التأثيرات ويعكسُها لجنُودهِ، وما فعله مع جنوده حين جعل نفسه مثالا حيا يتقدم صفوف المجاهدين يذكرنا بالقول المأثور : « إذا أردت أن تبكيني فابدأ أنت بالبكاء ».

هـ- وكانت ثقتهُ في نفسه وفي جيشه كبيرةً، وكان جريئا في آرائه، رابط الجأش في موقفه.

و- كما كان صادقا مع جنوده لا يراوغ ولا يخاذل.

ز- وتعدّ هذه الخطبة، أولّ ريح معطرة بالبلاغة تَهبُ على أرض الأندلس[2].

[1] د.سوادي: المرجع السابق، ص : 88.

[2] د.محمد خليفة وزكي سويلم : المرجع السابق، ص : 109.

ح- وقد التزم فيها بلازمة الخطبة (أيها الناس)، كما التزم بالإيجاز، إذ لا إطناب، لأنَّ الظرف غير مناسب لذلك والإيجاز يطلب في ثلاث حالات (الحروب، والتهنئة، والتوصية).

ط- وجملة القول : إنَّ خطبة طارق بن زياد، في مجملها جيدة من حيث قيمتها الفنية، وهي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند[1].

ثالثا : خطبة طارق بين الشك واليقين

تمهيد :

لقد اختلف الدارسون بشأن هذه الخطبة، وبشأن الأبيات التي قالها طارق بن زيادة في الفتح، وأوردها المقري في النفح نقلا عن الحجاري في « المسهب » وابن اليسع في « المغرب »[2]، فاختلفوا في نسبة هذين النصين إليه، فوقف بعض الباحثين وقفة شك في نسبة الشعر والخطبة إليه وأثبتهما له باحثون آخرون، وسنتناول آراء هؤلاء وهؤلاء في هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ثم نبين بطلان هذا الشك.

---

[1] د.محمد خليفة وزكي سوسلم : المرجع السابق، ص : 106.

[2] أنظر المقري : نفح الطيب، مج1. ص : 265.

الشاكون في الخطبة :

لقد شك بعض المؤرخين في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، ويبدو أنَّ هذا الشك جاء أولا من بعض المستشرقين الذين يشك في نياتهم[1] (لأن «الاستشراق» و«الاستعمار» و« التبشير» ثلاثة أسماء لشيء واحد)، ثم حذا حذوهم بعض مؤرخي العرب، فشكوا هم بدورهم في نسبة الخطبة، ومن هؤلاء الدارسين الشاكين : الدكتور أحمد هيكل[2] والدكتور عمر الدقاق[3]، والأستاذ محمد بن تاويت والدكتور محمد الصادق عفيفي[4] والأستاذ محمد عبد الله عنان[5]، والأستاذ محمد حسن كجة[6]، والدكتور عمر فروج[7]، والدكتور أحمد بسام الساعي[8] والدكتور سوادي عبد محمد[9]، والدكتور عبد الرحمن الحجي[10]، وغيرهم. غير أنه يكـاد يكـون الدكتور أحمد هيكـل في كتـابه (الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة) هو الأصل لمعظم الدراسات

---

[1] محمد الطيب عبد النافع وإبراهيم يوسف : تاريخ الأدب والنصوص. ص : 172.

[2] أنظر كتابه : الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص : 67 وما بعدها.

[3] أنظر كتابه : ملامح الشعر الأندلسي، ص : 48-59.

[4] أنظر كتابيهما : الأدب المغربي، ص : 103-104.

[5] أنظر كتابه : دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص : 47.

[6] أنظر كتابه : محطات أندلسية، ص : 32.

[7] أنظر كتابه : تاريخ الأدب العربي، ج4، ص : 40 (هامش1).

[8] د.أحمد بسام الساعي : المرجع السابق.

[9] أنظر سوادي عبد محمد : المرجع السابق، ص : 83 وما بعدها.

[10] أنظر كتابه : التاريخ الأندلسي، ص : 59 وما بعدها.

التي ظهرت بعده في هذا الموضوع، وعليه اعتمد الدارسون الآخرون حيث نقلوا كلامه بتصرف، ولهذا سنورد رأيه دون الالتفات إلى آراء الآخرين.

2- أسباب الشك :

يرتاب الدكتور أحمد هيكل ومن حذا حذوه في نسبة الخطبة إلى فاتح الأندلس، ويرون أن نسبتها إليه يحف بها كثير من الشك، وذلك لعدة أسباب منها :

أ- أن طارق بن زياد كان بربريا مولى لموسى بن نصير، وكان أول عهده بالإسلام والعربية عام تسعة وثمانين للهجرة (89 هـ)، وهو العام الذي استولى فيه موسى بن نصير على بلاد المغرب، فلا يعقل أن يكون طارق قد اكتسب في هذه السنوات الثلاث اللسان العربي الفصيح والملكة البلاغية الرفيعة التي تؤهله لإلقاء مثل هذه الخطبة.

ب- ومن أسباب هذا الشك أنّ المصادر الأولى التي سجلت حوادث الفتح، قد خلت تماما من أيّ حديث عن هذه الخطبة، ولم يرد ذكرها إلاّ في بعض المصادر المتأخرة كثيرًا عن فترة الفتح، كنفخ الطيب للمقري.

ج- ومن أسباب الشك أيضا أسلوب الخطبة الذي لم يكن معروفا في تلك الفترة، فالسجع والمحسنات البديعية، قد عاشت في عصر متأخر كثيرًا عن أواخر القرن الأول الهجري..

د- أمّا « العربان» الذين ذكرهم طارق في خطبته « وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا»، فلم يكونوا في حقيقة الأمر، وحسب المصادر التاريخية الموثوقة «عُربانا»، بل كان معظم أفراد جيش طارق من برابرة المغرب[1].

3- بُطلان هذه الأسباب بالدليل العقلي :

يبدو في كلام الدكتور أحمد هيكل ومن سار في فلكه مبالغة واضحة، ونحن نختلف معهم فيما ذهبوا إليه، ونرد عليهم بالحجة فيما يأتي :

أ- بالنسبة إلى السبب الأول، المتعلق بكون طارق بن زياد حديث عهد بالإسلام والعربية، وأنّه لا يستطيع الخطابة بلغة هو حديث عهد بها.

يبدو أنّ الذين رأوا هذا الرأي لم يدققوا النظر في حياة الرجل الذي كان على صلة بالعروبة والإسلام منذ حداثته، فقد ذكر لهُ ابن

(1) انظر أحمد هيكل : المرجع السابق، ص : 69 وما بعدها.

عذاري أبوين في الإسلام (طارق بن زياد بن عبد الله)[1]، وأغلب الظن أنَّه ليس هو الذي أسلم أوّلاً، بل والده وجدُّه الذي يكون قد سُبيَ في إحدى حملات الفتح الأولى وأخذ إلى (مصر) أو (الشام)، وهناك في ديار الإسلام نشأ طارقُ مسلما، فأحسن العربية مع الاحتفاظ بلهجة أجداده البربرية، ثم جُنِّد بعد ذلك في إحدى حملات موسى بن نصير، وجاء مَعَهُ إلى المغرب[2].

ولهذا يكون طارق قد أجاد العربية في المشرق، وبلغ من الفصاحة والبلاغة درجة عالية جعلته ينظم الشعر ويلقي الخطب. وإذن فطارق ليس حديث عهد بالإسلام والعربية، ولا بد أنّ نعيد النظر في هذه المسألة.

ب- وأمّا بالنسبة إلى إهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة، وظهورها في كُتُبِ المؤرخين والأدباء المتأخرين، على حدّ زعمهم، فهذا الأمر لا ينهض دليلا على رفضها، لا سيما ونحن نعرف أنَّ ما وصلنا مِنْ هذه المصادر قليل جدًّا، وأنَّ ما وصلنا فيها من أخبار ونصوص ليس غير جزء ضئيل مما كنّا ننتظر، وما زلنا ننتظر أنْ يصلنا يــوم يُكشَفُ النِّقابُ فيه عن تراثنا الدفين ثم إنَّ القول بإهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة قولٌ

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، ج2، ص : 5.

(2) الدكتور سهيل زكار : مائة أوائل من تراثنا ص : 170 وأنظر كتابه : تاريخ العرب والإسلام، ص : 423.

مبالغ فيه، فقد فات الدكتور أحمد هيكل والأستاذ عبد الله عنان ومن حذا حذوهما أن يطلعوا على كتُب كثيرة ألفتْ قبل « نفح الطيب » ورَدَتْ فيها هذه الخطبة بنصوص متشابهة حينا، ومختلفة حينا آخر[1]، وهي :

1- تاريخ عبد الملك بن حبيب[2] المتوفى سنة 238 هـ.

2- الإمامة والسياسة لابن قتيبة[3]، المتوفى سنة 276 هـ.

3- سراج الملوك للطرطوشي[4]، المتوفى سنة 520 هـ.

4- ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب لأبي محمد عبد الله المواعيني الإشبيلي[5]، عاش في عصر الموحدين.

5- وفيات الأعيان لابن خلكان[6]، المتوفى سنة 681 هـ.

(1) الدكتور عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص : 58-59.

(2) نشر قسما من الكتاب الدكتور محمود مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد تحت عنوان : مصر واصول كتابة التاريخ العربي الإسباني، سنة 1957، العدد : 5، ص : 221 وما بعدها. وانظر الدكتور عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الاندلسي، ص: 95.

(3) انظر : الإمامة والسياسة، ج2، ص: 106-107، طبعة موفم للنشر، الجزائر، 1998.

(4) انظر سراج الملوك، ص : 154، نقلا عن الدكتور عباس الجراري : المرجع السابق، ص : 61.

(5) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم : 2647 نقلا عن الدكتور عباس الجراري : المرجع السابق، ص : 61.

(6) انظر وفيات الأعيان، مج5، ص : 321 – 322، دار الثقافة، بيروت.

6- تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل[1]، عاش في القرن الثامن الهجري.

7- أمّا صاحب نفح الطيب[2]، فقد توفي سنة 1041 هـ.

وإذن، فقد وردت هذه الخطبة المنسوبة إلى طارق في مصادر قديمة، مشرقية ومغربية، دون أن يتفطّن إليها هؤلاء الشاكون، ولم يكن صاحب نفح الطيب أوّل من أوردها، على حدّ زعمهم. ونعتقد أنّ هذا الوهم ناتج عن عدم التمحيص والتدقيق أثناء الدراسة، والاكتفاء بنقل الأحكام الجاهزة دون التأكد من صحتها أو خطئها، ودون إجهاد النفس بالعودة إلى المصادر القديمة للتوثق من صحة تلك الأحكام.

ج- أمّا بالنسبة لأسلوب الخطبة الذي لم يكن معروفا في تلك الفترة، فالسجع والمحسنات البديعية، قد عاشت في عصر متأخر عن أواخر القرن الأول الهجري على حدّ رأيهم.

لقد أشرنا إلى هذه المسألة عند حديثنا عن الأسلوب، وبيّنا بطلان هذا الزعم، فأسلوب الخطبة هو أسلوب الخطابة في ذلك العصر، بشكل عام، يمتاز بالقوة والجزالة، وهو فوق ذلك بعيد عن

---

(1) انظر : تحفة الأنفس (لوحة 48 مخطوط رقم 1652 الأسكوريال) اقتبسه محمد عبد الله عنان في كتابه دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص : 46-47.

(2) انظر نفح الطيب، مج1، ص : 240 - 241.

المحسنات البديعية الممقوتة، ما عدا الفقرة الشاذة التي يغري فيها طارق جنوده بفتيات الأندلس. فهي ليست من إنشاء طارق، وإنما أضافها بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين لتشويه التاريخ الإسلامي المجيد بجوانبه المتعددة، فالجيوش الإسلامية لم تكن تغزو من أجل الغنائم وإنما كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولذا، فلا يمكن أنْ نظنّ - كما ظنّ هؤلاء الشاكون - لأنّ هذه الفقرة وسائر فقرات الخطبة أجزاء من عمل أدبي واحد، فالفارق واضح في الأسلوب، وفي المعاني، وفي مخالفتها لحقائق تاريخية أحيانا، كإقحام كلمة « اليونان » في الفقرة المضافة...

د- أمّـــا الرد الرابع، فيتعلّقُ بكلمة (عربان)، فقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عزبان : جمع عزب)، وعلى هذا الوجه ينتفي الشك الذي استندوا إليه، لأنّ معظم أفراد جَيْشِه الذي جهّزبه حملته كان من برابرة المغرب[1].

4- المثبتون للخطبة :

وإذا كان بعضُ الدّارسين قد شكوا في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق - كما رأينا - انطلاقا من حجج نراها واهية، وفندناها، فإنّ هناك باحثين آخرين ردّوا على من شك في صحتها،

---

(1) د. أحمد بسام الساعي : المرجع السابق.

وتصدّوا لإثبات صحتها ونسبتها، ومن هؤلاء الدارسين أستاذنا الدكتور عبد السلام الهراس الذي « أورد نصوص خطبة طارق من المصادر المختلفة التي أحصاها، وهي: نص ابن خلكان – نص الإمامة والسياسة – نص تحفة الأنفس لابن هذيل – نص ريحانة الألباب للمواعيني – نص عبد الملك بن حبيب – نص الطرطوشي – نص نفح الطيب وهو المعروف المتداول، وقارن بينها، واستخلص منها ثلاث صور للنص مختلفة بعض الاختلاف ولا سيما في الصياغة هي :

أ- نص الإمامة والسياسة.

ب- نص ابن خلكان ونفح الطيب.

ج- نص ابن هذيل، وهو يجمع بين النصين السابقين.

وتوصل من خلال دراسته لهذه النصوص إلى إثبات صحتها»[1]. كما أثبتها الأستاذ عبد الله كنون[2]، والعلامة شكيب أرسلان[3]، والأستاذان : محمد الطيب وإبراهيم يوسف[4]، والدكتور

(1) د. أحمد بسام الساعي : المرجع السابق.

(2) د. علي لغزيوي : المرجع السابق، ص : 414-415.

(3) انظر النبوغ المغربي، ج1، ص : 29، وانظر مقالته : حول خطبة طارق في مجلة دعوة الحق، العدد : 6-7 السنة 11.

(4) انظر كتابهما : تاريخ الأدب والنصوص الأدبية ص : 172.

علي لغزيوي[1] والدكتور عباس الجراري الذي تناول نص الخطبة على أساس أنّها من الأدب المغربي « وأورد نصوصها من المصادر السابقة، وانتهى إلى إثباتها مع الإشارة إلى بعض الشك حولها بسبب اختلاف النصوص، ولكنّه يرجّح أنّها ليست من إنشاء طارق، وإنما كتبت له ليلقيها في الجيش »[2]وقد تناول السمات الفنية للخطابة في هذا العصر، فوازن بين خطب الأمويين بالمشرق وخطبة طارق من الناحية الفنية، وتوصل إلى النتائج نفسها المشار إليها آنفا[3].

5- فذلكة :

وعلى الرغم من إشادة معظم الروايات العربية الإسلامية بهذه الخطبة، وتنويهها بما كان لها من أثر في إذكاء شجاعة الجند، وتمتين الثقة بأنفسهم لتحقيق الانتصار والظفر بفتح هذه البلاد ونشر الإسلام في ربوعها، فإنّ بعض الدارسين ارتابوا في نسبتها إلى فاتح الأندلس، وقدّموا حججا واهية. وقد تبين من خلال هذا العرض بطلان تلك الحجج والآراء التي تشكك في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق، وتبين أيضا أنّ هذا الشك جاء أوّلا من

(1) انظر كتابه : أدب السياسة والحرب، ص : 414.

(2) انظر بحث الدكتور عباس الجراري عن : نشأة الأدب العربي في المغرب، ظروفها ومظاهرها، مجلة المناهل المغربية، العدد :2، ص: 111-119، اقتبسه الدكتور علي لغزيوي في كتابه : أدب السياسة والحرب، ص : 415.

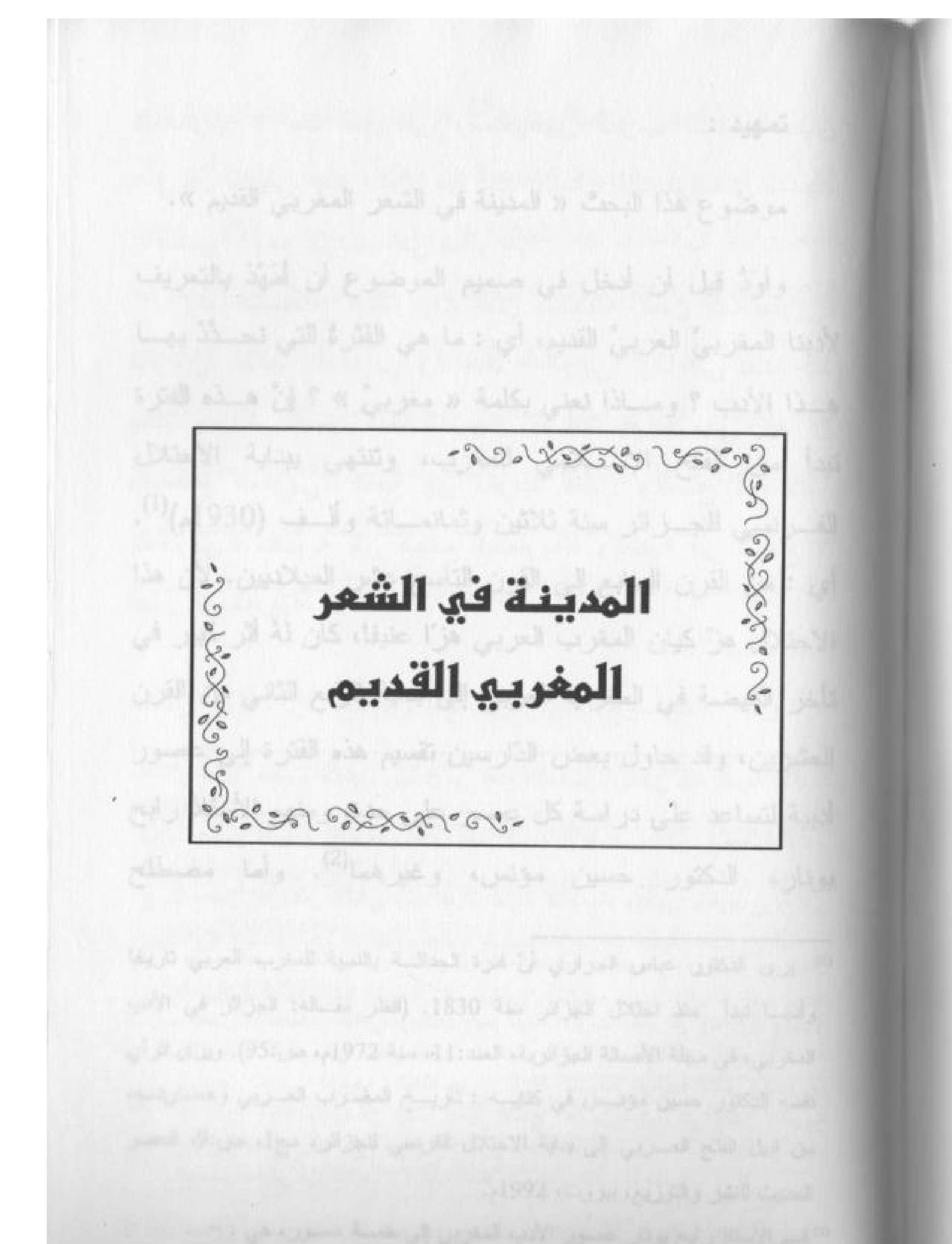
(3) انظر كتابه : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص : 53 وما بعدها.

بعض المستشرقين الذين يشك في نياتِهم، وقد كشفتُ عن بعض ما يرمي إليه الشك، والهدف الذي يسعى إليه « الاستشراق » و« التبشير » و« الاستعمار » من بث مثل هذه الأفكار السامة. وأخوَفُ ما يُخَافُ أن يأتي يومٌ يشك فيه في الفتح، وفي الوجود العربي الإسلامي الذي دام ثمانية قرون بالأندلس، وأنْ تُصبحَ شخصيةُ طارق أسطورة، وعبورُهُ العظيم للبحر، وانتصاره على ملوك الأندلس وفتحه الطريق للمسلمين نحو قلب أوربة أسطورة...لهذا كله، نحن لا نشكُّ في صحة الخطبة ونسبتها إلى طارق، ولا في حادثة إحراق السفن، وإن شك فيهما كثير من الناس، ونرى أنَّ نسبة الخطبة إليه ثابتة، وإن كان اختلاف النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد في أنَّ الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة حتى انتهت إلى الشكل الذي هي عليه الآن، بل الراجح أنَّ طارقا لا بد أنْ يكون قد خطب في جنوده خطبة أثارت حماسهم، هي أروع مما سجّله الرواة، خطبة تنبع من قلب قائد عظيم يقاتل في سبيل الله.

ولكننا نظنّ أنّه ألقاها بأسلوب مبسط، مع ترجمة إلى اللهجة القبائلية (كما يفعل بعض الخطباء اليوم)، لأنّها وجهت إلى جنود معظمهم من البربر، لم تكن لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوى

عال مما عليه الخطبة فهم حديثو العهد بالإسلام والعربية، ولا سيما أنَّ العربية هي أبطأ في الانتشار من الإسلام[1].

[1] انظر الدكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين، ص : 78. ود.سوادي عبد محمد : المرجع السابق، ص : 86.



و« التبشير » و« الاستعمار » من بث مثل هذه الأفكار السامة، وأخوف ما نخافه أن يأتي يومٌ يشك فيه في الفتح، وفي الوجود العربي الإسلامي الذي دام ثمانية قرون بالأندلس، وأن تصبح شخصية طارق أسطورة، وعبوره العظيم للبحر، وانتصاره على ملوك الأندلس وفتحه الطريق المسلمين نحو قلب أوربة أسطورة... لهذا كله، نحن لا نشكُّ في صحة الخطبة ونسبتها إلى طارق، ولا في حادثة إحراق السفن، وإن شك فيهما كثير من الناس، ونرى أنَّ نسبة الخطبة إليه ثابتة، وإن كان اختلاف النصوص في المصادر القديمة يدعو إلى الاعتقاد في أنَّ الخطبة قد أدخلت عليها تعديلات وإضافات من قبل الأجيال اللاحقة حتى انتهت إلى الشكل الذي هي عليه الآن، بل الراجح أنَّ طارقًا لا بد أن يكون قد خطب في جنوده خطبة أثارت حماسهم، هي أروع مما سجله الرواة، خطبة تنبع من قلب قائد عظيم يقاتل في سبيل الله.

ولكننا نظنّ أنه ألقاها بأسلوب مبسط، مع ترجمة إلى اللهجة القبائلية (كما يفعل بعض الخطباء اليوم)، لأنها وجهت إلى جنود معظمهم من البربر، لم تكن لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوى

تمهيد :

موضوع هذا البحث « المدينة في الشعر المغربي القديم ».

وأوَدُّ قبل أن أدخل في صميم الموضوع أن أمَهِّدَ بالتعريف لأدبنا المغربيِّ العربيِّ القديم، أي : ما هي الفترةُ التي نحـددُ بهـا هـذا الأدب ؟ ومـاذا نعني بكلمة « مغربيٍّ » ؟ إنَّ هـذه الفترة تبدأ من الفتح الإسـلامي للمغرب، وتنتهي ببداية الاحتلال الفـرنسي للجـزائر سنة ثلاثين وثمانمـائة وألـف (1930م)[1]. أي : من القرن السابع إلى القرن التّاسع عشر الميلاديين. لأن هذا الاحتلال هزّ كيان المغرب العربي هزّا عنيفا، كان لهُ أثر كبير في تأخر النهضة في المغرب العربي إلى بداية الرّبع الثاني من القرن العشرين، وقد حاول بعض الدّارسين تقسيم هذه الفترة إلى عصور أدبية لتساعد على دراسة كل عصر على حدة، ومنهم الأستاذ رابح بونار، الدكتور حسين مؤنس، وغيرهما[2]. وأما مصطلح

---

[1] يرى الدكتور عباس الجراري أنّ فترة الحداثـة بالنسبة للمغرب العربي تاريخا وأدبـا تبدأ منذ احتلال الجزائر سنة 1830. (انظر مقـاله: الجزائر في الأدب المغربي، في مجلة الأصالة الجزائرية، العدد:11، سنة 1972م، ص:95). ويرى الرأي نفسه الدكتور حسين مؤنـس في كتابـه : تاريـخ المغـرب العـربي وحضارتـه، من قبيل الفتح العـربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، مج1، ص:9، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1992م.

[2] قسم الأستاذ رابح بونار عصور الأدب المغربي إلى خمسة عصور، هي : =

« مغرب » عند المؤرخين والجغرافيين العرب القدماء، فيطلق على كلِّ ما يلي مصرَ غَرْبًا من بلاد الشمال الإفريقي حتى المحيط الأطلسي[1] وهو ما نعنيه في بحثنا هذا.

وأمَّا مصطلح «مغاربي» الذي يستعمله بعض المعاصرين، فيقولون: الأدب المغاربي والاتحاد المغاربي، وما إلى ذلك. فقد بحثْتُ عنه في معاجم اللغة العربية، ولم أجد جوابًا، وفي رأينا أنَّ مصطلح «مغربي» نسبة إلى مغرب أفضل وأفصح لأنَّ كلمة «مغاربي» منسوبة إلى الجمع «مغاربة» والنسبة إلى الجمع لا تجوز في العربية.

= أ ــ عصر النشوء الثقافي، ويبتدئ من الفتح الإسلامي، وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (184/50هـ)

ب ــ عصر النهضة الثقافية، ويبتدئ بقيام الدولة الأغلبية، وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث الهجري (184 / 296 هـ)

ج ــ عصر الازدهار الثقافي ويبدأ بقيام الدولة الفاطمية، وينتهي بسقوط دولة بني زيري (547/296 هـ).

د ــ عصر النضج الثقافي، ويبدأ بقيام دولة الموحدين، وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر(958/547هـ)

هـ ــ عصر الانحطاط الثقافي، ويبتدئ بقيام دولة الأتراك بالجزائر وتونس، وينتهي بالانبعاث الثقافي في مطلع القرن العشرين (915 / 1320هـ).(أنظر كتابه : المغرب العربي، تاريخه وثقافته ص : 8–9، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م. وانظر أيضا تقسيم الدكتور حسين مؤنس في كتابه : تاريخ المغرب وحضارته، مج1، ص: 12 وما بعدها. وتقسيم محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي في كتابهما : الأدب المغربي، ص: 30 وما بعدها...).

[1] أنظر حسين مؤنس : المرجع السابق، مج1، ص : 17.

وإذا كُنَّا في دراسة سابقة[1] قد تناولنا العلاقة القائمة بين الشاعر المغربيِّ والمدينة المغربية في نطاق خاص. فإننا في هذه السطورنَوَدُّ أنْ نتناول هذه العلاقة في نطاقٍ أوسع، سواء في بُعْدِها المكاني الذي لا يتقيَّدُ بمدينة معينة دون غيرها من مُدُنِ المغرب العربي، أو في بُعْدِها الزّماني الذي ينظر إلى النصوص المجَسَّدَةِ لهذه العلاقة في مراحل زمانية متعددةٍ، محاولين تقديم بعض النماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي القديم، تحت رؤيةِ توزع هذه النماذج بحسب المواقف والمجالات التي سبحت فيها وطرحُ بعض الملاحظات التي يسوقُ إليها تأمُّلُ هذه النماذج واستنطاقها[2].

وهذا الموضوع هام، وواسع، ويصلح أن يكون رسالة ماجستير أو دكتوراه دولة إن وجد فارسا من فرسان البيان يَتَولَّى أمرَه ويَسْبُرُ غوْرَه، فيبحث عن النصوص في مصادرها الأولى المخطوطة والمطبوعة، فيجمعها ويدرسها، وبالتالي يبرز ما يمكن أن تكون مصطبغة به من سمات وخصائص، وما يمكن أن تكون مطبوعة به من خصوصيات تعكس قيمة هذا اللون من الشعر القديم

[1] الدراسة بعنوان « بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم» محاضرة شارك بها الباحث في الملتقى الدولي « بنو هلال – سيرتهم وتاريخهم – » المقام بالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالجزائر من 20 إلى 23 ماي 1990 م.

[2] الدكتور عبد الجواد السقاط : نماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي، مجلة دعوة الحق المغربية، عدد : 307، رجب 1415 هـ، دجمبر 1994م، ص : 113.

بالمغرب العربي، وتبلور اتجاهاته على امتداد العُصور، وتَلاحُق الأجيال. وهو، على كُلِّ حــال، مشروعُ بحثْ أو أمنية من أمــاني الغــوالي التي عشتُ بها زمنــا طــويلا، كنتُ حريصًا على أنْ أحَقّقَها بنفسي أو أنْ تُحققها لي نفس أعزُّ علي من نفسي. وها هو ذا بعض الأمل يتحقق اليوم بهذه البداية المتواضعة التي قد تكون اللبنة الأولى لهذا المشروع الكبير.

ولعلَّ ما يبْعثُ على التساؤل في بداية الأمر البحث عن المفهوم الذي يُمكن إعطاؤه للمدينة كفضاء بالنسبة إلى شعراء المغرب العربي القُدامى، إذ الذي يَميلُ إليه الاعتقاد لديهم – وهم يتحدثون عن هذه المدينة أو تلك – أنَّهُم إنَّمَا يَقصِدُونَ المدينة باعتبارها مقرًا لمجموعة بشرية ما، تربط بينَ عناصرها علاقات شتى، منها العائليُّ والعملي والدِّينيُّ والاجتماعيّ والاقتصادي، كما تربط هؤلاء بهذا المقر السُّكني علاقةُ الانتماء أو الإعجاب أو الشوق أو الكُره أحيانًا أو غير هذا وذاك من الأحاسيس والمشاعر المختلفة التي تنتابُ الإنسان إيجابًا أوْ سلبًا[1].

هذا عن مفهوم فضاء المدينة كمصطلح، أمَّا المدينة لغة فهي مُجتَمعُ بيوت يَزيدُ عَدَدُها عن بيوت القرية، أو هي المِصْرُ الجامعُ وتجمعُ على مدائن أو مُدُن أوْ مُدْن.

(1) الدكتور عبد الجواد السقاط : المرجع السابق، ص : 114.

وانطلاقا من هذا المفهوم لفضاء المدينة بالنسبة إلى شعراء المغرب العربي القدماء، نجد معظم ما أبدعوه في هذا المضمار يَعتَمِدُ المسلك الوصفي المُباشر، ويتوسّلُ بإبداء عواطف الحبِّ والإعجاب، أو الكره والتذمُّر، فكلُّ واحدٍ منَّا أحب مدينة أو مدينتين أو ثلاثا أو أربعا، كما علَّقَ امرأة أو امرأتين أو ثلاثا أو أكثر من ذلك. وكذلك الشعراء الذين طالما مزجوا بين حُبِّ المدينة وحُبِّ المرأة، فالمدينة امرأة أيضا، وهي في اللغة « مؤنثة». وقد تكون هذه المرأة أمًا أو أختا أو حبيبة، أو غير ذلك. وقد تعامل الشاعرُ مع المدينة، سواء أكانت مسقط رأسه أمْ لم تكن، وسواء أكانت كورةً استوطنها –مؤقتا – للتعليم أو العمل، أو زارها أو سمع عنها، ولكن مسقط الرأس يبقى اجمل مكانٍ في الدنيا عند مُعْظم الناس. وقد صدق الشاعرُ حين قال :

نقلْ فُؤَادَكَ حيثُ شِئتَ منَ الهَوى ... ما الحبُ إلاّ لِلْحَبيب الأوّل

كَمْ منزلٍ في الأرْض يألفُه الفَتَى ... و حَنينُهُ أبدًا لأوّل مَنْزِل

ولا أوَدُّ أنْ استرسل في هذا المنحى، إذ لستُ اقصدُ إلى دراسة المدينة كفضاء أو كمصطلح، وإنما الذي يهمُّني هنا هو كيف تنعكس صورة المدينة لدى الشاعر المغربي القديم وما يكتسيه شعرُ المدينة عنده من قيم بارزة ومتعددة من أهمها تلك القيمة التاريخية التي تجعل من هذا الشعر وثيقة هامة تعكس واقعَ تلك القيمة

التاريخية التي تجعل من هذا الشعر وثيقة هـــامة تعكسُ واقع المغرب العربي على مستويات شتّى، وتُسعفُ باستخلاص مجموعةٍ من التصورات حول مجالات منه مختلفة سواء أتعلّقَ الأمرُ بالجانب الجغرافي أم التاريخي أم الاجتماعي أم غير ذلك[1].

نماذج من شعر المدينة في الأدب المغربي القديم :

ولعلّ أولَ ما يَلفتُ الانتباه – حين نعود إلى النُّصوص – أنّ شعر المدينة في الأدب المغربي القديم يكتسي قيمة تاريخية تجعل منه وثيقة هامة تعكس واقع المغرب العربي في مرحلة ما. من ذلك ما نجده في منظومة الشاعر أحمد بن قاسم البوني[2] الموسومة بـ «الدرة المصُونَة في علماء وصُلحاء بونة[3]»[4]، وهي في ألف

[1] المرجع السابق، والصفحة نفسها، وقد استعنا به في التقديم لبعض المقطعات المتعلقة بمدائن المغرب الأقصى.

[2] هو أحمد بنُ قاسم بن محمد المعروف بابن ساسي البوني، المتوفى سنة 1139هـ، وُهو صاحب الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، وله غيرُها من التآليف ما ينيف عن المائة ما بين مختصر ومُسهب حسب ما ذكره الرحالة عبد الرحمن الجامعي في رحلته «التاج المشرق الجامع ليواقيت المغرب والمشرق» نقلا عن الأستاذ المهدي البوعبدلي في بحثه الموسوم بـ « لمحات من تاريخ بونة الثقافي والساسي ودور بعض علمائها عبر التاريخ» مداخلة منشورة في أعمال ملتقى الفكر الإسلامي بعنابة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، مج1، ص: 53، وانظر أيضا الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص: 376 وما بعدها، موفم للنشر الجزائر 1991م.

[3] بونة : هي مدينة (عنابة) الحالية، تقع في الشرق الجزائري على الساحل، أسسها الفينيقيون، ثم استولى عليها ملوك البربر، أي : ملوك نوميديا، وكانت تسمى هيبو ثم استحال اسمها إلى هيبون. فتحها المسلمون حوالي 78 هـ (انظر عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع، ج1، ص: 232، مطبعة الحلبي، القـاهرة 1954م، والحموي : معجم البلدان، مج1، ص : 512، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1984م. والمهدى البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 46 – 47).

[4] نُشرت بتمامها في الجزائر سنة 1331هـ/1913م. (انظر البوعبدلي: المرجع السابق، ص:53).

بيت، وقد اختصرها من منظومته الكبرى المحتوية على ثلاثة آلاف بيت، ثم شرحها، وكان شرحُها مُتداولاً إلى عهد قريب ولكن مصيره الآن مجهول كمصير كثير من كتب التراث التي ضاعت « بين جامد وجاحد»[1].

ذكر أحمد بن قاسم البوني في دُرّته هذه، تراجم علماء بونة، فبدأ بأساتذته وأقاربه، من سكان المدينة، ثم علماء القرى المجاورة، والعلماء الواردين على بونة، سواء أكانوا عابري سبيل، أم مقيمين من مختلف جهات القطر، وقد استفاد من تأليف علي فضلون البوني، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، وقد ضاع تأليفُ علي فضلون الذي استوعبه تأليف أحمد بن قاسم المذكور (الدرة المصونة...) وقد انتهى أحمد بن قاسم من تأليفه أواخر القرن الحادي عشر، وفي ذلك يقول : « في عام تسعين وألف نظمتُ، وآن أن أدعو لما تَمّمْتُ»[2] وقد اشترط في مترجميه العلم مع الاستقامة والصلاح، يقول :

بِشَرْطِ إنْ كانوا للعلم دَرَسوا أوْ لِصَلاحٍ نُسِبوا ما انْدرسُوا

ويبدو أنَ أحد طلاّبه هو الذي طلب منه ذلك، كما ذكر، وكان على أهبة السّفر، فاستعجله، فقال :

[1] المهدي البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 54.

[2] البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 54.

طالبَهَا مُسافِرٌ و ذُو عَجَل   زوَّدتُه بها و إنّي في خَجَل

وفيها يقول :

لِذَاكَ رامَ مِنّي بعضُ الأذكياء   تَوَسُّلاً بِذِكرِ بَعضِ الأَزكياء

فجئتُهُ « بِدُرَّةٍ مَصــونَهْ »   ذَكَــرْتُ فِيهَا أَولِياءَ بُونَهْ

لكن بِلا طــولٍ وَ لا تاريخ   لضيق نظمِي بهم صَرِيخي

وبعد ذلك يُشير إلى أنّ مترجَميه، الذين عاشوا قبل القرن التاسع، مذكورون في تأليف علي فضلون، يقول :

حَوَاهُم جَمْعُ « علي فضلوني »   لأخرِ التَّاســعِ مِنْ قُرون

ثــم اتيت بالَّذيــنَ بَعْــدَهُ   أرجُو بهم تَفريجَ كُلِّ كُرْبَهْ

مِن عاشِرِ القُرونِ والحادِي عَشَرْ   وفي البِلادِ ذِكْرُهُم قدِ انتَشرْ

وبعد نهاية الشاعر من ذكر مترجَميه من علماء بونة، يختمُ القصيدة بالموازنة بينهم وبين معاصريه، فيقول :

والآن يَلْحَنون فوقَ المنبرْ   لا يقبَلُونَ النَّصْحَ مِنْ بَرِي

وكُتِبَ الجَهلُ على جِباهِهِمْ   اليَومَ يُختَمُ على أفواهِهِمْ

ليتَ الجُدودَ نظروا إليهِمْ   و لَوْ رَأَوْهُم لَبَكوا عَلَيهِمْ[1]

من خلال هذه الموازنة نستشفُ أنَّ بونة في القرن الحادي عشر الهجري عَرَفَت انحطاطا لا نظير له. ولكنّها في الوقت نفسه

(1) البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 54 وما بعدها.

كانت مقرًا لمحمد « بكداش»[1] وهو أحد الأتراك الذين أقاموا بها وتزوجوا فيها وأخذوا عن أساتذتها، منهم أحمد بن قاسم، ووالدُه، فارتقى ذلك التركي، وعُيِّنَ باشا الجزائر، فكان وفيًّا لبونة ولأساتذته بها. وهو الذي فتح وهران سنة 1120هـ ، بعد احتلالها من قبل الأسبان مدة ستٍّ ومائتي سنة[2]، وقد ذكر ذلك أحمد بن قاسم في منظومته حين قال :

وفُتحتْ على يديهِ وهرانُ   فكَمُلَ المَجدُ له و البرهان

ثم كاتبه بهذه الأرجوزة مهنّئًا إياه بفتح وهران، ولافتًا نظره إلى حال مدينة بونة، فقال :

يا حَاكِــمَ الجَزَائِــرِ   يــا أُنْسَ نَفْسِ الزَّائِــرِ

أُرِيــدُ أنْ أُخبِرَكُمْ   أدَامَ رَبِّــي نَصْرَكُــمْ

بِحَــالِ هَذي القَرْيَةِ[3]   بــالصِّدْقِ لاَ بالفِرْيــةِ

قدْ صَالَ فِيهَا الظَّالِمُ   وهَــانَ فيهَــا العالِــمُ

خُــرِّبَــتِ المساجِــدُ   وقــلَّ فــيها السَّاجِــدُ

حُبُسُهَا قَــدْ أُسرِفَــا   نَــاظِرُهُ فــأَشْرَفَــا

وأُهْمِلَتْ أسْعَارُهَــا   وبُــدِّلَتْ شِــعَــارُهَــا

(1) بكداش : كلمة تركية معناها الحجر الصلب (أنظر محمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص : 112، «هامش4»).

(2) البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 55.

(3) يريد بـ « القرية» مدينة بونة التي ينسب إليها.

والشَّرْعُ فيها بـــاطِلٌ　　　والظلـــمُ فـيها هَاطِـلُ

والخوفُ فـي سُبُلِهـا　　　والقحـطُ فـي سُنْبُلِهـا

وكَــمْ من القــبَائح　　　وكَـمْ مـنَ الفضائِـح

يَضيقُ عَنهـا النَّظمُ　　　وَ خـارَ مِنْهَـا العَـظـمُ

تبكـي عليهـا بالـدم　　　قدْ قـرُبَتْ مِـنْ عَـدمِ

واللهُ قـدْ وَلاَّكُـمُ　　　حُـكمًا وقـدْ عَلاكُـمُ

فداركُـوا الإسْلامَـا　　　ونـوّرُوا الظَّـلامَـا[1]

كانت هذه لمحات من تاريخ مدينة بونة من خلال منظومة « الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة»، لصاحبها أحمد البوني وكذلك الأرجوزة التي أبدع فيها وأوجز.

أما المنظومة الشعرية فهي مّما يذكر لقيمتها التاريخية الهامة فقد عكست واقع بونة على مستويات شتى، ولكنها ركيكة الأسلوب، ولغتُها قلقِة مضطربَة وقد اعتورتُها العِلّةُ من جوانب مختلفة كشعر العلماء وبعض الفقهاء الذين يتعاطونَ النظمَ، وليس لهم من الأدبِ حظ ولا نصيب، فيتكلفون ما ليس من سجيتهم فيأتي نظمهم باردًا سخيفا. أما الأرجوزة فقيلت بأسلوب سهل سلس، وبلغة رقيقة عذبة في مجملها. أمّا الشاعر أبو العباس أحمد السجستاني[2]. فينظر على

---

[1] محمد بن ميمون الجزائري : المصدر السابق، ص : 129 – 130.

[2] من شعراء الجزائر في القرنين التاسع والعاشر الهجريّين، كان حيّا سنة 915 هـ.

مدينة وهران وهي مغتصبة، تتطلع إلى الخلاص والانعتاق من قبضة الاحتلال الإسباني فينطلق لسانه بهذه القصيدة متوجها إلى الوُلاَةِ والرؤساء وزعماء القبائل يلتمسُ منهم تحريرَ مدينة وهران من هذا الاحتلال الغاشم، ويلقي باللائمة والخزي على بعض الخونة من بني عامر وغيرهم من الذين ساندوا الأسبان، فيقول :

فمَنْ مُبَلِّغ عَنّي قـبائِلَ عـامر　　　ولا سيَّمَا مَنْ قدْ ثوى تَحْتَ كَافِرِ

وجيرانُهُم في الغرْبِ منْ كلّ ماجِدٍ　　　طويل القنَا أهـلِ الوفَا والمُغافِرِ

ويا مَعْشَرَ الإسْلامِ في كُلِّ مَوْطِن　　　وفي كُلِّ نـادٍ سـالفٍ ومُعاصِرِ

ويا سادةَ العُربانِ من آل هاشِمِ　　　وغـيرِهِم باللهِ ما صبرُ صابِرِ؟!

يا معشرَ الأتـراكِ يا كلَّ عـالم　　　وكـلَّ وليّ حـافظٍ للأوامـر

أناشِدُكُم باللهِ ما عُـذْرُ جمعِكُمْ　　　لدَى اللهِ في وَهرانَ أمْرِ الخنازِرِ[1]

وتتكرر هذه الصرخة أيضًا عند الشاعر أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن[2]، في قصيدته التي يحرّض فيها الداي حسن[3]، على

---

[1] انظر بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان كبني عامر لعبد القادر المشرقي، ط.الجزائر،1924م. أقتبسه الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه : تاريخ الجزائر العام، ج2، ص : 199، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

[2] من شعراء عصر الأتراك بالجزائر، توفي سنة 1101 هـ.

[3] الداي بابا حسن، حكم بين سنتي : 1092 – 1094 هـ.

تحرير مدينة وهران وتخليصها من براثن الاستعمار الإسباني، فيقول :

نادتك وَهْرانُ قَـلْبَ نِـــــدَاءَها ... وانْزِلْ بها لا تَقصِدَنَّ سِوَاهَــا

واحْلُلْ بِهَا تِيكَ الأَبَاطِحَ وَالرُّبَا ... واستَصْرِخَنَّ دَفِينَهَا الأوَّاهَــا[1]

واستَدْعِ طائِفَةَ العساكرِ نَحْوَهَــا ... يغْزُونَهَــا ولِيَنزِلُــوا بِفِنَاهَــا

صَرَخَتْ بدَعْوَتِكَ العَلِيَّةِ فاستَجِبْ ... لِنِدَائِهَــا ولتُكْمِلَنَّ مُنَاهَـــا

وادْعُ الغُزاةَ لِغَـزْوِهَا مُستَنْجِدًا ... وانْهَضْ إليْهَا وانزِلَنْ مَرْسَاهَا

فالآنَ آنَ الفَـتْحِ إذ ظَهَرتْ بِهَا ... آثَـــارُ تُنبي أنـــهُ وَافَــاهَــا

ويختم القصيدة بقوله :

لا زِلْتَ منصورَ اللّواءِ مُؤيّدًا ... تَحْمِي بِعَوْنِ اللهِ سُنَّةَ طاهَا[2]

صَلّى عَلَيْهِ وسلّمَ اللهُ الذِي ... أحْيَ القُلوبَ بِبعثِهِ وشَفَاهَا[3]

ويكاد يسير في هذا الاتجاه شاعر آخر من شعراء العصر العلوي[4] بالمغرب الأقصى، وهو عبد السلام جسوس الذي كتب

---

[1] الأواه : كثيرُ التَّــأوّه – خوفا من الله – والمراد بالأوّاه هنا سيدي محمد الهواري دفين وهران، والمتوفى سنة 843 هـ.

[2] طه : مرخم من طاهر، وهو الرسول (ص)

[3] محمد بن ميمون الجزائري : المصدر السابق، ص : 301 وما بعدها وانظر القصيدة كاملة هناك.

[4] العصر العلوي بالمغرب الأقصى يبدأ سنة 1050 هـ. ويستمر إلى يومنا هذا. ويقسم بعض الدارسين عصور الأدب بالمغرب الأقصى إلى ما يأتي :
1- عصر الفتوح وما بعده (62 – 463 هـ) =

قصيدة شعرية يناشد فيها المولى إسماعيل ملك المغرب (1084 – 1139 هـ) تحرير مدينة سبتة وبادس والبريجة من الاحتلال البرتغالي، فيقول :

رفعتْ منازلُ سبتة أصواتَها ... تَشكو إليكم بالذي قدْ هالَهَا

مَعَ بادسَ وبَريجة فتَعَطَفُوا ... وتنبهُوا كي تَسْمَعُوا تَسْآلَهَا

يا ابنَ النبيِّ الهاشِمِيِّ مُحمدٍ ... قلْ يا أميرَ المؤمنين أنا لَهَا[1]

وتارة نجد هذه المدينة، وقد أجيب نداؤها وسُمع استصراخُها، فهبَّ الشعب لتحريرها، وقد بدأ الفتح الأول لجوانبها على غرارما وصلنا من شعر عبد الرحمن بن موسى[2] مهنئا منوّهًا باسترجاع الباشا حسين لحصن المرسى الأعلى[3] بوهران من قبضة الاحتلال الإسباني، وهروبِ النصارى إلى الحصنِ الأسفل، فقال :

= 2 ــ عصر المرابطين (463 – 543 هـ)
3 ــ عصر الموحدين (524 – 667 هـ)
4 ــ عصر المرينيين (688 – 869 هـ)
5 ــ عصر السعديين (915 – 1069 هـ)
6 ــ عصر العلويين (1050 هـ – ...)
(أنظر تاريخ الأدب والنُّصوص لمحمد الطيب وآخرين، ص : 490).

[1] المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف، لعبد الرحم بن زيدان العلوي، ص : 943. (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج : 595).

[2] من شعراء عصر الأتراك بالجزائر، ولد في حدود 929 هـ، وتوفى سنة 1011هـ.

[3] من شعراء الدولة الزيانية بالجزائر، وُلد بتلمسان سنة 650 هـ وتوفى بغرناطة سنة 708هـ.

هنيئًا لكمْ بَاشَا الجَزَائِر والغَرْبِ   بفتح أساسِ الكُفرِ مَرْسَى قُرَى الكَلْبِ
ستَفتحُ وَهْرانًا ومَرسَاتَها التي   أضرّتْ بذَا الإقــليمِ طَــرًا بِلاَرَيْبِ
فأبقاكَ ربّي فَــاتحًا لِحُصونِهمْ   وكَهفًا مَنيعًا ذَا عُــلومٍ وذَا صَــوْبِ
ونوّرَ قَــلبًا مِنْكَ بالعِلْمِ والتُّقى   وأعطاكَ مَا تَهْوَى مِنَ النَّصرِ والحُبِّ[1]

ويبدو من خلال النُّصوص التي أبدعها شعراء المغرب العربي القدامى في هذا المجال، أنَّ المدينة كانت كيانا داخل الشاعر، ولا سيما مسقطُ رأسهِ فهو يمدحها، ويُمعنُ في تصويرها ليبرزَ محاسنَها وفضائلَها، ويتشوقُ إليها ويحنُّ إلى رؤياهــا إن كان يعيش خارجها، وقــد تغنى ابن خميس التلمساني[2] بتلمسان[3] البهية وهو في دار غربته بالأندلس، فتذكر تلك الربوع الجميلة التي قضى فيها طفولته، فتشوق إليها، وتحسر على فراقها، فقال :

سَلِ الرّيحَ إنْ لم تُسْعِدِ السُّفنَ أنواءُ   فَعِندَ صَبَاها من تلمسان أنباءُ
وَفي خَفقانِ البَرْقِ مِنْها إشَــارةٌ   إليْكَ بِمَا تَنْمي إليْكَ وإيمــاءُ

[1] دخل المسلمون هذا الحصن ليلة السبت خمسة عشر من رمضان عام سبعة وألف للهجرة (1007هـ) (محمد بن ميمون الجزائري : المصدر السابق، ص :279).
[2] محمد بن ميمون : المصدر السابق، ص : 278 – 279، وأنظر القصيدة كاملة هناك.
[3] تلمسان : بلغة البربر كلمة مركبة من (تلم) ومعناها : تجمع، و(سان) ومعناها : اثنان، أي : الصّحراء والتل. وصفها الإدريسي، فقال هي مدينة أزلية ولها سور حصين الوثاق، وهي مدينتان في واحدة، يفصل بينهما سور، وإحدى المدينتين بناها المرابطون، وهي : تاقرارت. (أنظر يحي بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص : 85، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م والإدريسي : وصف تلمسان عن نزهة المشتاق، ص : 54. نقلا عن عنوان الدراية للغبريني (تحقيق رابح بونار). ص : 60).

وإنّي لأصبُو للصبَا كلّمَــا سَــرَتْ   وللنَّجمِ مَهْمَا كانَ للنَّجمِ إصبَاءُ
وأهْــدِي إليهَا كُــلَّ يَــومٍ تَحــيةً   وفي رَدِّ إهدَاءِ التَّحيةِ إهْدَاءُ
لعَــلَّ خيالاً مِنْ لدنْهَا يَمُرُّ بِي فَفِي   مُرُّهِ بي من جَوى الشَّوْقِ إبراءُ
وإنّي لمُشْــتاقٌ إليْهــا ومُنبِىءٌ   ببعْضِ اشتياقِي لوْ تَمكنَ إنبَاءُ[1]

ففي هذه الأبيات تُمثّل تلمسان المرأة الجميلة الفاتنة المحبوبة التي تمكن حبُّها من الشاعر، فحن إليها وتشوّقَ إلى رؤياها، ولولا ذكر اسم المدينة في مطلع القصيدة لاعتقدنا أنّ الشاعر يناجي حبيبة لا مدينة.

وابن خميس الشاعر الصوفي التلمساني دائم الحنين إلى مدينته تلمسان يصفها وصفا جميلا، وينوه بمفاتن الطبيعة، مبديا حسرته على فراقها، يقول :

تلمسانُ، جادتْكَ السّحابُ الروائحُ   وأرسَتْ بواديكَ الريَــاحُ اللواقــحُ
وسَحّ على ساحاتِ بَــابِ جيادِها   مُلِثٌ يُصَــافي تُربهــا ويُصافــحُ[2]
يَطيرُ فُــؤادي كــلّمَا لاحَ لامِــعٌ   وينهلُّ دَمْــعي كلّمَا نَــاحَ صَــادحُ
لسَاقيةِ الــرُّومي عــنْدي مَزِيةٌ   وإنْ رَغِمتْ تِلكَ الرَوَاسي الرَواشح
فكَمْ لي عَليهَا من غُدوٍّ ورَوحــةٍ   تُساعِدُني فِيهَا المُــنَى والمَنائحُ[3]
فُطرفٌ عَلَى تلكَ البسَاتينِ سَارحٌ   وطرفٌ إلى تلك الميَــادين جَــامِحُ

[1] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص 184، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
[2] باب الجياد : أحد أبواب تلمسان وهو باقي إلى يوم الناس هذا.
[3] لعله يريد هنا الإبل.

ظباءٌ مَغانيها عَـواطٍ عَـواطِفٌ   وطيرُ مجـانيها شَوادٍ صـوادحُ

على قـرْيةِ العُـبَّادِ مِـنّي تحية   كَمَا فاحَ من مِسكِ اللطيمةِ فائحُ[1]

ولعل في هذا الوصف للطبيعة الحية والطبيعة الصامتة دليلا على ما تحتوي تلمسان من أماكن جميلة تلهب قرائح الشعراء وتجعلهم يتغنون بجمال هذه الطبيعة الساحرة في عفوية وصدق، كما فعل ابن خميس الذي انتقل بعد هذا الوصف الشيق إلى وصف شلال الوربط[2]. الشهير بغدرانه التي ينصبُ بعضُها في بعض وبحدائقه الزاهية بعناصرها المختلفة، مياها، وخضرة، ومناخا، وما إلى ذلك من الروافد التي يستعذبُها الشاعرُ، يقول :

نسيتُ وَمَا أنسَى الوَربط ووقفة   أنـافِحُ فـيهَا رَوْضَـهُ وأفَـاوحُ

مُطِلاً عَلَى ذَاكَ الغدير وقَدْ بَـدَتْ   لإنسان عَيْني من صَفَاهُ صَفائِـحُ

أَمَاؤكَ أمْ دَمْعِي عشية صدَّقتْ   عُلَيَّةَ فينا ما يَقُـولُ المكاشِـحُ ؟

لئِنْ كُنْتَ مَلآنًا بِدَمْـعِي طافحًا   فـإنَّي سكـرانٌ بِحُـبِّـكَ طافِحُ

وإنْ كانَ مُهْري في تلاعك سابحًا   فذاكَ غزالي في عُبابك سابحُ قُراحُ

أنَى ينصبُ مِـن رَأسِ شاهقٍ   بِمثل حُـلاهُ تَسْتَحِثُ القَـرائـحُ

وأصْفَى مِنَ الدَّمْعِ الذي أنا سَافحٌ[3]   أَرَقُّ من الشَّوق الـذي أنا كَـاتِمُ

---

[1] يحي ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص: 86. ومحمد الطمار: المرجع السابق، ص : 188 – 189.

[2] الوربط : شلال أوشلالات، وهو منتزه أهل تلمسان، والكلمة قديمة لعلها من الدخيل.

[3] يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص : 86 – 87.

أما في عصر أبي حمو الثاني فقد اشتهر من الشعراء، في تلمسان أبو عبد الله ابن يوسف القيسي الثغري[1] وأبو عبد الله بن جمعة التلاليسي[2]، وأبو زكرياء يحي بن خلدون[3]، وكلهم نوهوا بمدينة تلمسان، معجبين بمفاتن الطبيعة فيها على غرار ابن خميس.

فهذا الشاعر أبو عبد الله القيسي يُعربُ عن افتتانه بمدينة تلمسان، فيقول :

تاهتْ تِلِمسانُ بِحُسْنِ شبابها   وبَدا طِرازُ الحُسْنِ في جلبَابِهَا

قدْ قابلتْ زَهْرَ النُّجوم بزَهْرِها   وبُروجَهَا بِبُروجِهَا وقِـبَابِهَا[4]

وكان القيسي الثغري من شعراء الأمير أبي حمّو الثاني، وقد تغنّى بجمال تلمسان في قصائده التي مدح بها أميره أبا حمّو، يقول في إحداها:

سُلطانُهَا المَوْلَى أبُو حَمُّو الرِّضَى   ذو المَنْصبِ السّامِي الرَّفِيعِ المعْتَلِي

تاهَـتْ تِلِمسانُ بدَولته عَلَـى   كُلَّ البِلادِ بِحُـسْنِ مَنْظرِهَا الجَلِي

راقَـتْ محاسِنُها وَرَقَّ نَسيمُهَا   فَحَلا بهَا شِعْري وَطَـابَ تَغَزُّلي

عَـرّجْ بِمُنْعَرجَاتِ بَابِ جيادِهَا   وافـتَحْ بِهِ بَـابَ الرجَـاءِ المُقْفَلِ[5]

---

[1] من شعراء الدولة الزيانية في الجزائر، عاش في القرن الثامن الهجري.

[2] أحد أطباء تلمسان وشعرائها في القرن الثامن الهجري، كان حيًا سنة 767 هـ.

[3] من شعراء العصر الزياني في الجزائر، كان شاعرًا وكاتبا، تولى الكتابة للأمير أبي حمّو الثاني بتلمسان، ومن أجله ألف كتابه (بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد)، قتل في رمضان سنة 780هـ.

[4] يحي بن خلدون : المصدر السابق، ج1، ص : 88.

[5] المقرى : نفح الطيب، ج1، ص : 332. وانظر القصيدة كاملة هناك.

لقد جمعت تلمسان بين سحر الطبيعة والتاريخ والمعمار، فكانت بمثابة المصباح الذي تتحلقُ حوله فراشاتُ الشعر والإبداع. ولكنّنا نجد أنفسنا مرغمين على توديع تلمسان وشعـــرائها لأنّ لنا شأنًا مع مـــدائن أخرى وشعـــراء آخرين كـــان لهم مثل أصحـــابهم ولـــوع بمـــدُنهم. ومن هـــؤلاء الشعـــراء مـــالك بن المرحل[1] الذي تغنى بجمـــال مدينة سبتة فقال :

أخطُرْ إلى سَبْتَةَ وانظر إلى ... جمَالِـــهَا تُصبُ إلى حُسْنِهِ
كـــأنَّهَا عودُ غِـــناءٍ وقَـــدْ ... أُلْقِي في البَحْرِ على بطنِهِ[2]

أمّا أبو علي الحسين بن الفكُّون القسنطيني[3] فيناجي مدينة الناصرية[4] (بجاية)، ويُعلي مكانتها فوق بغداد والشام مستعذبًا فتنة الطبيعة فيها، ومُضفيًا عليها صبغة الفردوس، لِمَا يجمع بينهما من عناصر التشابه، فيقول :

[1] من شعراء العصر المريني بالمغرب الأقصى، توفي عام 699 هـ.
[2] أحمد القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، القسم الأول، ص : 328، دار المنصور للطباعة، الرباط، 73 – 1974م.
[3] من شعراء الجزائر في عصر الدولة الموحدية (524 – 688 هـ). لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ مولده ولا وفاته، ولعل وفاته كانت في القرن السابع الهجري، لأنّ الغبريني ذكره مع شعراء المائة السابعة في كتابه : عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
[4] الناصرة : اسم بجاية، وقد نُسبت إلى بانيها الناصر بن علناس سنة 460 هـ، بعد أنْ كانت قرية صغيرة، قبل ذلك.

دَع العِـــراقَ وبَغْـــدادَ و شامَهُـــمَا ... فالنّاصِريّةُ مَـــا إنْ مِثْلَهَـــا بلَـــدُ
بَرٌ وبَحْـــرٌ ومَـــوْجٌ للعُـــيون بِـــهِ ... مَسَارحٌ بانَ عـــنْهَا الهَمُّ والنكَـــدُ
حيثُ الهَوَى والهَوَاءُ الطلقُ مُجْتَمعٌ ... حَيْثُ الغِنَى والمُنَى والعيشَةُ الرَغَدُ
والنّهْرُ كالصِّـــلّ والجَنّاتُ مُشْرِقَـــةٌ ... والنّهْرُ والبَحْرُ كَالمِـــرآةِ وهوَيَـــدُ
فحيثُمَا نظرتَ راقَـــتْ كلُّ نَـــواحِي الدّار للفِكْرِ للأبْصـــارَ تَتّقِـــدُ
يا طالبًا وَصْـــفَهَا إنْ كُنْتَ ذا نَصَفٍ ... قُلْ جَنّةُ الخُلدِ فيهَا الأهْلُ والوَلَدُ[1]

ولشاعرنا (الحسين بن الفكون) قصيدة مشهورة نظمها في رحلته من قسنطينة إلى مَراكُش ضَمنها وصف المدائن التي رآها في طريقِهِ، وهي : ميلة، وبجاية، والجزائر ومليانة، وتنس، ومازونة، ووهران وتلمسان، ووجدة، والرباط، وفاس، ومكناس، وسلا، ومراكش. وهي قصيدة طويلة نحتزئ منها قوله :

فلمّا جِئتُ « ميلة» خَيْرَ دارٍ ... أمَالتني بِكُـــلِّ رشَـــا أبِـــيّ[2]
وفي أرْض الجَزائر هـــامَ قَلْبي ... بِمَعْسُول المـــراشِفِ كَوثَرِيّ[3]
وَأطلعَ قُطرُ «فاس» لي شموسًا ... مَغَارِبُهُنّ في قَـــلْبِ الشجيّ
وَفي « مَرّاكش» يَـــاوَيْحَ قَلبي ... أتَى الوَادي فطمَّ عَلَى القرِيّ[4]
بدُورٌ بَلْ شُموسٌ بَـــلْ صَبَـــاحٌ ... بَهيٌّ في بَـــهِيٌّ في بَـــهِيّ[5]

[1] الغُبريني : المصدر السابق، ص : 280 – 281.
[2] رشا : خُففت همزته، وهو الغزال.
[3] كوثري : منسوب إلى الكوثر، وهو وادٍ في الجنة.
[4] طمَّ الماء : غمر وكثر. الطّم : الماء. والقريُّ : مسيلُ الماء من الربوة إلى الروضة.
[5] العبدري: الرحلة المغربية، ص:30 وما بعدها، الرباط، 1968م. وانظر القصيدة كاملة هناك.

وشعرهُ، في مُجمله، جميلُ الصياغة، عذبُ الألفاظ سلسُ الأسلوب، حسن الديباجة.

ويبدو من خلال النُّصوص التي بين أيدينا أنَّ شعر المدينة في الأدب المغربي القديم « يعكسُ بين الحين والحين ما كان يُخامرُ بعض الشعراء من مفاضلة بين مدينة وأخرى، وإن كانت مفاضلة ترتبط في الغالب بعنصر الانتماء للمدينة المفضلة، وكونها موطن أسرة الشاعر وعشيرته»[1].

كما هو الحال عند الشاعر الجزائري ابن الفكون القسنطيني السالف الذكر الذي فضل مدينة الناصرية (بجاية) على بغداد . كما نقرأ من شعر أبي الربيع سليمان الموحدي[2] وهو يفضل مدينة مراكش على غيرها من سائر المدن ويخاطب دارا له قائلا :

رَعَــاكِ اللهُ يَـــا دارَ الكِـــرَام ... وجَادَكِ بِالحَيا صَوْبُ الغَــمَام

ومَتَّعَ فِــيكِ أعْــوامًا طِــوالاً ... عَـــلى نِعَمٍ وخَيْرٍ مُسْتَــدام

أرَى مَرَاكشَ الحَـــسْنَاء تَزْهَى ... وحُقَّ لَهَـــا عَـــلى دار السلام

كَأنَّ الأرضَ شَخْصٌ وَهيَ وَجْهٌ ... وأنتِ بِوَجْهِهَا وَضَحُ ابْتِسَام[3]

---

(1) الدكتور عبد الجواد السقاط : المرجع السابق، ص : 117.

(2) من شعراء الدولة الموحدية، توفى سنة 604 هـــ.

(3) محمد بن تاويت : الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج1، ص : 237، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1982م.

وعلى غراره ينوهُ الشاعر أبو عبد الله المغيسي بمفاتن الطبيعة في مدينة فاس، مشتاقا إليها ومفضلا إياها على مدينة حمص، ومبديا حسرته على فراقها حين ولي القضاء بمدينة أزمور، فقال :

يَا فَاسُ حَيَّا اللهُ أرضَكِ من ثَرَى ... وسقاكِ من صَوْبِ الغَمَام المُسبل

يا جنة الدنيا التي أربـــت على ... حِمْصٍ لِمَنظرهَا البَهِيّ الأجْـمل

غُرَفٌ عَلى غُرَفٍ ويَجْرِي تَحتّها ... ماءٌ ألَــذُّ مِــنَ الرَّحِيق السَّلْسَل

وحَدَائِقٌ مِنْ سُنْدُسٍ قَدْ زُخْرِفَتْ ... بِجَــدَاوِلٍ كالأيْمِ أو كالقَــيْصَل[1]

لقد عرف شعراء المغرب العربي المدينة، وألفوها وعاشوا حياتها خيرا أو شرا ،فكتبوا فيها وعنها مدحا أو هجاء، إلا أن هجاء هم نادر جدا، وغالبا ما يكون لجو مدينة ما، أو لحال طبيعتها ومناخها ان كان خبيثا،من ذلك هذه الأبيات التي قالها بكر بن حماد[2] في وصف جو تيهرت[3] شتاء:

ما أخْشَنَ البَــرْدَ ورَيعانَهُ ... وأطْــرفَ الشَّمْسَ بتاهــرت[4]

تَبْدُو مِنَ الغَيْمِ إذَا مَا بَدَت ... كأنَّـــهَا تُنْشَــرُ مِنْ تَخْــتِ[5]

---

(1) الشيخ محمد السنونسي : المصدر السابق، ص : 99. وفيه أشعار كثيرة قيلت في السيف الذي بصومعة القرويين بمدينة فاس. وخصص ابن الأحمر كذلك بابًا في كتابه (نثير الجمان) لِمَا قيل من الشعر في السيف الذي بصومعة القرويين من مدينة فاس.

(2) هو بكر بن حمّاد (أبو عبد الرحمن). وُلد بمدينة تيهرت حوالي سنة 200 هـ. وتوفي بها عام 296 هـ وهو شاعر المغرب العربي في عصره.

(3) عاصمة الدولة الرستمية بالجزائر. وقد كان تأسيسها بين عامي : 144 – 148 هـ.

(4) وأطرف الشمس أي : حر شعاعها ضعيفٌ، يقال : تطرفتِ الشمس، إذا أبدت للغروب.

(5) التَّخْتُ : لفظة فارسية، معناها : السرير وهي هنا بمعنى الفراش.

نَحْنُ في بَحْــرٍ بلألَجَّــةٍ   تَجْري بِنَا الرِّيحُ عَلَى السَمْتِ[1]

نَفْرَحُ بِالشَمْسِ إذا مَا بَدَتْ   كفَـرحَةَ الـذِّمـيّ بالسّبْتِ[2]

ويحذو الشاعر عبد الرحمن بن الخطيب الشفشاوني[3] حذوه، فيهجو مدينة مراكش، ويعرض بما يشوب طقسها من عجاج بين الحين والحين، وهو يخاطب جماعة من أصدقائه بها، فيقول:

مَا كَانَ ظَنّي وَحَقَّ الله فُرقتَكُمْ   لو أن مَرَاكشًا كانت تواتيني

أظَلُّ في نَصَبٍ مِمَا أكابدُ مِنْ   نَفْضِ الغُبار ومِنْ طَردِ الذبابين

وطول ليلي في كد وفي تعب   مَا بَيْنَ بَقٍّ وناموسٍ يناغيني

إلى أن يقول:

مَنّوا عَلَيَّ بإطـلاقي بفَـضْـلِكُمْ   هذا العَجَاجُ بِهَا قَدْ كَادَ يُعميني

لمْ يَبْقَ في الكِيس فلسٌ أستَعِينُ بِهِ   أفنيتُ مَالي في غَسْلٍ وتَصْبين[4]

وقد يمزج الشاعر في مقطعة واحدة بين المدح والهجاء، أو بين الإعجاب والتذمر، فيفاضل بين مدينتين فيمدح إحداهما ويهجو الأخرى، وغالبا ما تكون المدينة المفضلة مسقط رأسه أو موطن أسرته وعشيرته، أما الوجه المشين في المدينة المهجوة، فكثيرا ما

---

[1] اللجة: السفينة، والسمت: الطريق والمعنى : نحن في بحر هادئ ساكن ليس فيه صخب الأمواج المتلاطمة، أي : أنه يشبه الثلج الكثير المتراكم بالبحر حال هدوئه. وأنّ الريح تدفعنا نحو الثلج وجهته.

[2] الدُّر الوقاد من شعر بكر بن حماد (جمع وشرح) (محمد بن رمضان شاوش)، ص : 61، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، 1966م. والذمي : هو كل كتابي أعطى الذمة، أي : الأمان في مقابل الجزية التي يدفعها للمسلمين. والمراد هنا اليهودي، لأن اليهود هم الذين يفرحون بيوم السبت.

[3] من شعراء العصر السعدي بالمغرب الأقصى توفى سنة 993 هـ.

[4] أحمد القاضي : المصدر السابق، القسم الثاني، ص : 413.

يكون بسبب الطقس والمناخ، أو بسبب علة الشاعر فيها، أو غير ذلك. ويتضح ذلك من خلال قصيدة أبدعها الشاعر سعيد بن واشكل التيهرتي[1]. في علته التي مات منها بتنس، وفيها يحن إلى مدينة تيهرت ويهجو مدينة تنس دار النحوس كما يقول:

نَأى النَومُ عَنّي واضمَحَلتْ عُرَى الصّبْرِ
وأصبحْتُ عن دار الأحِبةِ في أسْرْ

وأصْبحتُ عَــنْ تِيهَرتَ في دار مغزلٍ
وأسلمَني مَــدُّ القضاءِ مِنَ القَــدرْ

إلى تنسَ دَار النُّحــوس فإنَّــهــا
يســاقُ إليها كــل منتقص العُمُرْ

بــلادٌ بهَــا البَرغُــوثُ يَحْمِلُ راجِــلاً
ويأوي إليها الذيب في زُمَرِ الحَشَر[2]

ولم يقف شعر المدينة في الأدب المغربي القديم عند هذا الحَدّ، وإنّما تناول جوانب أخرى – لا يتسع المجال هنا لذكرها جميعا – كالجانب العمراني والحضاري وما إلى ذلك[3]، كما تناول بكــاء المُدُن عند حدوث الفتن والحروب[4].

---

[1] من شعراء عصر الدولة الرستمية بالجزائر، عاش في القرن الثالث هـ.

[2] موسى لقبال وآخرون : الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ص : 119، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984م.

[3] أنظر الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات، ج7، ص : 14 و ج8، ص : 113. وانظر أيضا الدكتور عبد الجواد السقاط : المرجع السابق، ص : 122 وما بعدها. والشيخ السنوني : المصدر السابق، ص : 99 وما بعدها.

[4] أنظر بحثنا (بكاء القيروان في الشعر المغربي القديم مداخلة شارك بها الباحث في الملتقى الدولي – بنو هلال سيرتهم وتاريخهم – المقام بالمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالجزائر من 20 إلى 23 ماي 1990م. والمنشور في كتابنا : النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، ص : 29 وما بعدها مطبعة ابن بوالعيد، الجزائر، 1994م).

خلاصة :

هذه، إذن، جملةٌ من النّصوص والنماذج – غير المستقصاة – في موقف شعراء المغرب العربي القدامى من المدينة، جمعناها من مصادر مختلفة. وإذا تأملنا هذه النماذج وجدناها تدل على القيم والمواقف والخصائص الآتية :

1–القيمة التاريخية التي تجعل من هذا الشعر وثيقة هامة تعكس واقع المغرب العربي على مستويات شتّى في مختلف المراحل، من ذلك ما نجده في « الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة» لأحمد البوني، من حقائق تاريخية هامة، ولذلك يمكن أن يستفيد المُؤرخ من الشعر، ولكن بعد التمحيص والتدقيق.

2– ما وصلنا من شعر في هذا الباب، قصائد ومقطّعات، ولم يختص أيُّ شاعر بهذا اللّون من الشعر...

3–بالنسبة إلى طول النفس وقصره، لقد طالت بعض قصائد الشعراء كقصيدة ابن فكُّون القسنطيني في رحلته إلى مَراكُش، ولامية ابن خميس في الشوق والحنين إلى تلمسان، أمّا بقية الأشعار التي وصلت إلينا، فأغلبُها مقطعات وأبيات.

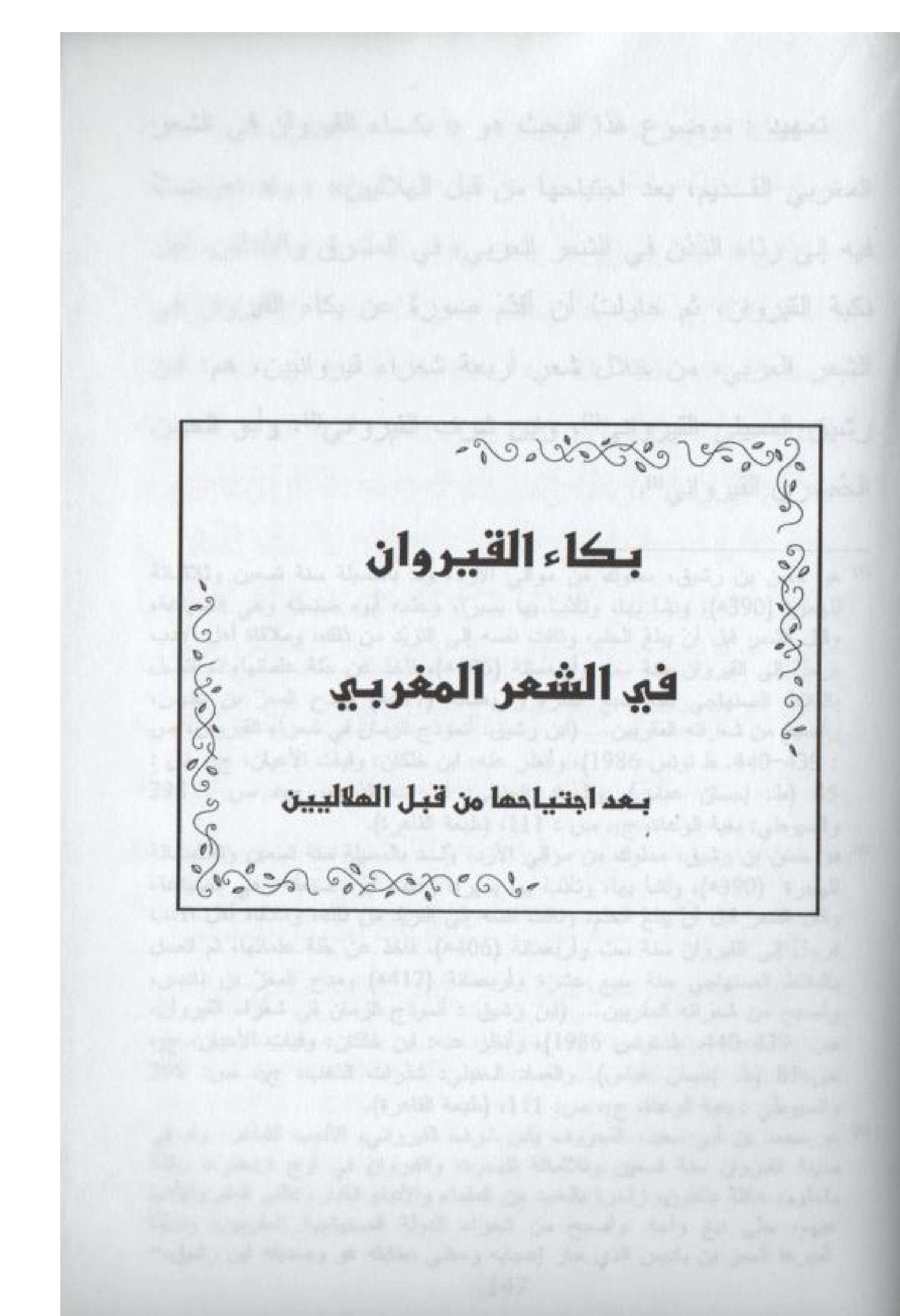
4–إنّ المدينة كانت كيانًا داخل الشاعر، فهو يمدحها ويتشوق إليها، ويَحنُّ إلى رؤياها إن كان يعيش خارجها.

5–وقد برعوا في وصف الطبيعة، فإذا هي ظل لروح الشاعر، فمزجوا حُبّهم للمدينة بحبِّهم للطبيعة.

6–كما تُمثّلُ المدينة المرأةَ الجميلة الفاتنة المحبوبة التي تَمكنَ حبُّها من الشاعر فحَنَّ إليها وتشوقَ إلى رؤياها، مثلما هو الحال عند ابن خميس التلمساني في بعض أشعاره.

7–وقد يفاضل الشاعرُ المغربي القديم بين مدينتين، فيمدح إحداهما، ويهجو الآخرى، لأسباب ذكرناها.

8– وتميّز شعرُ المدينة بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، لأنه يصدر في الغالب، إمّا عن عاطفة مكلومة كتلك التي يصدر عنها شعر بكاء المدن عند حدوث الفتن والحروب، أو عن عاطفة تتشوق إلى مواطن أهلها ومسقط رأسها.



بكاء القيروان

في الشعر المغربي

بعد اجتياحها من قبل الهلاليين

تمهيد : موضوع هذا البحث هو « بكـــاء القيروان في الشعر المغربي القـــديم، بعد اجتياحها من قبل الهلاليين» ، وقد تعرضتُ فيه إلى رثاء المُدُن في الشعر العربي، في المشرق والأندلس، قبل نكبة القيروان، ثم حاولتُ أن أقدّمَ صورةً عن بكاء القيروان في الشعر العربي، من خلال شعر أربعة شعراء قيروانيين، هم: ابن رشيق المسيلي القيرواني[1]، وابن شرف القيرواني[2]، وأبو الحسن الحُصري القيرواني[3]،

---

[1] هو حسن بن رشيق، مملوك من موالي الأزد، وُلد بالمسيلة سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة (390هـ)، ونشأ بها، وتأدّبَ بها يسيرًا، وعلمه أبوه صنعتَه وهي الصياغة، وقال الشعر قبل أنْ يبلغَ الحلم، وتاقت نفسه إلى التزيّد من ذلك، وملاقاة أهل الأدب فرحلَ إلى القيروان سنة ست وأربعمائة (406هـ)، فأخذ عن جُلة علمائها، ثم اتصل بالبلاط الصنهاجي سنة سبع عشرة وأربعمائة (417هـ) ومدح المعزّ بن باديس، وأصبح من شعرائه المقربين... (ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص : 439–440. ط تونس 1986)، وأنظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص : 85 (ط. إحسان عباس). والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص : 298 والسيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص : 111، (طبعة القاهرة).

[2] هو حسن بن رشيق، مملوك من موالي الأزد، وُلـــد بالمسيلة سنة تسعين وثلاثمـــائة للهجرة (390هـ)، ونشأ بها، وتأدّبَ بها يسيرًا، وعلمه أبوه صنعتَه وهي الصياغة، وقال الشعر قبل أنْ يبلغَ الحلم، وتاقت نفسه إلى التزيّد من ذلك، وملاقاة أهل الأدب فرحلَ إلى القيروان سنة ست وأربعمائة (406هـ)، فأخذ عن جُلة علمائها، ثم اتصل بالبلاط الصنهاجي سنة سبع عشرة وأربعمائة (417هـ) ومدح المعزّ بن باديس، وأصبح من شعرائه المقربين... (ابن رشيق : أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص: 439–440. ط تونس 1986)، وأنظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج2، ص:85 (ط. إحسان عباس). والعماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص: 298 والسيوطي : بغية الوعاة، ج1، ص: 111، (طبعة القاهرة).

[3] هو محمد بن أبي سعيد، المعروف بابن شرف القيرواني، الأديب الشاعر، ولد في مدينة القيروان سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة، والقيروان في أوج ازدهارها رافلةً بالعلوم، حافلة بالفنون، زاخرة بالعديد من العلماء والأدباء الكبار، فتلقى العلم والأدب عنهم، حتّى نبغ وأجاد وأصبح من شعراء الدولة الصنهاجية المقربين، ونديمًا أميرها المعز بن باديس الذي حاز إعجابه وحظي بعنايته هو وصديقه ابن رشيق،=



وعبد الكريم بن فضـــال القـــيروانـــي[1]، كما تناولتُ الخصائص العامة في شعرهم.

1- لمحة عن بكاءِ المُدن في الشعر العربي قبل نكبة القيروان:

أ- في المشرق : بكاءُ المدن في الشعر، هو بابٌ من الرثاء، عرفهُ شعراء المشرق، إلاّ أنهم لم يبلغوا فيه شأن المغاربة والأندلسيين، الذين كانوا فيه أكثر روعة ولعل ذلك يعودُ لكوْن خراب المدائن، وزوال الدّول تباعًا، إنما وقعَ بكثرة في المغرب العربي، ولا سيما في الأندلس، فقد أحزنهم أن يَرَوْا مُدُنَهُم تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي الغزاة المكتسحين، فبكَوْها بقصائد ومقطعات، خلّدَها لنا التاريخ في مصادره المختلفة، وأوّلُ ما وصلنا من الشعر المشرقي في بكاء المدن، هذه المقطوعة للشاعر عَمْرو بن عبد الملك الوراق الذي بكى فيها بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون سنة سبع وتسعين ومائةٍ للهجرة (197هـ-812م)، حين حـــاصرها طاهر بنُ الحُسَيْن قائد جيش المأمون، ودام الحصـــارُ سنة واشـــتـــد البـــلاءُ

=حيث كان المعزّ يثير بينهما عوامل المنافسة والتحدي، وبقي ابن شرف في هذا الجو الأدبي الخصب حتى غادرها إلى الأندلس التي توفى بها عام ستين وأربعمائة للهجرة (ديوان ابن شرف، ص : 19 وما بعدها) وانظر عنه: ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص : 571 ط مكتبة الثقافة 1975م. وياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج19، ص: 37، (ط. القاهرة 1936).

[1] هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني، عاش في القرن الخامس الهجري، وشهد نكبة القيروان سنة 449 هـ ورثاها كبقية شعراء عصره... (انظر عنه : الخريدة للأصفهاني – قسم شعراء المغرب والأندلس- ج2، ص: 188. وديوان الحصري القيرواني (أبو الحسن). ص: 38).

وعظُمَ الخطبُ[1]، وكثُر الحريقُ والهـدمُ ببغـداد، ودُرِسـتْ محـاسنُها فاستحـالتْ إلى أطـلال، وتنقلَ الناسُ من مكـان إلى مكان هربًا من الجحيم[2] ونَظر الشعراءُ إلى مدينتهم الجميلة – بغدادَ – فرَأوْا ما نزلَ بها من صُنوفِ التدمير والتخريب، فندَبُوها بشعرهِمْ، وممّن بكَاها عَمْرو بن عبد الملك الوراقُ، إذْ ردّ ما أصابَها إلى العَيْن فقال :

مَن ذا أصابكِ يا بغـدادُ بالعـيْن ... ألمْ تكـوني زمانًا قـُرة العَيْنِ؟
ألمْ يكنْ فيكِ قوْمٌ كـانَ قـُربُهُـمُ ... وكان مسكنُهم زيْنًا منَ الزّيْنِ؟
صَاحَ الغُرابُ بهم بالبَيْن فافترقُوا ... ماذا لقيْتِ بهمْ مِنْ لوْعةِ البَيْنِ؟
أستَوْدِعُ الله قوْمـًا ما ذكَـرتُهُمُ ... إلاّ تَحـدّرَ ماءُ الدّمْعِ من عيْني
كَانُوا ففرّقَهُمْ دَهـرٌ وصدّعَهـُمْ ... والدّهرُ يُصَدّعُ ما بينَ الفريقيْنِ[3]

وفي وقعةِ شارع دار الرّقيق العظيمة التي هلكَ فيها خَلقٌ كثيرٌ، يقول أحدُ الشعراء، يَبكي بغدادَ وأهلَهَا:

بكَتْ عَيني على بَغْدَادَ لمَّا ... فقدتْ غضَارةَ العَيْش الأنيق
أصابَتْنا مِنَ الحـسّادِ عَيْنٌ ... فأفـنَتْ أهْلَـهَا بالمَنْجَنيـق
فقوْمٌ أحْرَقُـوا بالنّار قسْرًا ... ونائِــحة تنوحُ على غَريــق

[1] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج1، ص: 347 وأنظر ما بعدها، وانظر أيضا : المسعودي مروج الذهب، ج3، ص: 511 وما بعدها (ط. الجزائر).

[2] المسعودي : المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[3] المسعودي : المصدر السابق، ص: 511-512، وردت الأبيات دون ذكر قائلها، ووجدت اسم الشاعر في كتاب الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية ص:255 لكنه لم يذكر المصدر الذي استقى منه المعلومة.

وصائِحة تُنادي: يَا صَحَابي ... وقائلة تُنــادي : يا شقيــقي

إلى أنْ يقول:

فلاَ ولَــدٌ يُقيمُ على أبيــه ... وقد هَرَبَ الصّديقُ عَن الصّديق[1]

وفي بكاء بغداد أيضا، قال الشاعر الخُرَيْميُّ بن حَسّان الفارسي قصيدةً طويلة « وصف فيها ما حلَّ ببغدادَ في نَبْرةٍ آسيةٍ، ولوْعةٍ صادقةٍ، صوَّرَ خِلالها الفِتنة تصويرًا دَقيقا مُسْهِبًا، حتّى لَتَبْدُو أمَامَ العَيْن، حينَ قِرَاءتِها، صُوَرَ التّخْريبِ والدّمار والقتْل والذُّعْر يَتَغَشّى الناس في الطرقات»[2]، ومطلعها :

يَا بُؤْسَ بَغْدَادَ دارَ مَمْلَكةٍ ... دارتْ علَى أهْلِها دَوَائرُها[3]

وفي خمسٍ وخمسين ومائتين للهجرة (255هـ) اقتحم الزّنجُ مدينة البصرة، وأشعلوا نارَ الحَرْب فيها، وهَزَمُوا جُيُوشَ الخليفةِ، واستباحوا البصرةَ وغَيْرَهَا[4]، واستمرت مقاومتُهم للدولة العباسية بقيادة علي بن محمد مدة أربعةَ عشرَ عامًا، هدّدوا خِلالها كيانَ الدّولة العباسية، ودَمّرُوا البصرةَ عن آخرها، وقد بكاها ابن الرومي

(1) المسعودي : المصدر السابق، ص: 513-514.
(2) الدكتور الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية ص:255-226.
(3) ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ص: 586 (ط. دار إحياء العلوم، بيروت). وانظر أيضا الجاحظ : الحيوان، ج3، ص: 224 و 354. (تحقيق عبد السلام هارون).
(4) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج2، ص:129.
وانظر أيضا : المسعودي : مروج الذهب، ج4، ص:236- 237 و242 وما بعدها.

(221-283هـ)[1] بقصيدة وصفَ فيها غلبة الزّنج عليها، واعتِدَاءَهُم على الأموال والحُرُمَاتِ والأعراض، منها قوله :

أيُّ نَوْمٍ مِنْ بَعْدِ ما حَلَّ بالبصرةِ ... مَــا حَلّ مِنْ هَنَــاتٍ عِـظام

أيُّ نَــوْمٍ مِنْ بَعْد مَا انْتَهــكَ ... الزّنْجُ جِهَارًا مَحــارمَ الإسْلامِ

كَمْ أخٍ قدْ رأى أخَــاهُ صَرِيعًا ... تَربَ الخَدِّ بين صَرْعَى كِرَام[2]

ويبدو أنّ المشارقة لم يهتموا بهذا الفــن اهتمام المغاربة والأندلسيين، ولذلك لم يظهر هذا اللّونُ من الشّعر في أدبهم، كما ظهر في الأدب الأندلسي غرضًا قائما بذاته.[3]

ب – في الأندلس : يقول الدكتور أحمد المكي: « فبكاءُ الممالكِ المنهارةِ والمُدُنِ الذاهبة، فنٌّ أندلسيٌّ أصيلٌ فيما أرى، وُجِدَتْ دَوافعه في المشرق والمغرب على السواء، وخصّ الأندلس ببعضها، وتفرّد بأنّه جرى مع هذه الدوافعِ إلى غايتها، فكان له معها قصيدٌ رائع أحيانا، ودون الجيّد أحيانا أخرى، تبعا لثقافة الشّاعر وطاقاته النّفسية، وحظه مِنْ تجارب عصره عُمْقا واتساعًا....»[4]

(1) ابن الرومي : الديوان، ج2، ص: 419 (تحقيق : الدكتور حسين نصار).
(2) المصدر السابق، والصفحة نفسها.
(3) الدكتور عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص:320.
(4) الدكتور الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية، ص: 229.

وكانت الفتنة في قرطبة[1] سببا في بداية انتشار شعر بكاء المدن في الأندلس، إذ نظر الشعراء إلى عاصمتهم حينئذ – قرطبة – فوجدوا معالمها قد دمّرت، ودورها قد خرّبتْ ونُهبت، فندبوها بمراثيهم، وممّن بكاها ابن حزم (384–456) الذي كان قد غادرها والتجأ إلى المرية خوفا على نفسه، لكنّه ظلّ يتمنى أن تكون له قبرًا، فقال:

فيا دار لم يقفرك منّا اختيارنا ... ولو أنّنا نستطيع كنت لنا قبرًا

ولكن أقدارا من الله أُنْفِذَتْ ... تدمّرنا طوعا لما حلّ أو قهرا[2]

وبكاها ابن شُهَيْد أيضا فقال :

فلِمِثْلِ قُرْطُبةٍ يقِلُّ بكـــاءُ مَنْ ... يَبْكِي بِعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَفَجِّرُ

دارٌ أقالَ الله عَثْـــرَةَ أهْلِـــهَا ... فَتَبَرْبَرُوا وَتَغَرَّبُوا وتَمَصّرُوا

في كُلّ ناحيةٍ فريقٌ منْهُـــم ... مُتَفَـــطِّـرٌ لِفِراقِـــهَا مُتَحَيِّرُ[3]

وبكاها آخر بقصيدةٍ منها:

ابكِ على قرطبـــةَ الزّيـــن ... فقد دَهَتْـــهَا نظرةُ العَـــيْن

كانت على الغاية من حسنها ... وعيشها المستعـــذب اللّين

[1] أنظر عن الفتنة : ابن عذاري : البيان المغرب، ج3، ص:42 وما بعدها (تـ: ليفي بروفنسال. و: ج.س.كولان).

[2] ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ونشر باسم تاريخ إسبانيا الإسلامية ص: 107، وأنظر القصيدة كاملة هناك (107–108) تحقيق : ليفي بروفنسال. ط2، 1956. نقلا عن الدكتور الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص: 240.

[3] ابن الخطيب : المصدر السابق، ص. 105، نقلا عن الدكتور إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة– ص: 138–139.

فانعكس الأمر فما إنْ تَرَى ... بها ســرورا بــين اثنـــين

فاغدُ وودعها وسر ســالما ... إنْ كنت أزمعت على البيْن[1]

وبكاها آخرون أيضا[2]، وتوسَّعُوا في بكاء المدن والممالك الزائلة – فيما بعد– بعد أنْ رأوْا مدنهم تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي النّصارى، فبكى ابن العَسّال (عبد الله أبو محمّد) مدينة طليطلة بعد أن استولى عليها النّصارى سنة 478 هـ، وابن اللبانة دولة بني عباد، وابن عبدون دولة بني الأفطس، عندها أزالهما ابن تاشفين، وبكى ابن خفاجة مدينة بَلَنْسِيَة التي سقطت في أيدي الفرنْجَة سنة 488 هـ، كما بكى أبو البقاء الرندي الأندلس بكاملها بعد أن استردّها النّصارى، ولا يتّسع المجال هنا لذكر بعض النماذج من شعر هؤلاء، وبعد هذه النبذة عن بكاء المدن في الشعر العربي في المشرق والأندلس، نصل الآن إلى الحديث عن بكاء القيروان في الشِّعر المغربي.

2– بكاءُ القيروان في الشعر المغربي :

كانت القيروان قبل نكبتها سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة (449هـ) في أوج عظمتها، وقمة حضارتها، تزخر بالعديد من العلماء والأدباء الكبار أمثال محمد بن جعفر النحوي المعروف

[1] ابن عذاري : المصدر السابق، ص: 110.

[2] أنظر المصدر السابق، الصفحة نفسها، وأنظر أيضا : ابن بشكوال : الصلة، ج1، ص: 35، (ط. القاهرة 1955م).

بالقزّاز (412هـ) وإبراهيم الحُصْري (413هـ) صاحب زهر الآداب، و(أبو الحسن الحصري 480هـ)، وغيرهم. كما كان بلاط المعزّ بن باديس يَرفُلُ بالعلماء والأدباء، وكان من بينهم ابن رشيق (390-486 هـ) وابن شرف (390-460هـ) اللذان حازا إعجاب المعزّ بن باديس، وحظيا بعنايته، واهتمامه « وكانا مقدّمين عنده على سائر مَنْ في حضرته، يثير بينهما عوامل المنافسة والتحدي، فتنافسا وتنافرا، ثم تهاجيا»[1] ولم يتصالحا إلاّ في ديار الغربة بجزيرة صقلية، حيث فر الشاعران بعد نكبة القيروان، وعاشا معا فترة من الزمن، لكن ابن شرف غادرها إلى الأندلس التي توفي فيها سنة ستين وأربعمائة للهجرة (460 هـ)[2] بمدينة إشبيلية، وبقي ابن رشيق في صقلية حتّى وافته منيّته على أرضها سنة ستّ وخمسين وأربعمائة (456هـ)[3] في رواية، وفي رواية أخرى سنة 463هـ.

وكلا الشاعرين بكى مدينة القيروان حينما اقتحمها عرب صعيد مصر، ومن بين ما وصلنا في هذا الفن من شعر ابن رشيق

(1) ابن شرف: الديون، ص:20 (تحقيق : د. حسن ذكرى حسن).
(2) المصدر نفسه،ص: 24.
(3) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج3، ص : 298 وأنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج2، ص: 85 والسيوطي : بغية الوعاة، ج1، ص : 504، (ط. القاهرة) وياقوت الحموي : معجم الأدباء، ج8، ص : 111، (ط.القاهرة).

قصيدته النونية التي يقول فيها :

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كرام سادةٍ   بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى   لله في الإسرار والإعلان
وأيمّة جمعوا العلوم وهذّبوا   سنن الحديثِ ومشكلَ القرآن
علماءُ إنْ ساءلتهم كشفوا العمَى   بفقاهةٍ وفصاحةٍ وبَيان
وإذا دَجَا الليلُ البَهِيْمُ رأيتهم   مُتَبَتّلِينَ تبتلَ الرهبان[1]

وأن بالتقى والورع، وخوف جبابرة الملوك منهم، لأنهم خافوا الله فخافهم كل الورى، إلى أن يقول :

كَانَتْ تُعدُّ القيروانُ بهم إذا   عُدّ المنابرُ زهرة البلدان
وزهت على مصر وحقّ لها كما   تزهُو بهِم وعدتْ على بغدان
حَسُنَتْ فلمّا إذ تكامل حسنُها   وسما إليها كلُّ طرفٍ ران
وتجمعتْ فيها الفضائلُ كلُّها   وغدت محلّ الأمن والإيمان
نظرتْ لها الأيامُ نظرة كاشح   ترنُو بنظرة كاشح معيان
حتّى إذا الأقدارُ حُمّ وقوعُها   ودنا القضاء لمدّة وأوان
أهدتْ لها فتنا كليل مُظلم   وأرادها كالناطح العيدان
بمصائبَ من فادح وأشائب   ممّن تجمّع من بني دهمان[2]

ثم يشير ابن رشيق بعد ذلك، إلى ما أصاب القيروان من دمار وكيف نقص بنو هلال العهد وغدروا بالقيروانيين، فقتلوا الرجال وسبوا النساء، ونهبوا الأموال، وشرّدوا الأطفال، وقد صوّر الشاعر

(1) رابح بونار : المغرب العربي، تاريخه وثقافته، ص : 360-361.
(2) رابح بونار : المرجع السابق، ص: 361.

خروج النّاس حفاةً عائذين بربّهم، خائفين، هاربين، يحملون أطفالهم، فقال :

فـتكوا بأمّةِ أحـمدَ أتراهــم   أمنوا عقابَ اللهِ في رمضـان ؟
نقضُوا العهودَ المبرمات وأخفروا   ذِممَ الإلهِ، ولم يفــوا بضـمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا   سبي الحريم وكشفة النّسـوان
ساموهم سوء العذاب وأظهروا   متعسّفين كوامن الأضغـان
يَستَصرخُونَ فلا يغاثُ صريخهُم   حتّى إذا سئموا من الأرنـان
فادوا نفوسَـهُم فلمّا أنفدوا   ما جمّعوا من صامتٍ وصـوان
واستخلصوا من جوهر وملابس   وطرائــف وذخائــر وأوانـي
خرجوا حُفاةً عائذين بربّهم   منْ خوفـهم ومصائب الألـوان
هَربُـوا بكل وليدةٍ وفطيمــةٍ   وبكلّ أرملةٍ وبكـلّ حصـان
وبكل بكر كالمهاة عزيـزة   تَسبي العقول بطرفـها الفتّان
خودٌ مبتـلة الوشاح كأنّـها   قمرٌ يلوحُ عـلى قضيبِ البَان[1]

ثم يذكر مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وما آل إليه بعد النكبة، وكيف أصبح قبرا بعد أن توقفت الصلوات به، فكانت بذلك أعظم مصيبة أصابت الإسلام والمسلمين، وبعثت في نفوسهم الحزن والأسى إذ يقول :

[1] رابح بونار : المرجع السابق، ص: 361.

والمَسْجِدُ المعمورُ جامعُ عُقبةٍ   خربُ المعاطنِ مظلمُ الأركـان
قفرٌ فما تغشاه بَعْـدُ جماعة   لصـلاةِ خمـس لا ولا لأذان
بيتٌ بوَحي الله كَـان بنـاؤُه   نعْمَ البـنا والمبتَـنى والباني
أعظمْ بتلك مصيبةٍ ما تنجلي   حسراتها أو ينقضي الملوان[1]

ويمضي ابن رشيق في قصيدته ليشير إلى أنّ الأمة العربية والإسلامية في المشرق والمغرب، حينئذ قد أحزنها ما أصاب القيروان، فقال :

حَزنَتْ لها كُورُ العراق بأسْرِهَا   وقُرَى الشَّام ومِصرٌ والخُرسَان
وتَزَعْزَعَتْ لمصابها وتنكّـدتْ   أسفًا بلادُ الهنْـدِ والسّنْـدان
وَعفَا منَ الأقْطار بَعدَ خَلائهَا   مَا بَين أندلُـس إلى حلْـوَان[2]

ولم يقف الحزن على القيروان عند الإنسان، وإنّما تجاوزه إلى الطبيعة، فالنّجوم الزاهرة، والشمس والقمر، واللّيل والنّهار، والجبال، والأرض، قد اهتزت جميعها لمصاب القيروان، يقول :

وأرى النّجومَ طلعْـنَ غيرَ زَوَاهر   في أفقِهِنّ وأظلَـمَ القمَران
وأرى الجِبَال الشُّمّ أمست خشعًا   لمصابِهَا وتَزَعْزَعَ الثّقلان[3]

ويختم قصيدته بالتساؤل عمّا إذا كان في الإمكان أنْ تعود القيروان إلى سابق مجدها وعزّها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، بعد ما لعب الزّمان بأهلها، وسلبتها الأيام حسنها وجمالها؟ فيقول :

[1] رابح بونار : المرجع السابق، ص: 361.
[2] المرجع السابق، والصفحة نفسها.
[3] المرجع السابق، والصفحة نفسها.

أترى اللّيالي بعدما صَنَعَتْ بنا ... تَقْضِي لـــنا بتواصلِ تدَان؟

وتعيدُ أرضَ القيروانِ كعهدِها ... فيما مضى منْ سالفِ الأزمان

أمسَتْ وقد لعِبَ الزّمانُ بأهلِها ... وتقطّعَتْ بهم عُرى الأقران

فتفرّقوا أيْـــدي سبأ وتشتّتوا ... بَعدَ اجتماعِهم على الأوطان[1]

كانت هذه مقتطفات من نونية ابن رشيق في بكاء القيروان، وهي قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتا، وقد صوّر لنا فيها الشاعر النكبة تصويرا دقيقا، كما وصف حال المدينة في أيام عزّها ومجدها، وما آلت إليه بعد اقتحامها. جاء كلّ ذلك بأسلوب عربيّ مبين، بالرُّغم ممّا تسرّبَ إليه من جمل مضطربةٍ ركيكةٍ أحيانا، أمّا عاطفته فصادقة لأنّه من أهل المدينةِ الذين شُردوا وأبعدوا عن ديارهم، فجاءت عاطفته حزينة لأنّ قلبه يقطر ألمًا وأسى على ما حلّ بمدينته الجميلة من دمار وخراب...

أمّا ابن شرف القيرواني (390–460 هـ)، صديق ابن رشيق السّالف الذكر، فقد بكى مدينته هو الآخر بشعر رقيق، يدل على امتلاكه لموهبة شعرية، وقدرةٍ فنية على قول الشعر، وخوض غماره في مهارة وبراعة، وممّا وصلنا من شعره في بكاء القيروان، قصيدته اللامية التي يصف فيها جالية القيروان بمدينة

[1] المرجع السابق، ص: 363.

سوسة، وما أصابها منْ مَهَانةٍ واحتقار، إثر فرارهم بعد نكبة مدينتهم، يقول :

أه للقيروان ! أنّـــة شَجـــو ... عن فؤادٍ بجاحم الحزنَ يصلي

حين عادت به الديـــار قبورا ... بل أقولُ : الدّيار منهن أحلى

ثم لا شمعة سوى أنـــجم تخـــ ... ـطو على أفْقِها نواعس كسلى

بَعْدَ زهر الشماع توقدُ وقـــدًا ... ومتّـــان الذّبال تفـــتلُ فتلا[1]

والوجوهِ الحسان أشْرقَ منهن ... وتَفضلنَـــهُنَّ معنىَ وشكلا

إلى أن يقول :

بعد يوم كأنّما حُـــشِر الخلـــ ... ـقُ حفاةً بـــه، عَوَاري، رَجـــلى

ولهم زحمةٌ هـــنالك تحكـــي ... زحمةَ الحشر والصّحائفُ تُتلى

من أيـــامَى وراءهن يـــتامَى ... مُلئوا حَسرةً وشَجَوًا وثكـــلا[2]

وحَصانٍ كأنها الشّمسُ حُسنًا ... كفنّتها الأطمارُ نجـــلاء كحلا[3]

لبسُوا الباليات منْ خَشنِ الصُّو ... فِ وعادَ النّبيهُ في الناس غُفلا

نادباتٌ : عفراءُ تُسعدُ سُعدَى ... وسعادٌ تجيبُ بالنَّوحِ جُمــلا

ليسَ منهنّ من يُـــودّعُ جارًا ... لا ولا خُـــرمةٌ تشيّع أهــــلا

[1] متان: ج. متْنٌ. المتان: ما بين كلّ عمودين.
الذّبال: ج. الذبالة: الفتيلة.

[2] الأيامى: جمع أيّم : من لا زوج له. الشجو : الحزن والهم، الثكل: الموت والهلاك، وفقد الحبيب، وأكثر استعماله في فقد المرأة لزوجها أو ولدها.

[3] الحَصانُ: المرأة العفيفة البعيدة عن الريبة. النجلاء: واسعة العينين في جمال.

كلهُنَّ اعتدى الفــراق عليه   فاقتَحَمْنَ الجلاءَ حفــلا فحفلا[1]

مُزّقوا في البلادِ شرقًا وغربًا   يسكبون الدّموع هطــلا ووبلاً

لا يلاقي النسيب منهم نسيبا   يتعزّى بــه ولا الخلّ خِــلاً[2]

والقصيدة في ثلاثة وثلاثين بيتا، وهي من عيون الشعر العربي في هذا الفنّ منْ حيث دقة تصوير ما أصاب القيروانيين من ذلّ وهوان أثناء تعرّض مدينتهم للاقتحام من قبل الغزاة ولا بن شرف قصائد ومقطوعات أخرى في ندب القيروان والحنين إليها، ومنها قوله:

يا قيروانُ وددتُ أنّي طــائرٌ   فأراكِ رؤيــةَ باحثٍ متأمّلِ

آهًا وأيّة آهةٍ تشفــي جَوَى   قلبٍ بنيرانِ الصّبابةِ مُصطلي

أبدتْ مفاتيحُ الخطوبِ عجائبًا   كانتْ كوامِنَ تَحتَ غَيبٍ مُقفَلِ

والآن ننتقل إلى شاعر قيرواني آخر، ألا وهو: أبو الحسن الحصري القيرواني، صاحب القصيدة الشهيرة التي مطلعها :

يا ليلُ الصبُّ متى غدُه   أقيامُ الساعةِ مَوعدُه[3]

ولد في حدود سنة عشرين وأربعمائة للهجرة 420 هـ بالقيروان[4]، وفيها قضى شبابه، أي : نحو ثلاثين سنة من عمره، وبعد نكبة القيروان اضطرّ إلى الهجرة من وطنه كما فعل

(1) الجلاء: الخروج من الوطن. الحفل: الجمع من الناس.

(2) ديوان ابن شرف، ص:89-90-91-92 (تحقيق د.حسن ذكرى حسن).

(3) المصدر نفسه، ص: 86.

(4) ديوان الحصري، ص:143 (تحقيق محمد المرزوقي والجيلالي بن الحاج يحي).

الشاعران السالف ذكرهما من قبل، ابن رشيق وابن شرف، والتجأ إلى سبتة واستقرّبها يدرّس علم القراءات ثم اجتاز إلى الأندلس واتصل ببني عبّاد في إشبيلية ومدحهم ثم انتقل بين عواصم ملوك الطوائف وأخيرا حلّ بمدينة طنجة، وبها توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة للهجرة (488 هـ).

وقد آلمته نكبة القيروان كبقيةِ شُعراء عَصْرِه، فقال ينْدُبُها بقصيدةٍ طويلةٍ نقتطِفُ مِنْها هذه الأبيات :

مَوتُ الكرام حياةٌ في مواطنِهمْ   فإن هُم اغتربُوا ماتُوا ومَا ماتوا

يا أهلَ ودّيَ لا والله ما انتكثَتْ   عندي عهودٌ ولا ضاقتْ مودّاتُ

لئن بَعدتُم وحال البحرُ دونكمُ   لبينَ أرواحــنا في النّوم زَوْراتُ

ما نمتُ إلاّ لِكي ألقى خــيالكُمُ   وأين مَنْ نازح الأوطان نومــاتُ

إلى أنْ يقول :

أصبحتُ في غُربتي لو لا مكاتِمتي   بكتني الأرضُ فيها والسماواتُ

كأنّني لم أذقْ بالقيروانِ جــنى   ولم أقلْ هَا لأحبابي ولاَ هَاتوا

ألا سَقى الله أرْضَ القيروانِ حَيًا   كــأنّه عــبراتي المُستهــلاتُ[1]

ونلاحظ أنّ الحُصْري أكثر براعة في الشّعر من صاحبيْه : ابن رشيق وابن شرف، ولعلّ لآفة العَمى التي أصيب بهَا الحُصْري دَوْرًا في ذلك.

(1) المرجع السابق، ص: 125.

وبكى القيروان أيضا، بعد نكبتها الشاعرُ عبد الكريم بن فضال القيرواني، فقال :

كيفَ يا قيروانُ حالكِ لمّا   نثرا لبينُ سلكَــكِ المنظومَا

كُنتَ أمَّ البلادِ شرقًا وغربًا   فمحا الدّهْرُ وشيكِ المرقُومَا[1]

3- الخصائص العامة في شعر بكاء القيروان :

في ختام بحثنا هذا، يجدر بنا أنْ نشير إلى بعض الخصائص العامة في شعر بكاء القيروان، وهي :

1- الشعراء الذين رثوا القيروان كلهم من أهلها، وقد ألجأهم الهلاليون إلى هجرها، والفرار منها، ولذا بالغوا في تصوير المأساة، أي : ما نَزلَ بها من صنوف التدمير والتخريب والعسف والهوان...

2- الشعرُ فنٌّ من فنون الكلام، يعتمد على الصوَر والأخيلة التي تقتفي أثر الحقيقة وتلتصق بها، وبالنظر إلى أن الحقيقة قد وقعت فعلا، فإنَّ علم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة، وخياله وفنّه يوضّحان مدلولها[2]، ولذلك يمكن أنْ يستفيد التاريخ من الشعر، ولكن لا يجب الاعتماد عليه كلية كوثيقة أو سند تاريخي دون تمحيص وتدقيق...

---

[1] المرجع السابق، ص: 125.

[2] المرجع السابق، ص : 38.

3- بعض الشعراء لم يذكروا الهلاليين بسوء، وإنّما أرجعوا المصير المحتوم، أي : نكبة القيروان إلى القضاء والقدر ودعوا الله أنْ يعيدها إلى سالف عهدها...

4- ما وصلنا من شعر في هذا الفن، قصائد ومقطعات، ولم يختص أيُّ شاعر بهذا اللون من الشّعر...

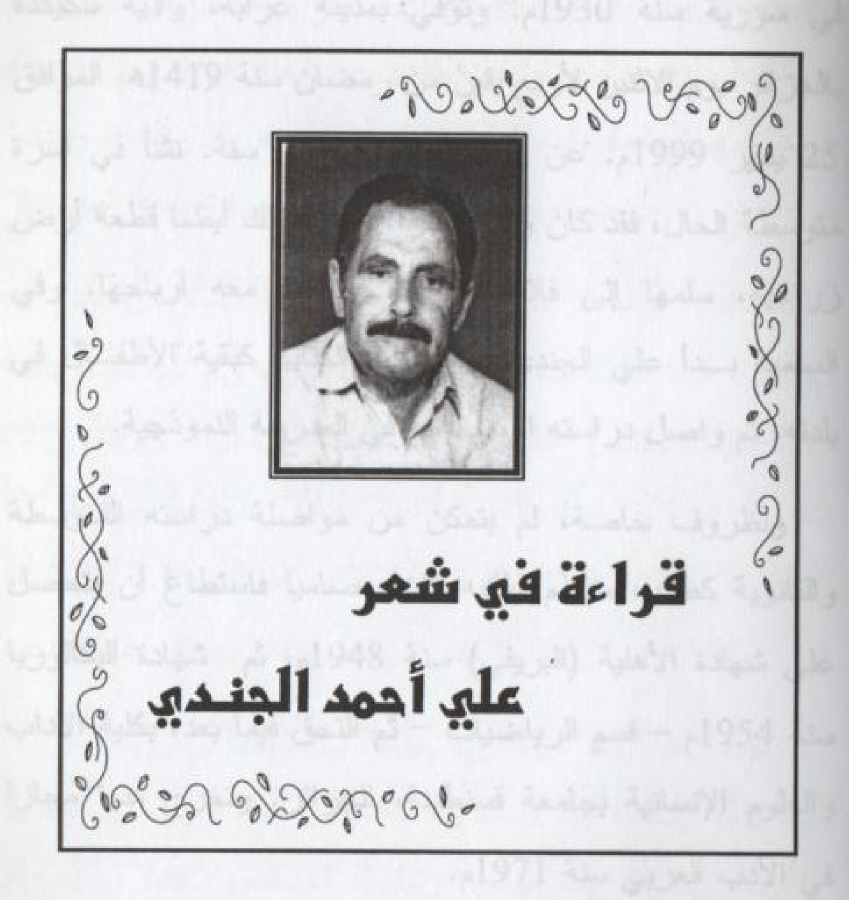
5- بالنسبة لطول النفس وقصره : لقد طالت قصائد بعض الشعراء كنونية ابن رشيق ولامية ابن شرف، وتائية الحصري، أمّا بقية الأشعار التي وصلت إلينا فمقطعات قصيرة.

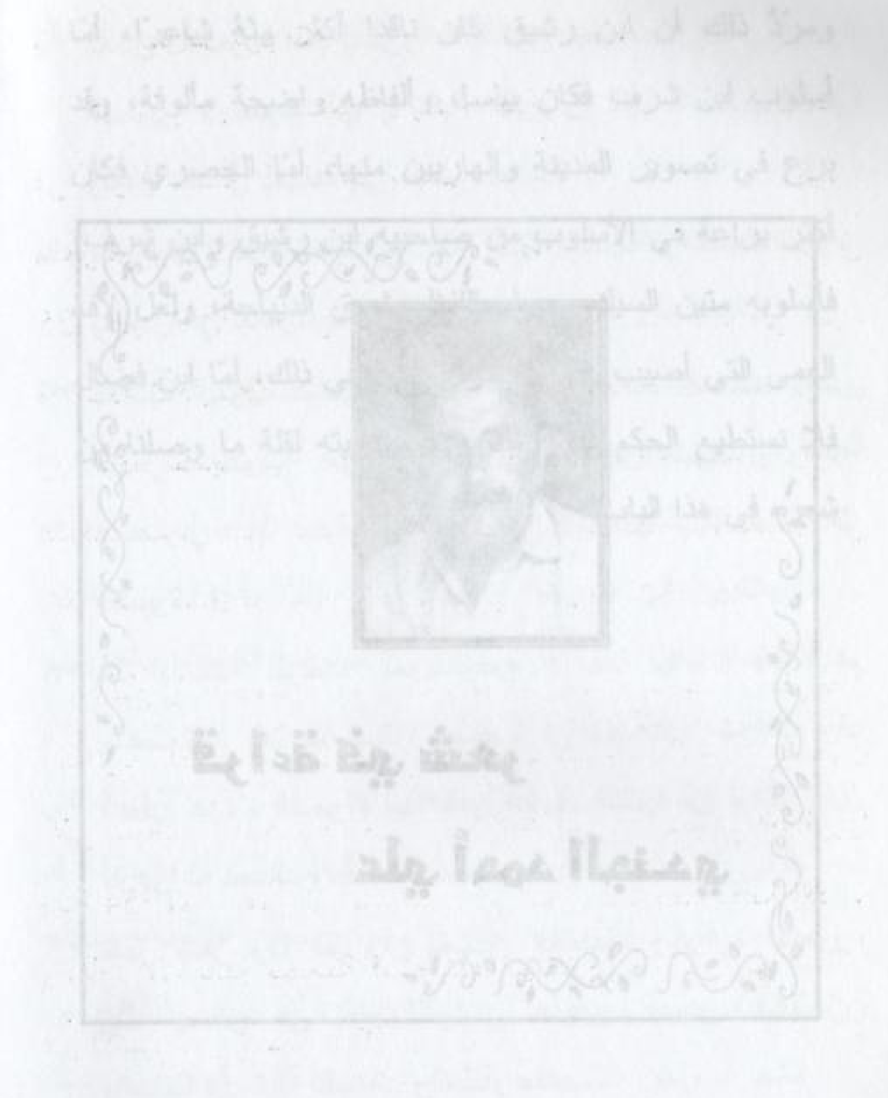
6- أمّا بالنسبة للوحدة الموضوعية : فقد جاءت قصائدهم ومقطّعاتُهم كلّاً متماسكًا، يَصعُبُ أنْ نجد فيها ثغرات وقد أعطى هؤلاء الشعراء لهذا الفن أهمية، فكانوا من أوائل الذين أفردوا له قصائد ومقطّعات...

7- تَميَّزَ شعرُ رثا القيروان بصدق العاطفة، وحرارة الشعور، لأنّهُ يصدر عن عاطفة وأسى عميقين، ويبدو لنا الحزن واضحًا في ثنايا القصائد والمقطوعات...

8- أمّا الأسلوب، ففي جملته سهل، يَمتازُ بالموسيقى الحزينة والرّنة الواجمة، والأنّة الوجيعة، وهو يختلفُ من شاعر إلى آخر، فأسلوبُ ابن رشيق ركيك، وقد يبلغ حدّ الإسفاف أحيانا،

ومردُّ ذلك أن ابن رشيق كان ناقدا أكثر مِنْهُ شاعرًا، أمّا أسلوب ابن شرف فكان سلسا، وألفاظه واضحة مألوفة، وقد برع في تصوير المدينة والهاربين منها، أمّا الحصري فكان أكثر براعة في الأسلوب من صاحبيه ابن رشيق وابن شرف، فأسلوبه متين السبك، جميل اللفظ مشرق الديباجة، ولعل لآفة العمى التي أصيب بها الحصري دورا في ذلك، أمّا ابن فضال فلا نستطيع الحكم على أسلوبه وشاعريته لقلة ما وصلنا من شعره في هذا الباب.





1- موجز ترجمته :

هو علي بن أحمد الجندي ولد بمدينة " السلمية " بمحافظة حماة في سورية سنة 1930م. وتوفي بمدينة عزابة، ولاية سكيكدة بالجزائر يوم الاثنين لأربع بقين من رمضان سنة 1419هـ، الموافق 25 يناير 1999م. عن عمر يناهز السبعين سنة. نشأ في أسرة متوسطة الحال، فقد كان والده تاجرا، وكان يملك أيضا قطعة أرض زراعية، سلمها إلى فلاح يفلحها، ويتقاسم معه أرباحها. وفي السلمية بـــدأ علي الجندي تعليمه في الكتاب كبقية الأطفـــال في بلدته، ثم واصل دراسته الابتـــدائية في المدرسة النموذجية.

ولظروف خاصة، لم يتمكن من مواصلة دراسته المتوسطة والثانوية كطالب منتظم ولكنه كان عصاميا فاستطاع أن يتحصل على شهادة الأهلية (البريفي) سنة 1948م، ثم شهادة البكالوريا سنة 1954م – قسم الرياضيات – ثم التحق فيما بعد، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة قسنطينة، الجزائر. وتخرج منها مجازا في الأدب العربي سنة 1971م.

انضم علي الجندي إلى أسرة التربية والتعليم مبكرا، فعمل مدرسا في مرحلة التعليم المتوسط بشمال سورية، وقد انتقل أثناء ذلك إلى عدة مناطق، فعمل في منطقة (الخابور) بمحافظة الحسكة،

وكان سكانها من الآشوريين، فتعلم (الآشورية)، ثم انتقل إلى منطقة (الأكراد) بالمحافظة نفسها، وهناك تعلم اللغة (الكردية). ثم عين، فيما بعد، مديرا لبعض المدارس الخاصة (الحرة)، منها " متوسطة الثورة " في ناحية الشيخ بدر بولاية "طرطوس" ومتوسطة الشهيد "عدنان المالكي" في قرية سبورة التابعة لقضاء السلمية، ومتوسطة "التعاونية الأهلية" في "برشين" التابعة لمنطقة مصياف.

وخاض الأستاذ علي الجندي معترك السياسة منذ نعومة أظافره، فانضم إلى حزب البعث السوري منذ نشأته سنة 1947م. وكان مسؤولا عن فرق الطلاب في الحزب. وبسبب ذلك زج به في غياهب السجن، وذاق ألوانا من العذاب في عهد " أديب الشيشكلي " الذي تزعم الانقلاب العسكري سنة 1952م. ولكن محنة الشاعر انتهت بانتهاء حكم الزعيم المذكور سنة 1953م.

كما كان من المغضوب عليهم في الفترة التي أعلن فيها عن الوحدة بين سورية ومصر، وذلك لأن جمال عبد الناصر عمل على حل حزب البعث ومضايقة البعثيين، ومنهم علي الجندي الذي فرّ بجلده إلى لبنان سنة 1961م. وطاب له المقام هناك، فمكث فيه حتى سنة 1966م.

وكان الشاعر علي الجندي من أنصار الثورة التحريرية في الجزائر منذ اندلاعها سنة 1954م، فقد كان يشارك في تحرير صحف "المغرب العربي" التي كانت تصدر في دمشق، وتنطق باسم الثورة الجزائرية. كما كان يقوم بجمع التبرعات من الشعب السوري لفائدة الثورة الجزائرية.

وفي سنة 1967م انتقل الشاعر الأستاذ علي الجندي إلى الجزائر، فقد كان ضمن البعثة التعليمية السورية التي أرسلت إلى الجزائر آنذاك. وعين في متوسطة "التربية والتعليم للبنات" التي أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس بقسنطينة في الثلاثينيات كمعلم لمادة الرياضيات، وكان في الوقت نفسه طالبا بكلية الآداب بجامعة قسنطينة، والتي نال منها شهادة الإجازة "الليسانس" في اللغة العربية وآدابها سنة 1971م كما أسلفت.

كما كان مدرسا لمادتي : الرياضيات واللغة العربية لطلبة التعليم المتوسط والثانوي (البكالوريا) في المدارس الخاصة (الحرة) التي كانت منتشرة بكثرة يومئذٍ بمدينة قسنطينة. وفي هذه المدارس تعرفت على الأستاذ الفاضل والشاعر الخنذيذ علي الجندي، والذي سأتحدث عن ذكرياتي معه بعد حين.

وفي سنة 1975م عُيّن أستاذا للغة العربية وآدابها بالمعهد الإسلامي بمدينة صدّوق ولاية بجاية. وقد استفاد من عمله في هذه

المنطقة القبائلية، فتعلم اللهجة الأمازيغية، وأصبح يتكلّم بها بطلاقة، وقد زرته هناك سنة 1977م. فوجدته صار كأهل المدينة يتكلم الأمازيغية.

وفي سنة 1981م انتدبته وزارة التربية والتعليم إلى ثانوية "مالكي عز الدين" بمدينه عزابة ولاية سكيكدة لتدريس مادة اللغة العربية وآدابها، ثم عينته بثانوية "متقن موسى صالح" بالمدينة نفسها، وقد ظل يشتغل فيها حتى أحيل على التقاعد سنة 1990م[1].

2- علي الجندي كما عرفته[2] :

كانت مدينة قسنطينة ولا تزال العاصمة العلمية للجزائر، منذ عهد الإمام عبد الحميد بن باديس (1889-1940م) رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي جعلها حاضرة للعلم والفقه، ومكانا يُقــرأ فيه القرآن، وتحفظ فيه تعاليم الإسلام، وقد بقي

---

[1] استقيت بعض هذه المعلومات المتعلقة بحياة الشاعر ، من الشاعر نفسه قبل وفاته، رحمه الله، وبعضها الآخر اقتبسته مما قدمه من معلومات للطالبة سعاد ماجري التي قدمت بحثها لنيل شهادة الإجازة " الليسانس" في الأدب العربي بجامعة عنابة عن حياة وشعر علي أحمد الجندي.

[2] انظر : د.سعد بوفلاقة : وداعا أستاذنا الفاضل، مقال منشور في مجلة اليوم السابع (التي تصدر بالجزائر) في ثلاث حلقات

الحلقة الأولى : يوم الخميس : 1999/08/26، ص :9

الحلقة الثانية : يوم الخميس : 1999/09/02، ص : 9

الحلقة الثالثة : يوم الخميس : 1999/09/23، ص : 9

سكانُها متشبّثين بتعاليم الدّين الإسلامي الحنيف إلى يومنا هذا وسيظلُّ سكانها كذلك، إن شاء الله، ما بقيت هذه المدينة على وجه الأرض، وهي مدينة جميلة فريدة الطابع. وكانت قسنطينة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي فضاء للعلم، وقد اجتمع فيها علم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتلامذتهم، وعلم الإخوة المشارقة الذين توافدوا عليها من مختلف الأقطار العربية من خلال البعثات التعليمية السورية والمصرية، والعراقية، وغيرها التي أرسلت إلى الجزائر آنذاك.

وكان من بين الوافدين إلى قسنطينة من الأخوة البررة السوريين الأستاذ (علي الجندي) الذي نزل بها سنة 1967م. وكان يُدرّسُ في متوسطة " التربية والتعليم للبنات"، كما كان يُدرّسُ في المدارس الخاصة (الحرة) التي كانت منتشرة بكثرة يومئذٍ في قسنطينة التي ظلت خلال أكثر من عشريتَيْن منارة إشعاع علميٍّ وفكريٍّ وحضاري بالجزائر، ومحجّة لآلاف الطلاب الذين جاءوا من مختلف الأصقاع ليتزوّدُوا وليغترفوا من ينابيعها الفياضة. وكان الطلاب يقصدون هذه المدارس الخاصة للدّراسة لشهرتها، وبسبب النتائج الجيدة التي تتحصل عليها كل سنة، والتي تفوق في الغالب نتائج المدارس الرسمية، ولا سيما في امتحاني : شهادة الأهلية، والبكالوريا. وكان الأستاذ علي الجندي من ألمع الأساتذة الذين

اشتهروا في هذه الفترة، وقد شرّق وغرّبَ اسمُــه، وأصبح يتردد على أفواه الطلبة وقد لقي منهم جميع الثناء، ووفير الإعجاب، بأفكاره العميقة، وذكائه الخارق، (وأنا واحد منهم). فقد كان يُدرِّسُ طلبة الأهلية والبكالوريا موادا مختلفة، علمية وأدبية، فكان يُبدعُ في تدريس الرياضيات، كما كان يُــبدع في تدريس الأدب. وقد تتلمذتُ عليه أثناء تدريسه بإحدى هذه المدارس "برحبة الصوف بقسنطينة" ولازمته عدة سنوات، وقد أحببت فيه العلم، والأخلاق، والكرم، والنزاهة، وعلو النفس، وحُبّ الناس، وكان رحمه الله، سريع الفطنة والفهم، قوي الحافظة، وهو يختلف عن غيره من الشعراء المعاصرين بحبِّ العظماء، وهو شاعر العظمة كالمتنبي الذي كان يحفظ معظم شعره عن ظهر قلب، وقد تأثر به أيما تأثر ولا سيما بشعره الحكمي فكان كثيرًا ما يُردّدُ قوله :

وإذا كانتِ النُّفوسُ كِبارًا   تَعِبتْ في مُرادِها الأجْسامُ[1]

وقولـــــه أيضًــــا :

رمَاني الدَّهرُ بالأرْزاءِ حتَّى   فــؤادي في غِشاءٍ منْ نِبــال

فصِرْتُ إذا أصابتني سِهـامٌ   تكسّرتِ النّصالُ على النّصالِ[2]

(1) ديوان المتنبي (شرح الشيخ ناصف اليازجي) ج2، ص 527، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996.

(2) المصدر نفسه ج2، ص : 533.

وقـــولـــــه :

أطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فوارسِها الدّهرُ   وَحيدًا وما قولي كذا ومَعي الصَّبرُ[1]

وكان يردّد أيضًا قوله :

بغـيرِكَ راعيًا عَيثَ الذّئــابُ   وغيْرَكَ صارمًا ثَــلمَ الضِّــرابُ[2]

وكان رحمه الله، يتذوق الشّعر العربي، وينتقده، ويختار منه ما يدلُّ على ذوقٍ رفيع، وله اطلاعٌ واسع على الأدب العربي القديــم، من خلال النُّصوص الشعرية والنثرية التي كان يخــتارها لطلبته، وهي في الغــالب من محفوظاته الكثيرة، فهــو نادرا ما كــان يعــود إلى كتاب أو دفتر أو مذكرات ينقل عنها، بل كان يحفظ عن ظهر قلب حتى النصوص النثرية، كالمقامات وغيرها. فهو يشبه، إلى حد كبير، أبا جعفر المنصور الذي اشتهر بقوة الذاكرة، فقد كان يسمع القصيدة الشعرية مرة واحدة فيحفظها... وقصته مع الشعراء مشهورة. وكان علي الجندي رحمه الله، عالما حكيما حليما حسن العشرة، ولغويا كبيرا، فهو لا يجارى ولا يبارى في النحو حتى أنّ طلبته لقبوه بسيبويه، وقد ألف كتابا في النحو لا يزال مخطوطا، كما كان كريمًا مشهورًا بالكرم، فقد كان كلما التقى بأصدقاء أو خلان (وما أكثر الخلّان حين تعدُّهم ولكنّهم في النّائباتِ قليلُ) إلا ودعاهم إلى بيته، وأجلسهم أحسن مجلس، وطلب من زوجه

(1) المصدر نفسه ج1، ص : 411.

(2) المصدر نفسه ج2، ص : 723.

اللبنانية، ثم الجزائرية – فيما بعد – أن تُهيّئ ضيافة الرّفاق، وعندما تنتهي من ذلك، تبلّغه، فيحمل ما هيأته إلى غرفة الضيوف، ثم يقــدّمُ بيديه الكريمتين لكل ما يخصُّه، فيتناوله، وهو يتمتم بعبارات الشكر (إن كان كريما). وقد حضرت بعض هذه الأكرومات، جعلها الله له في ميزان حسناته، وكان أحيانا لا يدعوك إلى المكرَمة، ولكنّه يجرّك إليها جرًّا، فإذا وجدك قبض على يديك بلطف ورفق وسار بك بحيث لا تشعر حتى تجد نفسك في بهو منزله. وكان كحاتم الطائي مِقراءً يُكرمُ الضّيف – أحيانا– ثم يبيت على الطوى هو وزوجه وأطفاله. وإذن، فإنّ من خسِر الشاعرَ الفقيدَ فعلاً، هو المجدُ والمكارمُ ، فخسارتُهما لا تُعدُّ لهما خسارة.

وكان علي الجندي، رحمه الله، شاعرًا مُقلقا، مُقتدِرًا مطبوعًا، يقول الشّعر على السليقة، فقد كنتُ جالسا معه يوما في أحد مطاعم مدينة قسنطينة، حيث كنّا نتناولُ طعام الغداء، ونتجاذب أطراف الحديث، وإذا به فُجاءةً يُشيرُ عليَّ بالسُّكوتِ فسكتتُ، ونظرتُ إلى وجهه الكريم، فإذا به يتصبَّبُ عرقا، وكان الفصل شتاء، ثم أخرج من محفظته ورقة وقلما، وراَحَ يكتبُ و يقرأ بصوت مجلجل قصيدة شعرية من ثمانية عشر بيتا، أنشأها في تلك اللحظة، وهي قصيدة جيدة لم تحضرني الآن، وقد نُشرت بعد أيام في يومية النصر التي تصدر في قسنطينة. وكان يحبُّ الموسيقى والغناء، ولا سيما

الموسيقى الأندلسية، وأغاني فيروز، وأم كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، كما كان يحبُّ الموسيقى العالمية، وبخاصّةٍ سنفونيات موزار وبيتهوفن.

وهناك جوانب أخرى كثيرة شيقة في حياة الشاعر المبدع علي الجندي، عرفتها فيه من خلال مصاحبتي له لعدة سنوات، لا يتسع المجال لذكرها جميعا هنا في هذه العجالة، وقد نعود إليها في فرصة أخرى، إن شاء الله.

3- فنــون شعــره :

طرق علي الجندي معظم الأغراض والفنون الشعرية المعروفة عند شعراء العرب القدامى والمحدثين كالغزل، والمدح، والرثاء، والشعر الوطني، والاجتماعي، وغيرها. وقد جمع شعرَه الذي قاله خلال نصف قرن ونيّف في ديوانٍ شعريٍّ ضخم ، وحمله معه إلى بلدٍ عربيٍّ قصد طبعه ونشره هناك. ولكنّ ذلك الديوان قد ضاع، ولم يكن لدى الشاعر نسخةٌ أخرى منه.

وبالرغم من ذلك، فقد بقيت لنا شذرات من شعره، موزعةٌ هنا وهناك. نجدُ بعضها في أدراج مكتبتهِ وبعضها الآخر عند بعض أصدقائه، كما نجدُ مجموعة من القصائد والمُقطّعات في بحث الطالبة سعاد ماجري الذي قدّمته لنيل شهادة الإجازة "اللّيسانس" في

الأدب العربي بمعهد اللغة العربية وآدابها، بجامعة عنابة، والموسوم بـ" علي أحمد الجندي – حياته وشعره". وقد سلّمها تلك النماذج خلال السنة الجامعية : 1993/92م.

هذه النّصوص القليلة التي وصلتنا من شعر الشاعر، ما هي إلا جزءٌ ضئيل مما أنشدَه، ولكنّنا مازلنا ننتظرُ أن يصلنا يومٌ يُكشَفُ فيه النّقابُ عن شعر علي الجندي، لأن معظم شعره نشر في الصحافة العربية، وبخاصةٍ في سورية، ولبنان، والجزائر، وقد قرأتُ له خلال العشريتين الأخيرتين، فقط، عشرات القصائد المنشورة في يوميتي الشّعب والنّصر الصادرتين بالجزائر. ولذا يُمكنُ جمْعُ هذه الأشعار في ديوان، ودراستها إن وُجِدَ فارس من فرسان البيان يقوم بهذه المَهَمّة.

ولعلّ أقدم ما وصلنا من شعره هذه القصيدة التي نظمها سنة 1963 وهو في ديار الغربة بلبنان بعيدا عن وطنه، فأحسّ بالغربة، والغربة مرة، وحب الوطن غريزة في الإنسان، وإن كان يعيش خارج وطنه مكرّما، وقد عنونها بــ" دَمعة حرّى "، وهي قصيدة غزلية متصلة بالغربة والحنين وقدّم لها بقوله : « تأمّلات داخلية في النّفس، وشعور بالغربة و صراع الإنسان مع متناقضات الحياة باستمرارية تدومُ ما دامت حياة المرء »، قال :

و ليـالِ حـالكـاتِ   مـزّقتْ صَمتَ شُرودِي

أيقظتْ قيثـار حسّي   لِتـراتيـل نشيـدِي

إيـهِ دُنيـايَ غريـبٌ   في تَباريحي صُمودي ؟

أمْ تُـراني خِلتُ أيّـا   مَكِ أحلامَ الرُّقـودِ ؟

فـابيني، و اسفري الـ   يومَ عنْ صـدْرٍ وجِيدِ

تـراءَيْ في خطوطِ الـ   أمْس، أو شـدْوٍ فريدِ

إلى أن يقول :

اسفـحُ الدّمعَ على أوْ   تـار دُنيـايَ و عُـودي

و لقد قـرّحتْ جفنـ   ـيَّ بدمعِي و نهيدِي

دمعـةُ الجفْن تُعيدُ الـ   آهَ في صمتِ البَعيـدِ

فـعَسَى في كُرهِ نفْسي   يَقْظةٌ تقْري فُيودِي[1]

وكان الشاعر كثيرًا ما يفتخر ببطولات الشعب العربي من المحيط إلى الخليج فيُعدِّدُ مناقبه، وقد توفّرت مقوّمات الفخر عنده، من خلال تمجيده لبطولات الشعب الجزائري، فكان فخرهُ بفضائل قومه لا بنفسه، ومن أجل ذلك نجده لا يترك مناسبة أو ذكرى تمرُّ إلا وكتب قصيدة يُشيد فيها بهذه البطولات، كفاتح نوفمبر تاريخ اندلاع ثورة التحرير المباركة أو 5 جويلية عيد الاستقلال أو 16 أفريل يوم العلم وغير ذلك.

[1] انظر : د.سعد بوفلاقة المرجع السابق الحلقة الثانية، ص : 9.

ومن أروع شعره في ذكرى نوفمبر قصيدة " قد عرَفناك، فذكّرْ يا نوفمبرْ "، وقدّم لها بقوله :

« تبقى ثورةُ التحرير خالدةً خلود الراسيات، والشعب الذي حرّر البلادَ، يباشرُ بناءها، وكلما حلَّ فاتحُ نوفمبر يُرَدِّدُ أحفادُ الشهداء : قد عرَفناك فذكّر يا نوفمبر »، وهي قصيدة طويلة نقتطف منها هذا المقطع :

صوتُ حُرٌ في ذرى الأوراس ثائرْ
لحنُ ثارٍ في فم الثوّار هادرْ
ومضُ نورٍ لِثَرى الأحرار ظاهرْ
كلّنا التاريخُ في أرض الجزائرْ[1]

ولحّنت هذه القصيدة فِرقةُ الإذاعة والتلفزةِ الجزائريةِ، وقدّمتها بمناسبة 20 أوت 1975م.

ولِعليّ الجنديّ قصيدةٌ يُظهر فيها الإعجاب بالإمام عبد الحميد بن باديس، ويُضمّنُ فيها بعض أفكار ابن باديس، ولكنّه يضعُ فيها كثيرًا من روحه ومن فلسفته في العلم من خلال الإشادة بأعمال ابن باديس منها :

أجزائرَ الأحرار جئتكِ مُنشِدًا ... وعلى جَنيني لوْعةٌ وخِطابُ
فلكلّ شِبرٍ من تُرابِكِ في دَمي ... عَهدٌ يُصانُ ، و حِكمةٌ تنسابُ

[1] المرجع السابق والصفحة نفسها.

في رَوض سيرتا و الجسورُ شَواهِدٌ ... يروي المفاخرَ والعلا الأتْرابُ
يا ابن باديس الذي كانت به ... لوحاتُ فكرٍ زاد الإعجابُ
ما كنتَ وارثَ صفوةٍ إلاّ بما ... عِشتَ المخاطِر والحياةُ كِتابُ
بوركتَ في حُكم الوجودِ مُجاهِدًا ... وعلوتَ فِكرًا زادَه الوهّابُ[1]

كما طرقَ عليٌّ الجنديّ فنَّ الغزل والنّسيب. وقد جَرى غزلهُ، غالبا، مَجرى الغزل العفيف العذري، ولعلّ من أجمل ما وصلنا من شعره في الغزل وشكوى الفراق، قصيدته "وتذوب الكلمات"، وقد أهداها " إلى كلّ نفسٍ يعذّبُها الحبُّ، ويعصرها الأسى، ويُلهبُها الجَفاء ... ولا جواب "، يقول :

سألتُ عنكِ ورودي،
وسألتُ الذكرياتْ
وزرَعتُ آفاقَ الأماني،
وصَريرَ الهَمَساتْ ...
ونسيتُ فيكِ يَراعتي،
فالشّعرُ ترفضُه الرُّفاةْ
هلْ ماتَ قيثارُ الهوَى ؟
هلْ خَبَتْ فيكِ الحياةْ
إيهِ ! يا نفسي أجيبي

[1] المرجع السابق والصفحة نفسها.

أيقـــظـيني من سُــبــات

فـــلقد بَعْــثرْتِ أفكـــاري

وزوّدْتِ الشّــتـــــاتْ

أرثـيــكِ . . أبكـيــكِ

هــل تُوافيكِ النّجــاةْ . .

لا . . لا . . فإني لا أرى

سببًا ، يُسمِّـــرُ مُــهــجتي

و تَــذوبُ الكــلــمـــاتْ.[1]

في هذه القصيدة يستحضر الشّاعر ذكرياته مع المحبوبة، ويبثها فيها شوقه، ويشكّو فيها بُعدها، ويأتي فيها بالمعاني الواضحة، والعاطفة الصادقة لشاعر صادق التّعبير عمّا يجول في نفسه.

ولعلي الجندي قصائد أخرى في الغزل، تحمل الطابعَ نفسه، ولكنّه يمزجُ فيها أحيانـًا الغــزل بوصف الطبيعة، كقــوله في قصيدته " أنشودة اللمىّ" :

لمَلمْتُ ذكراكِ في أمس على كثب ورحْتُ أحضنها في الخافــق التّعبِ

نسيتُ من يَــدها أن استردّ يدي ما للسّلام يغطّــي الوَعي بالحُجُب

[1] المرجع السابق، الحلقة الثالثة، ص :9

مالي أحكّم في دنيــايَ عــاطفتي حتّى يُرى العقلُ معزولاً بلا سببِ

عريقةُ الحُسن والآمالُ ملحمةٌ مغسولةُ الطّعم تدنو منكَ كَالعِنبِ[1]

كما نظر عليُّ الجندي إلي وضع المرأة العربية، فوجدهُ مُتدنيا في جملته؛ ووجد المرأة تعاني جملة منَ المظالم في معظم المجتمعات العربية كحرمانها من العلم والعمل أحيانا، كما هو الحال مع سعاد التي فُرضتْ عليها الاستقالة من عملها بعد الزواج، وتوفي زوجها شهيدا في معركةٍ، فبقيت مع ابنها اليتيم، وابنتها المريضة، تعاني جرح الدّهر وألم الأيام، وإلى سعاد هذه أهدى الشاعر قصيدته " الجرح الأليم" التّي يقــول فيها :

قــالتْ : و لمْلَمــتِ الجــراحْ أخـشى اللّـيــالي والصّـبــاحْ

عــرفــَـتْ حيــاتي ثـُـقـلها جَــسَــدٌ تـَـقــاذفُــهُ الرِّيــاحْ

غــــابَ الأنيــسُ و طــالمَــا حَــبُسَ الـحــزينُ عــن النّواحْ

قــد مــاتَ زوجــي بعــدمــا أضْــنــتْــهُ أيّــامُ الكِــفــاحْ

ولَــدي يـــذوبُ تــوجـُّــعًــا و البِنْتُ تـُـثـْـقلها الجـــراحْ

يــا والـــدي يــا إخــوتـــي يــا كــلَّ بــاغ للـصّــلاحْ

هــيـّـا أنــقـذونــي مــيْـتــةً والفقرُ في وَجْــهــي وشــاحْ

مــا كــنــتُ إلاّ مَــوسـمًــا غــضًّــا مـــضى الآن وراحْ

[1] المرجع السابق و الصفحة نفسها.

إلى أنْ يقول :

إذ ما سُعادُ تَجهَّلتْ　　　ضاقتْ ميادينُ الملاحْ

فهَل الفضيلةُ قتَلْهَا ؟　　　فالجُرْمُ في الآفاق لاحْ[1]

ولعليٍّ الجندي قصيدة أخرى يُظهر فيها مأساة المرأة ، ويطلبُ فيها بفكّ قيودها، ويجعل مأساتها مأساته، فيقول في قصيدته " الأسيرة" :

حلّــوا القيــودَ فإنّهــا　　　سبَبُ المخــازي و الضّــلالْ

فــرضـُوا عليكِ طـريقَـهُمْ　　　يــا ويلــهُمْ هــذا مُحــالْ

أنتِ السّجينـةُ حكمُها　　　ظـلـمٌ وآمــالٌ ثِـقـالْ

وقال يدافع عن سلمى :

سَلْمايَ ... أنتِ قصيدتي

وأصابعُ الآثامِ تغتالُ القصيدةْ

سَلْمايَ ... أنتِ براعتي

لكنَّ أفاقَ الظّلام

تخفي براعاتٍ عديدةْ[2]

(1) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(2) المرجع السابق والصفحة نفسها.

وللشّاعر معانٍ كثيرةٌ طرقَها لا تدخل في بابٍ من أبوابِ الشّعر التي صنّفها النقادُ، لأنّ الشعر حديثُ النّفس، ومجلى الفكر، وما أكثر المعاني التي تخطرُ للإنسان، وما أشدّ تنوّعها. والجنديُّ أكثرُ الشعراء المعاصرين حديثا عن نفسه، وتصويرًا لعواطفه، غاضبًا، وفرحًا. ومن أجمل شعره عن النفس قصيدته "لوحةٌ لمْ تُرسم" وقد قدّم لها بقوله : « النفسُ حيّزٌ خاص تتجلّى فيه الاحساسات المُختلفة، فتكوّن لوحةً فنية، قلّما يُدركها المعبّرُ أو الفنان » يقول :

ملَّتِ الأوهامَ نفسي　　　واستثارت عمق حَدسي

فنسَجتِ الخيطَ لونًا　　　عاريًا من كلِّ لَبْسِ

اتخذتِ العُمقَ منحى　　　فكرتي تقنعُ نفسي

معبدُ الفنّ و جودي　　　و به اشربُ كأسي

فيه ينسابُ قصيدي　　　رونقًا في ثوب عُرس

وأناجي أمنياتي　　　بيننا لفتاتُ خِلْسِ[1]

4- خلاصة :

حاولنا في التحليل السابق أن ننظر إلى شعر علي الجندي نظرة سريعة من خلال جملة من النصوص والشواهد (غير المستقصاة)،

(1) المرجع السابق والصفحة نفسها.

اجتهدنا في التنقيب عنها في جملة من المظان، وآثرنا تجميعها في هذه السطور، وقد اكتفينا ببعض المقطّعات والقصائد دفعًا للسّـآمة والملل.

ومهما يكن من أمر فعليُّ الجندي من رواد الشعر العربي المعاصر في سورية، وفي الوطن العربي، وقبسٌ متقدٌ فيهم؛ وهو شاعرٌ خِنذيذٌ، مقتدِرٌ، ومطبوع، أي لم يكن من "عبيد الشعر" الذين كانوا يأخذون شعرهم بالتهذيب والتنقيح والتثقيف بعد الفراغ منه. وشعرُه، في الجملة، قويُّ السَّبك، رائق الديباجة، سلس الأسلوب، عذب الألفاظ، وكان معاصرا لثلاثة من الشعراء الرومانتيكيين السوريين، وهم : صفي قـرنـفـلي[1] (1911 – 1972م)، وعـبـد السـلام عيون السود[2](1922– 1954 م)، وعبد الباسط الصوفي[3] (1931–1960م)، فهو يلتقي معهم في جزء من شعره الذاتي، ولكنه يختلف معهم في شعره الذي قاله في الستينيات والسبعينيات، فقد كان معظمه شعرا ثوريا ملتزمًا بقضايا الأمة العربية، أي أنه كان صاحب قضية، وقضيتُّه هي المجتمع والوطن العربيين، وقد التزم بالدفاع عن مبادئ الاشتراكية التي تعني عنده العداله الاجتماعية.

---

[1] أنظر عن حياته وشعره : جلال فاروق الشريف : في الشعر العربي المعاصر في سورية، ص : 137 وما بعدها، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق 1980.

[2] أنظر عنه : المرجع نفسه، ص : 159 وما بعدها.

[3] أنظر عنه : المرجع السابق، ص : 177 وما بعدها.

أمّا الخصائص الفنية لشعره، فتقتضي منّا وقفة أخرى، بعد جمع شعره ونثره كله، لا يتسعُ لها المجالُ في هذه الإطلالة السريعة على شخصيته، وشعره. ولو لا وجودُ هذه الشذرات من أدبه لكان الشاعر الكاتب عليّ الجندي نسيا منسيا، ولبقي جزء من أدبنا العربي المعاصر مجهولا جهلا تامًّا.

وأودُّ أن يدرس آخرون شعره دراسة أكاديمية جادة ويميزوا خصائصه لنعرف مقدار ما بين شعره وشعر معاصريه من تشابه أو اختلاف.

ما ألّف عن النساء

قديما وحديثا

مقدمة :

موضوع هذا البحث «ما أُلّفَ عن النساء قديمًا وحديثًا». وهو موضوع يعرض المؤلفات العربية التي تناولت مشاركة المرأة العربية في الحياة العلمية والأدبية على مدى التاريخ العربي الإسلامي، فقد عرف التاريخ منهنَّ : قارئات، ومحدّثات، وفقيهات، وخطّاطات، وناسخات، ونحويات، ومصنفات، ومؤلّفات، وأديبات، وشاعرات...

ويتناول البحث في مقدمته شعر المرأة العربية ومردُّ قلة المروي منه في المصادر العربية القديمة، ثم يعرض ما أُلّف عنهنَّ قديمًا وحديثًا في مختلف الفنون والعلوم. وقد خلص البحث إلى أنَّ ما أُلّفَ عن النساء يُعَدُّ ضئيلا جدًا إذا ما قورن بما أُلّف عن الرجال.

قد حققت المرأة العربية وجودها الأدبي عبر العصور، ومردُّ قلة المروي من شعرها هو أنّ بعض المؤرخين لم يكونوا يحفلون بشعرها، فضاع منه الكثير، ولم يصل إلينا إلا النّزر القليل وإلاّ فكيف نفسر قول أبي نواس : « ما قلتُ الشعر حتى رويتُ لستين امرأة منهن الخنساء وليلى الأخيلية ». وقول أبي تمام : « لم أنظم شعرا حتى حفظتُ سبعة عشر ديوانًا للنساء خاصة »[1]. وهــا

[1] مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب، ج3، ص : 73 دار الكتاب العربي، بيروت، 1974



نحن أولاء لم يصلنا ديوان واحد معتمد لهنّ، وإنّ ما وصلنا هو بعض المقطعات كتلك التي جُمعت للخنساء[1]، وليلى الأخيلية[2]، وللخرنق[3].

ويبدو أن المؤرخين قد سيطرت عليهم فكرة خاطئة، صورت لهم أن الشاعرة العربية لا تحسن غير الرثاء، ولذلك حددوا مجالها الفني بالرثاء، وحده، وأهملوا شعرها في غيره. فابن سلام في طبقات الشعراء لم يذكر من النساء الشاعرات غير الخنساء، وحدد مكانها في طبقة شعراء المراثي[4]. وكذلك البُحتري في حماسته إذ أفرد الباب الأخير لمختارات من الرّثاء لعشر شاعرات[5]، وفي المفضليات[6] مرثية واحدة في خمسة أبيات لا مرأة من بني حنيفة مجهولة الاسم والعصر.

أمّا غير الرثاء فلا اهتمام به، وكأن المرأة لم تقل الشعر إلاّ في الرثاء، فابن سلام لم يجد مكانا للشاعرة ((ليلى الأخيلية)) بين شعراء طبقاته العشر من الإسلاميين ولم يذكرها إلاّ عرضا عند

(1) جمع ديوان الخنساء ونشره الآباء اليسوعيون بعنوان (أنيس الجلساء في ديوان الخنساء) سنة 1888. ببيروت، وطبعه الأب لويس شيخو للمرة الثانية سنة 1895 في بيروت أيضا، ثم طبعته دار التراث، ببيروت سنة 1968.

(2) جمع ديوان ليلي الأخيلية في 46 صفحة، قام بجمعه وتحقيقه : خليل العطية، وجليل العطية، وطبع ببغداد سنة 1967.

(3) جمع ديوانها يسري عبد الله، وطبعته دار الكتب العلمية ببيروت في حوالي 30 صفحة.

(4) ابن سلام : طبقات الشعراء، ص : 51 دار النهضة العربية، بيروت.

(5) البحتري : الحماسة، ص 269، دار المعارف، مصر.

(6) الضبي : المفضليات، ص : 273، دار المعارف، مصر.

حديثه عن النابغة الجعدي حين قـرّر « بأنّ ليلى الأخيلية غلبت عليه»[1]، وكذلك « سكينة بنت الحسين» التي كانت شاعرة وناقدة قل أن يعترف بها مؤرخو الأدب.

وهكذا لا نجد في المصادر العربية القديمة التي جمعت الشعر إلاّ قليلا من شعر النّساء، فالآمدي في « المؤتلف والمختلف» لم يذكر إلا بضْعَ شواعر، ولم يورد القرشي في « جمهرته» شاعرة واحدة، وكذلك فعل المرزباني في معجم الشعراء فلم يذكر امرأة.

ومهما يكن من أمر فإهمال المرأة العربية من قبل المؤرخين القدماء، وضياع أكثر شعرها، يعود إلى أسباب اجتماعية قاهرة تحكمت فيها، وكذلك إلى أسباب تاريخية، منها :

1-إن حركة الجمع والتدوين في العصر العباسي « قد نشطت على أيدي رجال عاشوا بعقلية مجتمع وأد المرأة معنويا، وعزلها عن الحياة العامة »[2] ومن ثم لم يكن لها في تصورهم أن تتحدث عن عواطفها... ولذا حصروا مجالها الفني في الرثاء.

(1) طبقات الشعراء، ص : 27.

(2) الدكتورة عائشة عبد الرحمن : الشاعرة المعاصرة، ص : 18، دار المعرفة القاهرة.

2-التعصب من قبل الرجال، وعدم اعترافهم بشاعرية المرأة، إذ كان شعرها تظرّفًا[1].

3- كان الرواة في عصر الجمع والتحصيل حراصا على الغريب، فكانوا يأخذون عن الأعراب، لأنهم كانوا يقدّرون في الشعر قيمته اللغوية، ولأن شعر النساء قليل الغريب، فلم يحفل الرواة بروايته... وكذلك وجدوا في شعر الرجال جزالة ورصانة فاحتفوا به، ووجدوا في شعر النساء رقة ولينا... فلم يحفلوا به[2].

وقد يكون في بعض الأسباب السالفة الذكر مبالغة، لأننا نجد مقابل ذلك جمعا آخر من القدماء قد اهتمّوا بالنّساء وأشعارهن فصنّفوا تآليف خاصة بهن، وسأذكر بعضا منها فيما يأتي :

1- ما ألف عنهن قديما :

أُلف بعض العلماء والرواة كتُبًا في أخبار النّساء، تناولوا فيها أحوالهن وطبائعهن وحياتهن وأشعارهن منها :

1-كتاب النساء للهيثم بن عدي، المتوفى سنة 207 هـ[3]

2-أخبار النساء للمدائني، المتوفى سنة 215 هـ[4]

[1] مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب، ج3، ص : 73.
[2] الدكتور أحمد الحوفي : أشعار النساء للمرزباني، مقالة منشورة بمجلة مجمع اللغة العربية، ص : 183 – 184. الجزء الرابع والعشرون : 1969 م، وانظر كتابه : المرأة في الشعر الجاهلي، ص : 605 – 606، دار نهضة مصر، القاهرة.
[3] انظر ابن النديم : الفهرست، ص : 449 – 450.
[4] انظر ابن النديم : المصدر نفسه ص : 453 وما بعدها.

3-كتاب أدب النساء لعبد الملك بن حبيب، المتوفى سنة 238 هـ[1]

4-كتاب النساء للجاحظ، المتوفى سنة 255 هـ[2]

5-كتاب بلاغات النساء لابن طيفور، المتوفى سنة 280 هـ[3]

6-كتاب النساء والغزل لمحمد بن خلف، المتوفى سنة 309 هـ[4]

7-طبائع النساء لابن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة 338 هـ[5]

8-كتاب أخبار النساء لهارون بن علي المنجم المتوفى سنة 376هـ[6]

9-أحكام النساء لابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ[7]

10- أخبار النساء لابن قيم الجوزية، المتوفى سنة 751 هـ[8]

ولم يقتصر التأليف على أخبار النساء بشكل عام، وإنما أفردوا للقيان كتبا كثيرة، منها :

[1] نشرته دار الغرب الإسلامي : بيروت، سنة 1992.
[2] انظر الأصبهاني : الإماء الشواعر، ص :8 .
[3] نشرته دار النهضة الحديثة ببيروت سنة 1972.
[4] انظر ابن النديم : المصدر نفسه ص : 655 – 656.
[5] حققه محمد سليم، ونشرته مكتبة القرآن الكريم للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة، سنة 1985
[6] انظر الأصبهاني : المصدر نفسه، ص : 8 وابن النديم : المصدر نفسه ص : 633.
[7] انظر حاجي خليفة : كشف الظنون، مج1، ص: 21، نشرته دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1985.
[8] نشرته دار مكتبة الحياة ببيروت، سنة 1979.

1-كتاب القيان ليونس الكاتب المعروف بيونس المغنّي، وهو فارسي الأصل، أدرك الدولة العباسية، وكان مولى للزبير بن العوام[1].

2-كتاب القينات للمدائني، المتوفى سنة 215 هـ [2]

3-كتاب القيان لاسحاق الموصلي، المتوفى سنة 235 هـ [3]

4-كتاب القيان للجاحظ المتوفى سنة 255 هـ [4]

5-كتاب القيان للوشاء، المتوفى سنة 325 هـ [5]

6-كتابات القيان لأبي الفرج الأصبهاني، المتوفى سنة 356 هـ [6]

7-كتاب القيان لابن حاجب النعمان[7] وغيرها[8].

---

(1) انظر ابن النديم : المصدر السابق، ص : 635.

(2) انظر الصفدي : الوافي بالوفيات، ج: 22، ص : 43 طبعة استانبول 1931.

(3) انظر ابن النديم : المصدر نفسه ص : 635.

(4) نشره أول مرة يوشع فنكل ضمن مجموع ثلاث رسائل بالقاهرة، سنة 1344هـ وأعاد نشره عبد السلام هارون ضمن رسائل الجاحظ بالقاهرة، سنة 1964.

(5) ذكره الوشاء في كتابه الموشي أو الظرف والظرفاء، قال في باب صفة ذم القيان: وقد أفردنا كتاب القيان لذم عظم القيان، فأغنى ما في ذلك عن تكثير هذا الباب..الخ (انظر ص: 158) وهو مفقود اليوم.

(6) حققه الدكتور يونس السامرائي ونوري القيسي، ونشرته دار عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ببيروت، سنة 1984.

(7) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، مج2، ص : 1451 وهو مفقود اليوم.
ـ تحت عنوان : ما ألف عن النساء، فقد ذكرفي مقالته أكثر من سبعين كتابا. غير أن أكثر تلك الكتب قد ضاعت فيما ضاع من تراث السلف.

(8) تراجع في هذا الموضوع مقالة الدكتور صرح الدين المنجد المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ الم جلد السادس عشر لسنة 1941، ص : 212 ما بعدها ـ تحت عنوان : ما ألف عن النساء، فقد ذكر في مقالته أكثر من سبعين كتابا. غير أن أكثر تلك الكتب قد ضاعت فيما ضاع من تراث السلف.

وامتدت حركة التأليف لتشمل أشعار النساء، فكان :

1-كتاب أشعـــار الجــواري للمفجّع الشــاعر الشيعي، المتــوفى سنة 327 هـ [1]

2-كتاب الإماء الشواعر لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة 356 هـ [2]

3-كتاب أشعار النساء للمرزباني، المتوفى سنة 384 هـ [3]

4-كتاب الحدائق الغناء في أخبار النساء لأبي الحسن بن محمد المعافري المالقي، المتوفى سنة 605هـ، وقد اشتمل على مجموعة من شواعر العرب في صدر الإسلام والعصر الأموي[4].

5-كتاب النساء لابن الطراح، المتوفى سنة 720 هـ، وهو في عدة مجلدات رأى السيوطي السادس منه، وليس بآخره[5].

---

(1) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء، ج17، ص : 194، طبعة درا المامون 1936.

(2) حققه الدكتور يونس السامرائي ونوري القيسي، ونشرته دار عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ببيروت، سنة 1984.

(3) حققه الدكتور سامي العاني وهلال ناجي، ونشرته دار الرسالة للطباعة ببغداد سنة 1976.

(4) حققته الدكتورة عائدة الطيبي ونشرته الدار العربية للكتاب.

(5) انظر حاجي خليفة : المصدر السابق، مج2، ص : 1466، والسيوطي : نزهة الجلساء، ص 8 وهو مفقود اليوم، لكن توجد نقول منه في مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس رقم 3066 عربيات.

6-كتاب نزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي المتوفى سنة 911 هـ[1].

أما الكتب التي صنفها الأقدمون في الأدب، والتاريخ والسير، والتراجم، والحماسات، والاختيارات، والمعاجم اللغوية والجغرافية، وغيرها... واهتموا فيها بتراجم الشعراء وأخبارهم، كما اهتموا بعض الشيء بتراجم النساء وأشعارهن، فهي كثيرة، ونذكر أهمها فيما يأتي:

1-كتاب السيرة النبوية لابن هشام، المتوفى سنة 218 هـ، وقد ذكر فيه عددًا مُهما من شواعر الجاهلية وصدر الإسلام.

2-كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، المتوفى سنة 230 هـ، وقد اشتمل على عدد مهم من شواعر العرب في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي.

3-كتاب الحماسة لأبي تمام، المتوفى سنة 231 هـ، وقد اختار صاحبه لثمان وأربعين شاعرة ممن عشن في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي.

4-كتاب الحماسة للبحتري، المتوفى سنة 254 هـ، وقد ذكر فيه أشعار ست عشرة شاعرة.

[1] حققه الدكتور صلاح الدين المنجد، ونشرته دار المكشوف، ببيروت سنة 1958.

5-كتاب البيان والتبيين والحيوان للجاحظ، المتوفى سنة 255 هـ، وقد ذكر فيهما أخبارًا وأشعارًا لعدد من شهيرات النساء من العصر الجاهلي إلى زمنه.

6-كتاب الكامل للمبرد، المتوفى سنة 286 هـ، وضمّنه صاحبه نصوصًا شعرية لشواعر من الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي.

7-كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري، المتوفى سنة 310 هـ، وقد أورد فيه مجموعة من الأشعار لشواعر من العصر الجاهلي إلى زمنه.

8-كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، المتوفى سنة 328 هـ، وقد اشتمل على نصوص شعرية هامة لشواعر جاهليات وإسلاميات..

9-كتاب مروج الذّهب للمسعودي، المتوفى سنة 346 هـ، وقد ذكر فيه صاحبه نصوصا شعرية لابأس بها من أشعار النساء...

10- كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، المتوفى سنة 356 هـ، وهو أكثر كتب الأدب اهتماما بالشعر النّسوي في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي...

11- كتاب الأمالي لأبي علي القالي، المتوفى سنة 356 هـ، وضمنّه صاحبه نصوصًا شعرية مهمة لشواعر جاهليات وإسلاميات...

12- كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، المتوفى سنة 463 هـ، وقد خصص القسم الأخير منه للصحابيات وسماه : كتاب النساء، وقد بلغ عدد من ذكرَهُ من الصحابيات أزيد من ألف، ومنهن صحابيات شاعرات.

13- كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، المتوفى سنة 571هـ، فقد خص شهيرات النساء بكتاب في نهاية مؤلفه، وجمع فيه أخبارًا وأشعارًا لزهاء ثلاثين شاعرة.

14- كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، المتوفى سنة 626 هـ، وقد اشتمل على نصوص شعرية مهمة لشواعر العرب في الجاهلية والإسلام.

15- كتاب الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن الحسين البصري، المتوفى سنة 656 هـ، وقد انتقى صاحبها لخمس وأربعين شاعرة من شاعرات العـرب في الجاهلية والإسلام. وتعـد الحماسية البصرية أكثر الحمـاسات اهتماما بالشعر النسـوي بعد حماسة أبي تمام.

16- كتاب المذاكرة في ألقاب الشعراء للمجد النّشابي الإبلي[1]، المتوفى سنة 657 هـ، وقد جعل الفصل الأول منه لذكر الإماء من شواعر النساء، وانتقى فيه أشعارا لثلاث عشرة شاعرة أغلبهن من العصر العباسي.

17- كتاب السيرة النبوية، والبداية والنهاية لابن كثير، المتوفى سنة 774 هـ، وقد ضمنهما نصوصا شعرية مهمة لشواعر العرب في الجاهلية والإسلام.

18- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852 هـ، وقد خص النّساء بكتاب مفصُول عن الرجال سماه كتاب النســاء، وجعله ضمن الجزء الأخير من كتــابه، وضمنه شعر بعض الصحـــابيات، وقد بلغ عدد من ذكره من الصحابيات 1551.

19- كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني، المتوفى سنة 1041 هـ، وقد خصص المؤلف حيزا مهما من كتابه لشواعر العرب في الأندلس، فذكر منهن أربعا وعشرين شاعرة.

[1] حقق الدكتور شاكر العاشور، فصلين من الكتاب، ونشرهما في مجلة معهد المخطوطات العربية التي تصدر بالكويت (المجلد 31 يوليو – ديسمبر 1987).

وهناك كتب أخرى روت أشعار النساء أيضا وبنسب متفاوتة ككتاب عيون الأخبار لابن قتيبة (تــ 276 هـ)، وكتاب طبقات الشعـــراء لابن المعتز (تــ 296 هـ)، وكتاب الموشى أو الظرف والظرفـــاء للوشـــاء (تــ325هـ)، وكتاب حماسة الظرفاء للعبدا لكناني الزوزني (تــ431 هـ)، وكتاب زهر الآداب للحصري القيرواني (تــ 488 هـ)، وكتاب حماسة ابن الشجري (تــ 543 هـ)، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (تــ 630 هـ)، وكتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (تــ 656 هـ)، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (تــ 681 هـ)، وكتاب لسان العرب لابن منظور (تــ 711 هـ)، وكتاب منح المدح لابن سيد الناس (734 هـ)، وكتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي (تــ 850 هـ)، وكتاب تزيين الأسواق للأنطاكي (تــ 1008 هـ)، وكتاب العروس للزبيدي (تــ 1205 هـ)، وغيرها.

2- ما ألف عنهن حديثا :

إن الدراسات الجادة في التراث النسوي، بشكل عام قليلة، وهي في الغالب مجرد محاولات لجمع وتوثيق كم معين من هذا التراث في فترة زمنية معينة دون تناوله بالدرس والتحليل. وفيما يأتي ذكر عدد من هذه المؤلفات :

1-كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب بنت يوسف فواز، نشر بالقاهرة سنة 1312 هـ. ولقد ذكرت المصنّفة عددا مهما من أسماء النساء الشواعر وغير الشواعر من العربيات والأجنبيات في القديم والحديث، ويبدو أنّ زينب فواز أول من تناول موضوع الشعر النسوي في العصر الحديث، ولكنّها مزجت الأخبار والتراجم بالأشعار، فكان عملها مجرد جمع لا غير.

2-كتاب المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفي، نشر بالمدينة المنورة عام 1932. وقد ذكر فيه نصوصا شعرية في أغراض شتى لشواعر من مختلف العصور.

3-كتاب شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت، نشرته المكتبة الأهلية ببيروت عام 1934. وقد جمع فيه قصائد ومقطعات لشواعر من الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي والأندلسي.

4-كتاب شهيرات التونسيات لحسن حُسني عبد الوهاب، نشر بتونس سنة 1353 هـ. وهو بحث تاريخي أدبي في حياة النساء الشواعر والنوابغ بالقطر التونسي، من الفتح الإسلامي إلى العصر الحاضر.

5-كتاب شهيرات المغرب للفقيه الكانوني، ويشتمل على ما يقرب من مائتي ترجمة من تراجم نساء المغرب الشهيرات، منهن الشاعرات وغير الشاعرات، ومن عصر الدولة الإدريسية إلى العصر العلوي، وهو مخطوط مفقود قد ذكره السيد الحمداوي في مقال منشور بجريدة المغرب.

6-كتاب غزل النساء لعيسى ميخائيل صابا، نشر ببيروت عام 1953، وهو بحث أدبي في غزل النساء في مختلف العصور، ولكنه اهتم بجمع النصوص دون تحليلها ودراستها دراسة علمية.

7-كتاب المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي، نشر بالقاهرة عام 1954. وهو بحث جيد، وقد خصص الباحث فصلا لشعر النساء في الجاهلية.

8-كتاب أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة، نشر في دمشق عام 1959 في خمسة أجزاء، وقد اشتمل على أخبار وتراجم لنساء وشواعر عربيات ومسلمات غير عربيات وقد حذا حذو بشير يموت في تأليفه فجمع قصائد ومقطعات لشواعر من الجاهلية، وصدر الإسلام، والعصر الأموي، والعباسي والأندلسي ولكنه أضاف نصوصا شعرية لم ترد في كتاب بشيريموت، وجعل كتابه

على حروف المعجم ليسهل تناوله. وقد بلغ عدد من ذكر من الشاعرات ثلاثا وأربعين ومائتين.

9- كتاب المرأة في أدب العصر العباسي للدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأطرقجي، نشر ببغداد عام 1981. وقد أفردت الباب الأخير من الكتاب لأدب المرأة في العصر العباسي... وسارت فيه على النهج نفسه الذي سار عليه الدكتور أحمد الحوفي في كتابه المرأة في الشعر الجاهلي.

10- كتاب أدب النساء (النثر) وأشعار النساء في الجاهلية والإسلام للدكتور محمد بدر معبدي، نشرا بالقاهرة، الأول سنة 1983، والثاني سنة 1986. وقد تناول فيهما أدب النساء عبر مراحله المختلفة.

11- كتاب شاعرات العرب في الجاهلية، وشاعرات العرب في الإسلام لجورج غريب، نشرا ببيروت، الأول سنة 1984، والثاني سنة 1985. والكتابان لا يختلفان كثيرا عن مؤلفي بشير يموت وعبد البديع صقر. بيد أنه فصل بين الجاهليات والإسلاميات فجعل لكل عصر كتابا، وكان يحلل الأبيات والقصائد أحيانا ويعلق عليها.

12- كتاب الشاعرات من النساء – أعلام وطرائف – لسليم التنير، نشر بدمشق سنة 1988. وقد ذكر فيه أخبار نيف

ومائة من شهيرات النساء الشواعر في المشرق والمغرب من الجاهلية إلى العصر الأندلسي.

13- كتاب الشعر النسائي في أدبنا القديم للدكتورة مي يوسف خليف، نشر عام 1991 بالقاهرة. وقد شملت دراستها الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي والأندلسي.

14- كتاب المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي لعبد الهادي التازي، نشر بالمغرب عام 1992. وقد ذكر المصنف مائتين واثنين وخمسين من أسماء النساء، ولكن كثيرا منهن لسن شواعر، فيهن المتصوفات والمقرئات والقانتات، والمحدثات، والمفسرات، والفقيهات، والطبيبات، والأديبات، والشاعرات، وغيرهن.

15- كتاب الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية لسعد بوفلاقة ، نشر بالجزائر عام 1995.

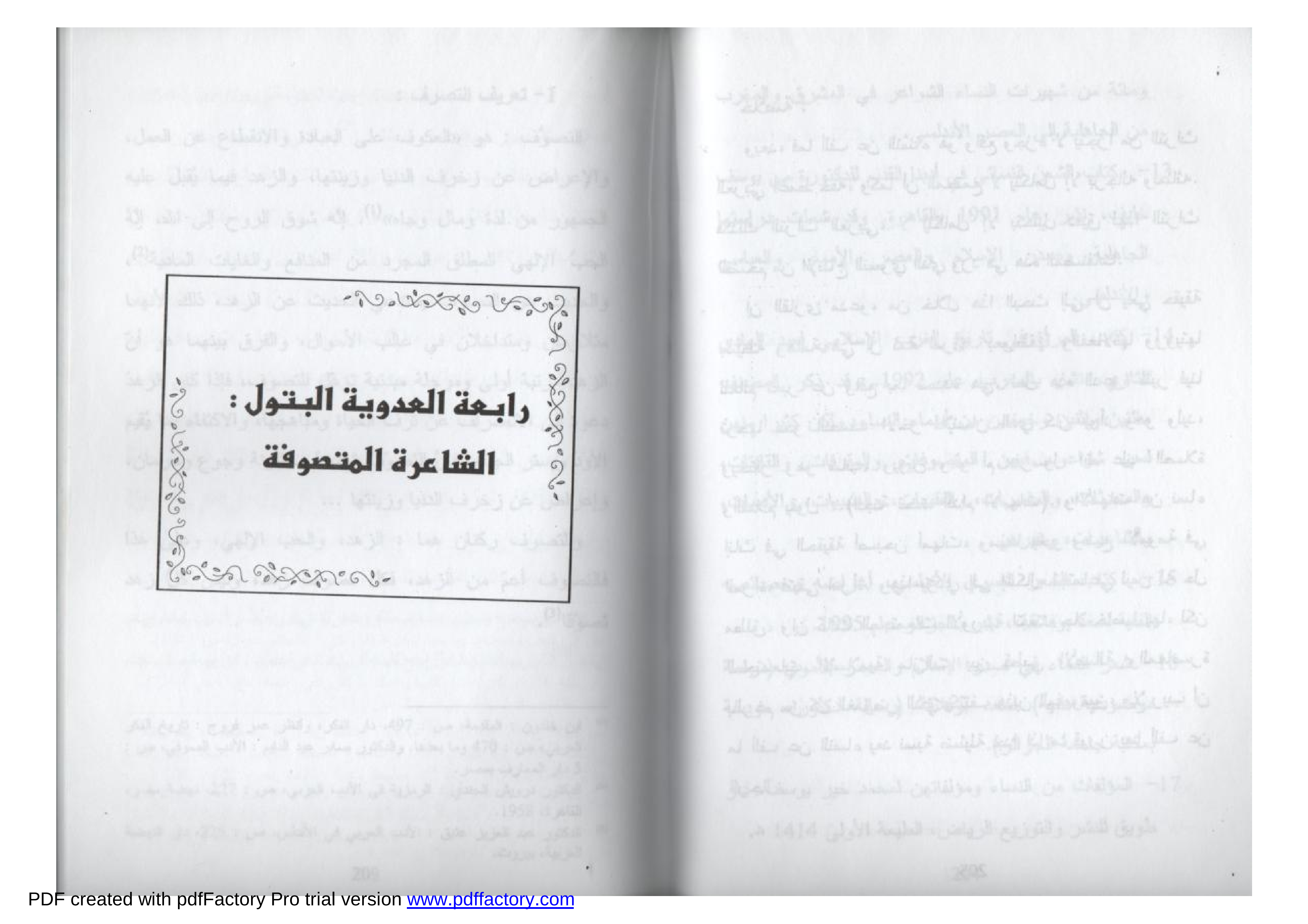
16- شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي (دراسة موضوعية فنية) لسعد بوفلاقة (رسالة دكتوراه مودعة بمكتبة جامعة الجزائر).

17- المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن لمحمد خير يوسف، دار طويق للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة الأولى 1414 هـ.

خلاصة :

وبعد، فما ألف عن النساء هو واقع وجزء لا يتجزأ من التراث العربي أغمط حقه، وكما أن المجتمع لا يتكامل إلا برجاله ونسائه. فكذلك التراث العربي، لا يتكامل إلا بتحليل دقيق لهذا التراث الضخم من الإنتاج النسوي الذي ورد في هذه المصنفات.

إن القارئ مدعو، من خلال هذا البحث إلى أن يعي حقيقة بسيطة وهامة هي أن ثمة امرأة بعواطفها وانفعالاتها ورؤيتها العالم تعبر عن واقع بما تحدده هي. لعل هذه الدعوة تثير فينا توجها نحو النصف الآخر للإنسان الذي كان يوأد وهو وليد، ويحتقر وهو شاب، ويؤبن وهو أم. فرسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : (الجنة تحت أقدام الأمهات). والأمهات هن نساء إناث في الحقيقة أصبحن أمهات، ومهما يغير وضع الأمومة في المرأة، فتبقى امرأة. وهذا يؤدي إلى إشكال اجتماعي ليس له حل مطلق، وإن كانت المجتمعات الأوربية اتبعت حلا خاصا بها، لكن المجتمعات الإسلامية مازالت بين قطبي الأصالة والمعاصرة بالرغم من كل الغموض الذي يكتنف هذين المفهومين، ولا ريب أن ما ألف عن النساء يعد نسبة ضئيلة جدا إذا ما قورن بما ألف عن الرجال.



رابعة العدوية البتول :
الشاعرة المتصوفة

1- تعريف التصرف :

التصوُّف : هو «العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه»[1]. إنَّه شوق الروح إلى الله، إنَّهُ الحبُّ الإلهي المطلق المجرد من المنافع والغايات المادية[2]، والحديث عن التصوف يستدعي الحديث عن الزهد، ذلك لأنهما متلازمان ومتداخلان في غالب الأحوال، والفرق بينهما هو أنّ الزهد مرتبة أولى ومرحلة مبدئية تؤهّل للتصوف، فإذا كان الزهدُ دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها، والاكتفاء بما يُقيم الأوَدَ ويستر الجسم، فإنَّ التّصوّف شظفٌ وخشونة وجوع وحرمان، وإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ...

وللتصوف ركنان هما : الزهد، والحب الإلهي، وعلى هذا فالتصوف أعمّ من الزهد، فكل تصوفّ زهد، وليس كلُّ زهد تصوّفًا[3].

(1) ابن خلدون : المقدمة، ص : 497، دار الفكر، وأنظر عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي، ص : 470 وما بعدها. والدكتور صابر عبد الدايم : الأدب الصوفي، ص : 5 دار المعارف بمصر.

(2) الدكتور درويش الجندي : الرمزية في الأدب العربي، ص : 227، نهضة مصر، القاهرة، 1958.

(3) الدكتور عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس، ص : 225، دار النهضة العربية، بيروت.

2- رابعة العدوية رائدة شعر التصوف :

ومن الشواعر اللائي اشتهرن بالشعر الصوفي رابعة العدوية : وهي أمُّ الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية، مولاة آل عتيك. وُلدت في أسرة فقيرة مغمورة بعد ثلاث أخوات كانت هي الرابعة، ويبدو أن مولدها كان منتصف القرن الأول للهجرة.. مات والدها وهي لا تزال طفلة، وبعد وفاته لحق البصرة قحط شديد، فخرجت رابعة وأخواتها الثلاث، وهُنّ في عمر الزهور، يبحثن عن الرزق. ويَهِمْن على وجوههنّ، فتاهت رابعة في الطريق ولم تستطيع أن تهتدي إلى أخواتها، فوقعت في أسر رجل ظالم أذاقها أنواع الذل والهوان، ثم باعها بثمن بخس إلى رجل آخر كانت في بيته أسوأ حالا مما كانت عليه في البت الأول، ولكنّه أعتقها بعد مدة في حديث طويل[1]، فعملت برهة في الغناء والعزف على الناي وما يتصل بهمَا... ولكنّها تابت بعد ذلك وحملها ندمّها على ماضيها أنْ تُمْعِنَ في الزهد والتصوف، وتصبح صوفية كبيرة وعابدة مشهورة "وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة"[2] حتى

[1] انظر خبرها بالتفصيل في : ابن خلكان : وفيات الأعيان، مج 2، ص: 285 وما بعدها. وابن العماد : شذرات الذهب، ج1، ص: 193. وزينب فواز : الدر المنثور، ص : 202 – 203. وعمر كحالة : أعلام النساء، ج1، ص : 430 وما بعدها. وعبد المنعم قنديل : رابعة العدوية... مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة. وعبد الرحمن بدوي : رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962.

[2] ابن خلكان : المصدر نفسه، مج 2، ص : 285.

أصبح كبار المتصوفة في عصرها يستفتونَهَا في دقائق التصوف كسفيان الثوري[1] والحسن البصري[2] وغيرهما ...

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة رابعة العدوية، فقال ابن خلكان: « وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة، كما في شذور العقود لابن الجوزي، وقال غيره : سنة خمس وثمانين ومائة... وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقيّه على رأس جبل يسمى الطور»[3]، والشيء نفسه نجده عند ابن العماد الحنبلي، فقد ذكرها مع وفيات سنة خمس وثلاثين ومائة، ثم قال : « وقيل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة»[4]، وجعل وفاتَهَا أيضا سنة خمس وثلاثين ومائة كلُ من سليمان سليم البواب[5]، وعمر رضا كحالة[4][6]، وعبد البديع صقر[7]، وفي رواية أنّها توفيت سنة ثمانين ومائة بعد الهجرة[8]، ويبدو أنّ التاريخ الأقرب إلى الصواب

[1] سفيان الثوري : كان سيد زمانه في علوم الدين والتـقوى، وُلـد ونشأ في الكوفة ثم انتقل إلى البصرة فمات فـيها سنة 161 هـ (الزركلي : الأعلام، مج 3، ص : 104).

[2] الحسن البصري : تابعي، كان إمام أهل البصرة، وُلِدَ في المدينة وأقام في البصرة حيث توفي سنة 110 هـ. كان عالما وفقيها وناسكا... (الزركلي : نفسه، مج 2، ص : 226).

[3] ابن خلكان : المصدر السابق، مج 2، ص : 287.

[4] شذرات الذهب، ج1، ص : 193.

[5] مائة أوائل ن النساء، ص : 362.

[6] أعلام النساء، ج1، ص : 432.

[7] شاعرات العرب، ص : 124.

[8] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، اقتبسه عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء، ج1، ص : 432 (هامش1). وعبد المنعم قنديل : رابعة العدوية، عذراء البصرة البتول، ص : 239. مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

هو سنة خمس وثلاثين ومائة للهجرة، لأنّ المصادر التي قالت بهذا التاريخ ذكرته كخبرٍ صحيح بينما شكّكتْ في الروايتين الأخريين باستعمالها الفعل المبني للمجهول "قيل" أو قال بعضهم..، وكذلك ذكرت هذه المصادر أنّ الكثيرين من معاصريها تقدّموا لخطبتها ومنهم الحسن البصري[1]، وهو توفى سنة عشر ومائة للهجرة، فمن غير المعقول أن يكون خطبها أو اتصل بها إذا كانت توفيت سنة 180هـ أو 185هـ عن عمر يناهز الثمانين سنة حسب ما ورد في بعض المصادر، لأن عمرها عند وفاته زهاء عشر سنوات، وإذن فالأقرب إلى الصحة أن تكون توفيت سنة 135 هـ.

وتعد رابعة العدويةُ من أوائل المتصوفة المسلمين، وإليها يُنسب مؤرخو الصوفية البدءَ بالكلام عن الحب الإلهي والتوسع فيه[2]. ولها أقوال مأثورة وأشعار منظومة، ورابعة معروفة كمتصوفة، وقد كُتِب عنها الكثير في هذا المجال، أمّا كشاعرة فلم يُدرسْ شعرُها دراسة وافية حتى الآن باستثناء بعض الدراسات التي تناولته عرضا عند حديثها عنها كمتصوفة، ولذلك سأقتصر في حديثي على شعرها.

(1) بشيريموت : شاعرات العرب، ص : 152.
(2) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي، ج2، ص : 129.

كتبتْ رابعة العدوية شعرا صوفيا، ويبدو أنّها اكتفت بهذا الباب إذ لم يصلنا شعرٌ لها في بقية الأبواب، وأشهر ما أنشدته في هذا الباب قولها :

أحِبُكَ حُبّين : حُـبُّ الهَوَى ... وحُبًّـا لأنــك أهـلٌ لِـذَاكَا
فأمّا الذِي هُـوَ حُبُّ الهَوَى ... فَشُغْلِي بِذِكـرِكَ عَمَّنْ سِـوَاكَا
وأمّا الـذِي أنْتَ أهـلٌ لهُ ... فَكَشْفُكَ لي الحُجْبَ حَتَّى أرَاكَـا
فَلاَ الحَمْدَ فِي ذَا وَلاَ ذَاكَ لِي ... ولكِنْ لكَ الحَمْدُ فِي ذَا وذَاكَـا[1]

تصرّح الشاعرة بحبّها لله جلّ شأنه، فتقول : إنّني أحبّك يا إلهي حبّين مجتمعين : أولّهما حب العشق والهوى لأنّني فتنتُ بحسنك، وثانيهما فهو حب التعظيم والإجلال لأنّك جدير بهَذا الحُب، ولا أجد من يستحقّه سواك. وكيف لا ؟ وقد كشفت لي الحجب فرأيتك بعين الخيال على حقيقتك، ولست أنا صاحبة الفضل في هذا الحب فهو من المحبوب نفسه لأنه مُستحق له لكماله، فله الحمد أوّلا وأخيرا.

وقالت تتغزّل في الذات الإلهية كما تتغزّل عاشقة في بشر، فحبيبُها وإنْ غاب عن بصرها فهو شاخص قبالة فؤادها لا يغيب عنه :

(1) زينب فواز : الدر المنثور، ص : 203. وبشيريموت : شاعرات العرب، ص : 153. وخديجة القماح ومحمد علي أحمد : رابعة العدوية، ص : 84. نشر مكتبة رجب القاهرة، ط2، 1983. وانظر السراج : مصارع العشاق مج 1، ص 274 ـ275.

حَبيب لَيْـسَ يَـعْـدِلُـهُ حَـبيبٌ   ومَا لِسِوَاهُ فِي قَلْبِي نَصِيبٌ

حَبِيبٌ غَابَ عَنْ بَصَرِي وشَخْصِي   ولكنْ عَنْ فُؤَادِي ما يَغِيبُ[1]

وقالت تصفُ انصرافها عن الناس بروحها ونفسها وحسّها إلى الله تعالى ولو كانت بجسمها معهم :

إنّي جَعَلْتُك في الفُؤَادِ مُحَدِّثي   وأبحْتُ جِسمِي مَنْ أرادَ جُلُوسي

فالجِسمُ مني لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ   وحَبِيب قلبي فِي الفُـؤَادِ أنِيسِي[2]

وكانت رابعة زاهدة في الدنيا تنام على حصيرة بالية، وتتوسد قطعة من الحجر، وتشرب من إناء مكسور. وتقضي ليلها تصلي لله وتناجيه قائلة :

وزَادِي قَلِيل ما أراهُ مُبَلِّغِي   ألِلزّادِ أبكِي أمْ لِطولِ مَسَافَتِي

أتَحرقُنِي بالنَّارِ يا غَايَةَ المُنى   فأينَ رجَائِي فيكَ أيْنَ مَخَافَتِي[3]

ويبدو أنها لم تلبث أنْ تغيّرت في حبّها للذات الإلهية في غير رهبة أو رغبة، فهي لا تعبده خوفا من النار أو طمعا في الجنة، وإنما تعبدُه استغراقا في الحبِّ لذاته، ذكر العطار أنّ رابعة كانت تقول : « إلهي إنْ كنتُ عبدتُكَ خوف النار فاحرقني بالنّار، أو

---

[1] بشيريموت : شاعرات العرب... ص:152. وعبد البديع صقر: شاعرات العرب، ص:125. وروحية القليني: شاعرات عربيات، ص: 68، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت.

[2] بشيريموت : المرجع نفسه ص : 152. وخديجة القماح ومحمد علي أحمد : رابعة العدوية، ص : 80. وابن خلكان : وفيات الأعيان، مج 2، ص : 286 – 287.

[3] خديجة القماح ومحمد علي أحمد : المرجع نفسه. ص : 72 – 73.

طمعا في الجنة فحرّمها علي، وإنْ كنتُ لا أعبُدكَ إلا من أجلك، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك»[1].

ويذكر أنّها عزفت عن الزواج لأنّها لا تريد أنّ يشغلها شاغل عن حبِّ الله، وقد رفضت من تقدم إليها من الخطاب، وكان منهم أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي، والصوفي عبد الواحد بن زيد، والحسن البصري، ثم أنشدت تقول :

رَاحَتِي يَا إخْوَتِي فِي خَلْوَتِي   وحَبِيبِي دَائِـمًا في حَـضْرَتِي

لَمْ أجِدْ لِي عَنْ هَوَاهُ عِـوضًا   وهَـواهُ في البَـرَايَا مِـحْنَتِي

حَيْثُمَا كُنْتُ أشَـاهِدُ حُسْنَهُ   فَـهُوَ مِحْـرَابِي إلَـيهِ قِبلتي

إنْ أمُتْ وجْـدًا ومَا ثمَّ رِضَا   وَاعنَائِي فِي الـوَرَى واشِقْوتي

يا طَبِيبَ القلبِ يا كُـلَّ المُنى   جُدْ بوصلٍ مِنْكَ يشفي مُهْجَتِي

يا سُرُورِي يا حَيَاتِي دَائِـمًا   نَشْـأتي مِنْـكَ وأيْضًا نَشْوَتِي

قَدْ هَجَرْتُ الخَلْقَ جَمْعًا أرْتَجِي   مِنكَ وصْلا فَهُوَ أقْصَى مُنْيَتِي[2]

وهكذا لقد استولى حب الإله على نفس رابعة، وتربع في أحشائها وسكن مهجتها فأصبحت تطلب وصاله ورضاه كما تتغزّل عاشقة في بشر مثلها، وهي تكرر نفسها دائما في معظم قصائدها،

---

[1] تذكرة الأولياء، ج1، ص : 71 – 72. اقتبسته الدكتورة واجدة مجيد في كتابها : في العصر العباسي ص : 330. دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981.

[2] بشيريموت : شاعرات العرب، ص : 152. وأنظر عن خطاب رابعة وأسباب رفضها للزواج : عبد المنعم قنديل : رابعة العدوية، ص : 49 وما بعدها.

فمعانيها لا تخرج عن حُبّها لله وفنائها فيه، وزهدها في الدنيا لانشغالها بالخالق، فهو راحتها في خلوتها وهو قبلتها[1]...

يا سُروري ومُنيَتي وعِمَادي   وأنِيسي وعُدّتي ومُرادي
أنتَ رُوحُ الفؤادِ أنتَ رَجَائي   أنتَ لي مُؤنِسٌ وشَوقُكَ زادي
أنتَ لولاكَ يا حَيَاتي وأنسي   ما تشتَّتُ في فسيحِ البلادِ
كمْ بَدَتْ مِنَّةٌ وكمْ لكَ عِنْدي   مِنْ عَطَاءٍ ونِعْمةٍ وأيَادِ
حُبُّكَ الآن بُغيَتي ونَعِيمِي   وجلاءٌ لعيْنِ قلبي الصّادي
لَيسَ لي عَنْكَ يا حَبِيبُ براحٍ   أنتَ مِنّي مُمكّنٌ في الفؤادِ
إنْ تكُنْ راضيًا عَليَّ فإنّي   يا مُنى القَلبِ قد بَدَا إسْعَادي[2]

وكثيرا ما كانت تناجيه راجية مرضاه، ولا يهمها بعد ذلك إنْ غضب الأنام طرًا، تقول :

وليْتَكَ تحْلو والحياةُ مريرةٌ   وليتَكَ ترْضى والأنامُ غِضابُ
وليْتَ الذي بيْني وبيْنَكَ عامرٌ   وبيني وبيْنَ العالمين خرابُ
إذا صحَّ منْكَ الودُّ فالكلُّ هيّنٌ   وكلُّ الذي فوْقَ التُّراب تُرابُ[3]

وممّا نُسِبَ إليها أيضا قولها :

كأسي وخَمري والنّديمُ ثلاثةٌ   وأنا المشوقةُ في المَحبَّةِ رابعةْ

[1] روحية القليني : شاعرات عربيات، ص : 68 – 69.
[2] عبد البديع صقر : شاعرات العرب، ص : 124 – 125 والشيخ الخريفيش، الروض الفائق، اقتبسه عبد الرحمن بدوي في كتابه : شهيدة العشق الإلهي، ص 23.
[3] روحية القليني : شاعرات عربيات، ص : 69.

كأسُ المسرةِ والنعيمِ يُديرُها   ساقي المُدامُ على المَدى مُتتابعةْ
فإذا نظرْتُ فلا أرى إلا لهُ   وإذا حضرْتُ فلا أرى إلا معهْ
يا عاذلي إنّي أحِبُّ جَمالهُ   باللهِ ما أذْني لعذْلِكَ سامِعَةْ
كمْ بتُّ منْ خرقي وفرطِ تَعلّقي   أجْري عُيُونًا منْ عُيُوني الدامِعَةْ
لا عَبْرَتي ترْقى ولا وَصْلي لهُ   يَبْقى ولا عيْني القريحَةَ هاجِعهْ[1]

ويبدو أن المقطوعتين الأخيرتين من أجمل ما قالت رابعة العدوية من ناحية الأسلوب والصياغة، فأسلوبُها سلس، وصياغتها اللفظية واضحة مألوفة قريبة المتناول، لا تعقيد فيها ولا تكلف.

وذكر صاحب مصارع العشاق أن رابعة العدوية كانت قد انقطعت عن التّهجُّد وقيام اللّيل إثر علّة، فرأت في منامها حُلمًا مفاده أنّهَا بانقطاعها عن قيام الليل قد أغضبت الرحمن، وكادت تفقد بهذا ما حصّلتهُ من قبل بتهجدها، ولهذا أقبلت عليها الحورية التي رافقتها في تجوالها في الجنة، إبّان هذه الرؤيا، وقد رأتْ انصراف الوصفاء عنها، وقالت تُؤنّبُها بهذين البيتين :

صلاتُكِ نورٌ والعبادُ رُقودُ   ونوْمُكِ ضِدٌّ للصلاةِ عنيدُ
وعمرُكِ غنْمٌ إنْ عقلْتِ ومُهْلَةٌ   يَسيرُ ويَفْنى دائمًا ويبيدُ

ثمَّ غابت الحورية من بين عينيها، واستيقظت رابعة حين تبدّى الفجر مدعورة، وعادت إلى ما كانت عليه من قيام ليل وتهجّد[2].

[1] روحية القليني : المرجع نفسه والصفحة نفسها
[2] انظر الخبر والبيتين في السراج : مصارع العشاق، مج 1، ص : 207 – 208.

وروى السّراجُ أيضا في مكان آخر من مصارع العشاق، عن ذي النُّون الصوفي المشهور، أنّه قال : « بينما أنا أسير على ساحل البحر، إذ بصرتُ بــجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلةٌ ذابلةٌ، فدنَوْتُ منها لأسمع ما تقول، فرأيتُها متّصلة الأحزان بالأشجان، وعصفتِ الرياحُ واضطرابتِ الأمواجُ... فصرختْ، ثمّ سقطتْ إلى الأرض، فلمّا أفاقتْ نحبَتْ، ثمّ قالت : سيدي إليكِ تقرّبَ المتقرّبون في الخَلواتِ، ولعَظَمَتِكَ سبّحت الحيتانُ في البحار الزاخرات، ولجلال قُدسِكَ تصافقتِ الأمْواجُ المُتلاطِماتُ. أنت الذي سجد لكَ سواد الليل، وبياضُ النّهار، والفلكُ الدّوّارُ، والبحرُ الزّخّارُ، والقمرُ النّوارُ والنّجْمُ الزّهّارُ، وكلّ شيء عِنْدكَ بمقدار، لأنّكَ اللهُ العليُّ القهّارُ :

يا مؤنسَ الأبْــرار في خَلَواتهم ـــ يا خيْرَ منْ حطّت به النّــزّالُ

من ذاقَ حُبّكَ لا يزالُ مُتيّمًا ـــ قَــرِحَ الفُــؤادِ يعُودُهُ بلبـــالُ

من ذاقَ حُبّكَ لا يُرى مُتبسّمًا ـــ في طُولِ حُزْنٍ لِلحشا يَغْتالُ

فقلتُ لها : مَنْ تُريدين ؟ فقالتْ : إليك عنّي، ثم رفعتْ طَرفها نحو السماء فقالتْ : أحبُّكَ حُبّين (الأبيات السالفة الذكر). ثم شهقتْ، فإذا هي قد فارقتْ الحياة....»[1]

(1) السراج : المصدر السابق، مج 1، ص : 274 – 275.

3- خصائص شعرها :

وفي ختام حديثنا عن شعر رابعة العدوية يجدر بنا أن نسجل الملاحظات التالية من خلال ما وصلنا من شعرها.

1- إنّ أوّل ما نسجله هو أنّ شعرها كان قليلا بالقياس مع شهرتها التي شرّقت وغرّبتْ، إذّ لم يتجاوز عدد القصائد التي وصلتنا من شعرها العشر... ولعلّ شهرتها كانت بسبب كونها رائدة الحب الإلهي والعشق الرباني في الإسلام.

2- اقتصر شعرها على غرض واحد من الأغراض الشعرية وهو الشعر الصوفي، فشعرها لا يخرج عن حبها لله وفنائها فيه وزهدها في الدنيا لانشغالها بحب الخالق وهي سبّاقة في هذا الغرض.

3- وكان شعرها من حيث قيمتّه الفنية في مجمله قليل التكلف بعيدا عن الخيال والتفلسف، خاليا من العبارات المنمقة، ضعيف المبنى، عميق الدّلالة.

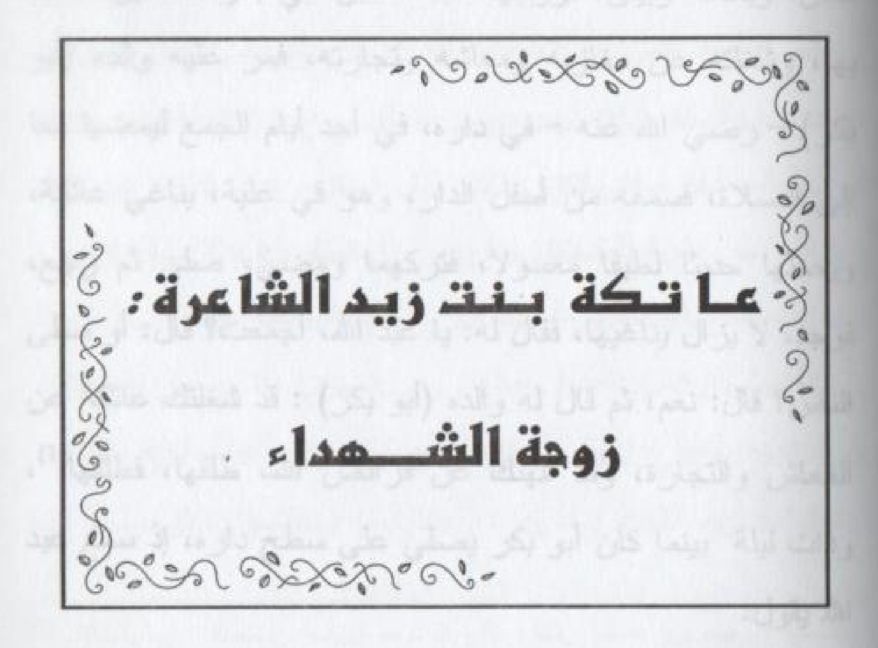
4- يتميز شعرها بالشعور الديني الصادق والعاطفة الجياشة، ولكن معانيها متكررة في أحايين كثيرة، ولا تخرج معانيها في الشعر عن معانيها في النثر، حبها لله وفناؤها فيه...

كانت هذه هي رابعة العدوية الشاعرة التائبة الزاهدة العابدة الناسكة المتصوفة التي أقرَّ لها كثيرون من الدارسين بمركز الريادة في الحب الإلهي، وبالأستاذية لكلِّ الذين جاءوا من بعدها واستهدوا

بهَديها كابن الفارض[1] والشريف الرضي[2] وريحانة وميمونة وغيرهم.

(1) هو عمر بن أبي الحسن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، ولد سنة 576 هـ وتوفي سنة 632 هـ وهو من أشهر المتصوفين ويلقب بسلطان العاشقين. أنظر (الزركلي : الأعلام، مج 5، ص : 55. وابن خلكان : وفيات الأعيان، مج 3، ص : 454 وما بعدها. والحنبلي : شذرات الذهب، ج5، ص : 149 ...).

(2) محمد بن الحسين أبو الحسن المعروف بالشريف الرضي، مولده ووفاته في بغداد (359 – 406) هـ وهو أشعر الطالبيين... (انظر : الزركلي: المصدر نفسه، مج 6، ص : 99. وابن خلكان : المصدر نفسه، مج4، ص : 414 وما بعدها).



هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أخت سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شاعرة من شواعر العرب في صدر الإسلام، كانت على جانب كبير من الجمال وحسن الخلقة، ساحرة جذابة، تأخذ بمجامع القلوب، وتسلب الحليم عقله، فتدعه هائما، كما كانت ذات خلق حسن، ورجاحة عقل، وجزالة رأي، وفصاحة لسان، وبلاغة وبيان، تزوجها عبد الله بن أبي بكر الصديق، فأخذ بها، وشغلته عن مغازيه ومعاشه وتجارته، فمر عليه والده (أبو بكر) – رضي الله عنه – في داره، في أحد أيام الجمع ليمضيا معا إلى الصلاة، فسمعه من أسفل الدار، وهو في علية، يناغي عاتكة، ويحدثها حديثا لطيفا معسولا، فتركهما ومضى، صلى ثم رجع، فوجده لا يزال يناغيها، فقال له: يا عبد الله، أجمعت؟ قال: أو صلى الناس؟ قال: نعم، ثم قال له والده (أبو بكر) : قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة، وقد ألهتك عن فرائض الله، طلقها، فطلقها[1]، وذات ليلة بينما كان أبو بكر يصلي على سطح داره، إذ سمع عبد الله يقول:

أعاتك لا أنساك ما ذر شـــارق   وما ناح قمري الحمام المطـــوق

أعاتك قلبي كل يوم وليـــلـــة   لديك بـــما تخفي النفوس معلـــق

---

[1] الأصفهاني: الأغاني مج 18 ص: 8، وانظر أيضا: ابن حجر: الإصابة، ج4، ص:346، وابن سعد: الطبقات مج8، ص: 265 و ما بعدها.

لها خلق جزل و رأي ومنطق وخلق مصون في حياء و مصدق

فلم أر مثلى طلق اليوم مثلهـا ولا مثلها في غير شيء تطلق [1]

حينئذ أدرك أبو بكر ما يجيش في نفس ولده، وما يتأجج في فؤاده، فرق له، وأشفق عليه، وأمره بمراجعتها، فقال عبد الله: أشهدك أني قد راجعتها ومن شدة فرحه أعتق غلامه أيمن، قائلا له: أنت حر لوجه الله[2] يا أيمن أشهدك أني راجعت عاتكة، ثم خرج يجري إليها، وهو يقول:

أعاتك قد طلقت في غير ريبـة وروجعت للأمر الذي هو كـائن

كذلك أمر الله غـاد و رائـح علـى الناس فيه ألفة و تبايـن

و مازال قلبي للتفرق طـائرا وقلبي لمـا قد قرب الله ساكن

ليهنك أني لا أرى فيك سخطة وأنك قد تمت عليك المحاسـن

فإنك ممن زيـن الله وجهـه وليس لوجه زانه الله شـائن [3]

ثم وهبها حديقة له، واشترط عليها ألا تتزوج أحدا بعده، فلما قتل بالسهم الذي أصابـه بالطائف[4]، جزعت عاتكة جزعا شديدا،

---

(1) الأصفهاني : المصدر السابق، ص: 8 و9. وانظر أيضا: ابن حجر : المصدر السابق ج4، ص:346 وذرّ شارق: طلعت الشمس وأشرقت.

(2) الأغاني: مج18، ص 9 و الإصابة: ج4، ص 355.

(3) الأغاني: مج 18 ، ص 9.

(4) الطائف: تقع في الإقليم الثاني، وعرضها إحدى وعشرون درجة، وبها عقبة، وهي على مسيرة يوم للطالع من مكة، و نصف يوم للهابط من مكة، عمرها حسين بن سلامة و سدها ابنه وهو عبد نوبي وزرلابي الحسين بن زياد صاحب اليمن في حدود سنـة 430م، ولما جاء الإسلام، افتتحها رسول الله (ص) سنة تسع من الهجرة، وقد شهد عبد الله مع رسول الله (ص) غزوة الطائف فأصابه سهم فمات منه، بعد ذلك في المدينة (أنظر: الحموي: معجم البلدان، مج 4، ص:8).

وتأثرت كثيرا لموته، وبكته بكاء مرا، فقالت:

رزئـت بخيـر الناس بعد نبيهم وبعد أبي بكر و ما كان قصـرا

فلله عينا من رأى مثلـه فتـى أكر و أحمى في الهياج وأصبـرا

إذا شرعت فيه الأسنة خاضـها إلـى الموت حتى يترك الرمح أحمرا

فاقسمت لا تنفك عيني سخينة عليـك، ولا ينفك جلدي أغبـرا

مدى الدهر ما غنت حمامة أيكة ومـا طرد الليل الصباح المنورا [1]

ثم خطبها عمر بن الخطاب[2]، إلا أن الشرط الذي اشترطه عليها عبد الله بن أبي بكر، حين راجعها ووهبها الحديقة؛ في أن لا تتزوج أحدا بعده، قد كان عائقا، فقال لها عمر: استفتي: فاستفتت علي بن أبي طالب، فقال : ردي الحديقة على أهله وتزوجي، ففعلت، ثم تزوجت عمر سنة اثنتي عشرة من الهجرة فأولم عمر ودعا أصحاب رسول الله (ص)، وفيهم علي بن أبي طالب، فقال علي لعمر: دعني أكلم عاتكة، إن لي حاجة أريد أن أذكرها إياها فقل لها تستتر، فقال لها عمر استتري يا عاتكة فإن عليا يريد أن يكلمك، فاستترت، فقال لها : ألست القائلة ؟.

---

(1) الأصفهاني : المصدر السابق والصفحة نفسها وابن قتيبة: عيون الأخبار، ج4، ص 144 وأبو تمـام: الحماسة، مـج3، ص:70- و القـرطبي: الاستيعـاب، ج4، ص : 355 . (مع الاختلاف في ترتيب الأبيات وعددها)

(2) الأغاني، المصدر السابق. ويذكر القرطبي أن الذي تزوجها بعد عبد الله هو: زيد بن الخطاب ثم قتل عنها يوم اليمامة شهيدا (الاستيعاب، ج4، ص:355).

فاقسمت لا تنفك عيني سخينـــة عليك، ولا ينفك جلدي أغبرا

يذكرها برثائها لعبد الله ويعيرها بنقضها للعهد، فخجلت، فأطرقت، فبكت ، فقال عمر: ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن، كل النساء يفعلن هذا، فقال علي: حاجة في نفسي قضيتها .

ولما قتل عمر بن الخطاب، قالت تبكيه:

وفجعنـــي فيـــروز[1] لادردره بأبيـــض تـــال للكتـــاب منيـــب
رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخي ثقـــة في النائبـــات مجيب
متى ما يقل لا يكذب القـــول فعله سريع إلى الخيرات غير قطوب[2]

وقالت فيه أيضا :

عيـــن جودي بعبـــرة و نجـــيب لا تملـــي علـــى الإمـــام النجيـــب
فجعتني المنون بالفارس المعـــ لم يـــــوم الهيـــــاج والتلـــبيب
عصمة الله و المعين على الدهر وغيـــث الملهـــوف والمكـــروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقتـــه المنون كأس شعوب[3]

فبعد أن ذكرت فيروز قاتل زوجها في المقطوعة الأولى، الذي فجعها بأمير المؤمنين، الرؤوف على الأهل، الغليظ على الأعداء، الصادق القول، السريع إلى الخير، تنادي في المقطوعة الثانية عينها، وتطلب منها ألا تمل من البكاء و النحيب على الإمام الأمين

---

(1) فيروز: هو أبو لؤلؤة المجوسي قاتل عمر بن الخطاب : (المصدر نفسه، والصفحة نفسها).

(2) الحصري القيرواني: زهر الآداب، ج1، ص:37 و74-75 ، وعمر رضا كحالة: أعلام النساء، ج3، ص:203.

(3) الأغاني: مج 18، ص 10، والحصري القيرواني : المصدر نفسه، ص 36، 37 والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص 137 و القرطبي: المصدر نفسه ص: 336 (مع الاختلاف في بعض المترادفات).

الذي انتزعه الموت فجأة وقد كان يدافع عن الملهوف والمكروب والمحروم، ويحمي الناس من نائبات الدهر، فبعده لن يكون للفقراء والبؤساء نصير، وقد ظلت الشاعرة تذرف الدموع، وتتفجع، وتأرق الليالي، فلا يعرف النوم سبيلا إلى عينيها حزنا وهما على فقدها أمير المؤمنين إذ تقول:

منع الرقاد فعاد عيني عيد[1] ممـــا تضمـــن قلبـــي المعمـــود
بالية حبســـت علي نجومهـــا فسهرتهـــا والشامتـــون هجـــود
قد كان يسهرني حـــذارك مرة فاليـــوم حـــق لعينـــي التسهيـــد
أبكي أميـــر المؤمنين و دونه للزائرين صفائـــح و صعيـــــد[2]

وفي إحدى تلك الليالي حلمت حلما مخيفا، إذ تمثلت لها صورة أمير المؤمنين عمر، مسجى في أكفانه، فعاودها حزنها وأرقها، فقالت:

من لنفـــس عـــادها أحزانها ولعيـــن شفـــها طـــول السهد
جسد لفـــف فـــي أكفـــانه رحمـــة الله علـــى ذاك الجســـد
فيه تفجيـــع لمولـــى غـــارم لـــم يدعـــه الله يمشـــي بسبـــد[3]

ولما انقضت عدتها خطبها الزبير بن العوام، فتزوجها وكان غيورا عليها، فقال لها يومـــا : لا تخرجي إلى المسجد...فقالت : يا ابن العوام، أتريد أن أدع لغيرتك مصلى، صليت فيه مع رسول الله (ص)، وأبي بكر، وعمر ؟ فقال: لا أمنعك، فلما سمع النداء لصلاة الصبح، توضأ، وخرج، فكمن لها في سقيفة بني ساعدة، فلا مرت، ضرب بيده على جسدها واختفى، فقالت: مالك قطع الله يدك

---

(1) العيد: من معانيه: ما اعتاد من هم أو مرض أو حزن أو نحوه، و هو المقصود هنا.

(2) الأصفهاني: المصدر السابق، مج 18، ص: 10-11.

(3) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة/ مج2، ص:1106- 1107. والسبد: القليل من الشعر، يقـــال: "ما له سبد ولا لبد". أي لا شعر و لا صوف. يقال: لمن لا شيء له، وقولها: لم يدعه الله يمشي بسبد: تريد أفقره الله، فلم يبق له شيء.

ورجعت إلى بيتها، فلما عاد الزبير من المسجد، قال لها: مالي لم أرك في مصلاك؟ قالت: يرحمك الله أبا عبد الله، فسد الناس بعدك، الصلاة اليوم في القيطون [1] أفضل منها في البيت، وفي البيت أفضل منها في الحجرة [2]، ولم تعد تخرج بعد ذلك اليوم إلى الصلاة في المسجد، ولما قتل الزبير عنها، رثته، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بهـمة ... يـوم اللقاء وكان غير معـرد[3]
يا عمرو لـو نبهتـه لوجدتـه ... لا طائشا رعش الجنان، ولا اليد
كم غمرة قـد خاضها لم يثنـه ... عنها طـرادك يابن فقع القـردد[4]
ثكلتك أمـك إن ظفرت بمثلـه ... ممن مضى ممن يروح و يغتـدي
والله ربك إن قتلـت لمسلمـا ... حلـت عليـك عقوبـة المتعمـد[5]

وقد ذكرت الشاعرة في هذه الأبيات عمرو بن جرموز الذي غدر بالزبير، حيث قتله غيلة، ومن ثم تستنزل اللعنة على القاتل، وتصف المقتول بالفارس الشهم، الجسور.

ولما أرسل عبد الله بن الزبير إليها يصالحها في إرثها من والده، صالحته، وقالت له: « ما كنت لتبعث إلي بشيء إلي قبلته، فبعث إليها بثمانين ألف درهم، فقبلتها، وصالحت عليها»[6].

---

(1) القيطون : المخدع.
(2) الأصبهاني : الأغاني ، مج 18، ص 11.
(3) البهمة : الشجاع.. و المعرد : الذي يهرب ويفر من الحرب.
(4) الفقع : البيضاء الرخوة من الكماة، و القردد: ما ارتفع و غلظ من الأرض.
(5) القرطبي: الاستيعاب، ج4، ص:356. و انظر الوشاء: المصدر السابق، ص:121.
(6) القرطبي : المصدر نفسه، ص : 356-357.

ثم خطبها علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه- بعد انقضاء عدتها من الزبير، فأرسلت إليه، إني لأضن بك يا ابن عم رسول الله (ص) عن القتل[1] فأخذ برأيها ولم يتزوجها، ثم كان يردد بعد ذلك: « من أحب الشهادة الحاضرة فليتزوج بعاتكة» [2].

ثم تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب، فكانت أول من رفع خده من التراب يوم قتل، ولعنت قاتله، وقالت ترثيه:

وحسينـا فـلا نسيت حسينـا ... أقصـدتـه أسنـة الأعـداء
غـادروه بكربلاء صـريعـا ... جـادت المزن في ذرى كربلاء[3]

ثم تأيمت بعده، وتوفيت نحو سنة أربعين للهجرة حسب رواية الزركلي[4]، ولكن يبدو أنه وهم لأن المصادر الأخرى[5]، ذكرت بأن عاتكة رثت زوجها الحسين الذي استشهد في كربلاء سنة 61هـ، وبذلك تكون وفاتها في هذه السنة أو بعدها.

يبدو من خلال المقطعات الشعرية التي وصلتنا من شعر عاتكة، أنها طرقت فنا واحدا من فنون الشعر المعروفة، ألا وهو

---

(1) القرطبي : المصدر نفسه، ص : 356.
(2) الحصري القيرواني: زهر الأداب، ج1، ص:75. وقيل: إن عبد الله بن عمر هو الذي قال: "من أراد أن يكون شهيدا فليزوج عاتكة بنت نفيل". أنظر الحماسة البصرية، ج1، ص: 204.
(3) الأصفهاني: المصدر السابق، مج18، ص : 11- 12. وانظر الحسن البصري : الحماسة البصرية، ج1، ص : 204. والحموي : معجم البلدان مج4، ص: 445.
(4) الأعلام، مج3، ص :242.
(5) الأصفهاني: المصدر السابق ص:11-12. والحسن البصري: المصدر السابق، ج1، ص:204 والحموي: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

فن الرثاء، وهو الغرض الذي يناسب حياتها الحزينة، إذ كانت كلما تزوجت صحابيا إلا وكانت نهايته الشهادة، لذا عبرت من خلال مراثيها عما يختلج في نفسها من أحاسيس الحزن والألم، ورثاؤها في مجمله يميل إلى التأبين والعزاء، وتشيع فيه المعاني الدينية وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، كما نلاحظ في رثائها جزالة الألفاظ، ووضوح المعاني، وصدق العاطفة، لأن شعرها صادر من قلب مقروح، وعاطفة مكلومة، ونفس حزينة، فالشاعرة أصيبت في أزواجها، فترجمت، بقلب مفجوع حالتها، وتركت نفسها الشاعرة على سجيتها، دون مبالاة بالتنميق والزخرفة إلا ما جاء عفو الخاطر.

أحمد البوني وكتابه :

« التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف »

توطئة :

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على مصنَّف مُهمّ من مُصنّفات علَم من أعلام الفكر في حضارتنا العربية الإسلامية، وهذا المصنَّفُ هو كتاب « التعريف ببونة[1] إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف[2]»[3] لأحمد بن قاسم البوني أحد مشاهير الكُتّاب وأكثرهم خصبا وإنتاجا في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر للهجرة.

وتتناول هذه الدراسة في شقها الأول : حياة أحمد بن قاسم البوني وآثاره. أمّا في شقها الثاني، فتتناول كتابه المذكور بالتعريف والتحليل، هذا الكتاب الذي يعدُّ من أهم الكتب التي عرّفت ببونة

---

[1] بونة : هي مدينة (عنابة) الحالية، تقع في الشرق الجزائري، على الساحل، على مسافة 600كلم شرق الجزائر العاصمة، أسّسها الفنيقيون، وغزتها قرطجنة، ثم استولى عليها ملوك نوميديا، ولمّا هُزم يوغرطة (سنة 105 ق.م)، ضُمّت المدينة وأراضيها إلى ما يسمى بولاية إفريقية الرومانية، وقد أصبحت بونة مدينة مزدهرة، كما أصبحت من أهم المراكز الدينية (مقر الأسقفية) بعدما انتشرت فيها المسيحية، وفتحها المسلمون سنة 78هـ... (انظر : إسماعيل العربي : المُدن المغربية، ص : 196 وما بعدها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م).

[2] هو أبو مروان عبد الملك بن علي الأندلسي القرطبي الأصل، سكن بونة من بلاد إفريقية، كان من الفقهاء المعتنين، وشرحه على الموطأ مشهور حسن، رَوَاهُ عنهُ الناس... وكانَ رجلاً صالحًا، فاضلاً، حافظًا، نافذًا في الفقه والحديث، توفي سنة 501 هـ (أحمد بن قاسم البوني : التعريف ببونة إفريقية بلد أبي مروان الشريف، ص : 49 – 50، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001م. وانظر أيضا : حاجي خليفة : كشف الظنون، مج6، ص : 427، دار الفكر، بيروت، 1981م. والحموي : معجم البلدان، مج1، ص : 512، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984م.

[3] صدر الكتاب عن منشورات «المجلس الشعبي البلدي» بعنابة، في طبعته الأولى، سنة2000م

وعلمائها، لأنّ مصنفاته في التاريخ لم يصلنا منها إلا هذا الكتاب ومنظومته المسماة : « الدّرة المصونة في علماء وصلحاء بونة»[1]، وهي المنظومة التي اختصرها من منظومته الكبرى المحتوية على ثلاثة آلاف بيت، وتحتوي المنظومة المختصرة على ألف بيت، وقد شرحها، وإنّ شرحها كان متداولاً إلى عهد قريب، ومصيرهُ مصير كثير من كتب التراث، ضاعت بين « جامد وجاهد »[2].

سنستعرض التعريف بالكتاب، ودوافع تأليفه ثم مصادره ومحتواه، وقيمته العلمية والتاريخية.

ونختم الدّراسة بفذلكة نلخص فيها أهمّ الأفكار التي وردت في الكتاب.

أوّلاً : حياته وآثاره

1- حياته (موجز ترجمته) :

هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد ساسي التميمي البوني، وُلد ببونة المعروفة الآن بعنابة في شرقي الجزائر سنة (1063هـ/1653م)، وتوفي فيها سنة (1139هـ/1726م). نشأ في أسرة

---

[1] نشرها الأستاذ ابن أبي شنب في التقويم الجزائري لسنة 1331 هـ/1913م.

[2] الأستاذ المهدي البوعبدلي : لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي... محاضرات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي المنعقد بعنابة ما بين : 10 – 19 يوليو 1976م، المجلد الأول، ص : 54، نشر وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.

ميسورة الحال، فقد كانت عائلتُه تنتمي إلى « مجموعة بشرية واسعة مُمتدّة غربًا إلى نواحي قسنطينة، وشرقا إلى نواحي الكاف وباجة، حيث أخذ أحمد بن قاسم العلم من هذه النواحي»[1].

وفي بونة بدأ تعليمه على يد والده قاسم، وجدّه محمد ساسي، والإمام الشيخ إبراهيم بن التومي (سيدي إبراهيم)، وغيرهم، ثم واصل دراسته متنقلاً بين المغرب الأقصى وتونس، كما رحل إلى المشرق العربي، وأخذ بمصر عن الشيخ عبد الباقي الزرقاني المتوفى سنة (1099هـ/1688م)، والشيخ يحيى الشاوي الملياني بعد عودته من الحج، وتصدّره للإقراء بالأزهر الشريف، وغيرهما، ثم عاد إلى بونة مسقط رأسه وتفرغ للتدريس والتأليف، وقد أخذ عنه مجموعة من العلماء، منهم : عبد الرحمن الجامعي، وعبد القادر الراشدي القسنطيني، وسواهما، وكان فقيها مالكيا، من كبار فقهاء المالكية، وعالما بالحديث[2]، وله مؤلفات كثيرة، سنذكر بعضًا منها بعد حين.

---

[1] أحمد البوني : المصدر السابق، ص : 32، (ترجمة أحمد البوني بقلم الأستاذ سعيد دحماني مقدم الكتاب).

[2] أنظر: الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص: 376 وما بعدها، موفم للنشر، الجزائر، 1991م. والزركلي: الأعلام، مج1، ص: 199، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م. وعادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص: 49، بيروت، 1980م. ومحمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية (تقديم وتحقيق: د.محمد بن عبد الكريم)، ص:77، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972م.

2- آثاره :

أ- شعره : يعد أحمد بن قاسم البوني من الشخصيات المتعددة الثقافية، فهو مع رسوخ قدمه في الفقه المالكي، والحديث النبوي الشريف، له ديوان شعر[1]، ومنظومات شعرية كثيرة في موضوعات متعدّدة، ولكن الشّعر التعليمي قد حظي عنده بنصيب وافر من العناية، وقد كان انتشارُ التعليم في هذا العصر سببًا في تفكير أحمد البوني في تبسيط هذه العلوم، وقد نظم كتاب غريب القرآن الكريم للعزيزي في نحو أربعة آلاف بيت، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي في نحو ثمان مائة بيت، ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ونظم في التاريخ المنظومة المسماة « الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة » وهي في ألف بيت وقد اختصرها من منظومته الكبرى المحتوية على ثلاثة آلاف بيت كما أسلفت، وغيرها كثير.

وحسبك من شعره درته هذه، فقد ذكر فيها تراجم علماء بونة، فبدأ بأساتذته وأقاربه من سكان المدينة، ثم علماء القرى المجاورة، والعلماء الواردين على بونة، سواء أكانوا عابري سبيل أم مقيمين من مختلف جهات القطر، وقد استفاد من

[1] أنظر عادل نويهض : المرجع السابق، ص: 50، وأحمد البوني : المصدر السابق، ص: 25. والديوان لم يطبع حتى الآن.

تأليف علي فضلون البوني الذي صنّف كتابا في تاريخ بونة بعنوان «الكلل والحلل»[1]، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، وقد ضاع تأليف علي فضلون الذي استوعبه تأليف أحمد بن قاسم البوني المذكور « الدرة المصونة...». وقد انتهى أحمد البوني من تأليفه أواخر القرن الحادي عشر، وفي ذلك يقول : « في عام تسعين وألف. نظمتُ وآن أنْ ادعو لمّا تمّتْ»[2].

وقد اشترط في مترجميه العلم مع الاستقامة والصلاح، يقول :

بِشرْطٍ إنْ كانوا للعلم دَرَسوا ... أوْ لِصَلاحٍ نُسِبُوا ما اندرسُوا

ويبدو أنّ أحد طلاّبه هو الذي طلب منه تأليف درته، كما ذكر وكان على أهبة السّفر، فاستعجله، فقال :

طالِبُهَا مُسافِرٌ و ذو عَجَل ... زوّدْتُه بها و إنّي في خَجَل

وفيها يقول :

لِذاكَ رامَ مِنّي بعضُ الأذكياء ... تَوَسّلاً بِذِكر بَعض الأزكياء

فجئتُهُ « بِدُرَّةٍ مَصونَهْ » ... ذُكِرَتْ فيهَا أوْلياءَ بُونَهْ

لكن بلاَ طولٍ ولاَ تاريخ ... لضيق نظمِي بهم صَريخِي

وبعد ذلك يُشير إلى أنّ مترجَميه، الذين عاشوا قبل القرن التاسع، مذكورون في تأليف علي فضلون، يقول :

[1] أنظر أحمد البوني : المرجع السابق، ص: 26.

[2] البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 54.

حوَاهُم جَمْعُ « علي فضلوني »   لأخر التَّاسـع مِنْ قُرون

ثـم اتيت بالـذيـنَ بَعـدَهْ   أرجُو بهم تَفْريجَ كُلَّ كُرْبَةْ

مِن عاشِرِ القُرون والحادي عَشر   وفي البِلادِ ذِكْرُهُم قدِ انتشرْ

وبعد نهاية الشاعر من ذكر مترجَميه من علماء بونة، يختمُ القصيدة بالموازنة بينهم وبين معاصريه، فيقول :

والآن يَلْحَنون فوقَ المنبرْ   لا يقبَلُونَ النصْحَ حتَّى مِنْ بَرِي

وكُتِبَ الجَهلُ على جباههم   اليَومَ يخْـتَـمُ على أفـواهِهمْ

لَيتَ الجُدودَ نظروا إليْهِمْ   ولَوْ رَأوْهُـم لبَكـوا عَـليهِم[1]

من خلال هذه الموازنة نستشفُ أنَّ بونة في القرن الحادي عشر الهجري عَرَفت انحطاطا لا نظير له. ولكنّها في الوقت نفسه كانت مقرّا لمحمد « بكداش»[2]، وهو أحد الأتراك الذين أقاموا بها وتزوجوا فيها وأخذوا عن أساتذتها، منهم أحمد بن قاسم، ووالدُه، فارتقى ذلك التركي، وعُيِّنَ باشا الجزائر، فكان وفيًّا لبونة ولأساتذته بها. وهو الذي فتح وهران سنة 1120 هـ، بعد احتلالها من قبل الأسبان مدة ستٍّ ومائتي سنة[3] وقد ذكر ذلك أحمد البوني في درته حين قال :

---

(1) البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 54 وما بعدها.

(2) بكداش : كلمة تركية معناها الحجر الصلب (انظر : محمد بن ميمون الجزائري : التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص : 112 هامش : 4).

(3) البوعبدلي : المرجع السابق، ص : 55.

وفتحتْ على يديهِ وهرانُ   فكَملَ المَجْدُ له و البرهان

ثم كاتبه بهذه الأرجوزة مهنّئًا إياه بفتح وهران، ولافتًا نظره إلى حال مدينة بونة، فقال :

يا حاكِـمَ الجـزائـر   يـا أنس نَفْس الزائـر

أريـدُ أنْ أخْبِرَكُمْ   أدَامَ رَبِّـي نَصْرَكُمْ

بِحَـالِ هَـذي القَرْيَةِ[1]   بِـالصّدْق لا بالفـريـةِ

قدْ صَالَ فيهَا الظَّالِمُ   وهَـان فِيهَـا العالِمُ

خُـرِّبَـتِ المساجِـدُ   وقـلَّ فـيها السَّاجِدُ

حُبُسُهَا قـدْ أسرقـا   نَـاظِرُهُ فـأشْرقَـا

وأهـمِلَتْ أسْعَارُهـا   وبُـدِّلَتْ شِعَـارُهَـا

والشَرْعُ فيها بـاطِلُ   والظلـمُ فيها هَـاطِلُ

والخَـوْفُ فـي سُبُلِهـا   والقحـطُ فـي سُنْبُلِهَـا

وكَـمْ من القَـبَائِـح   وكَـمْ من الفَـضائِـح

يَضيقُ عَـنهـا النَّظـمُ   وَ خَـارَ مِنْهَـا العَظـمُ

تبكـي عليهـا بالـدم   قدْ قَـرُبَـتْ مِنْ عَـدم

والله قَـدْ وَلاكُـم   حُـكمًا وقـدْ عَـلاكُـمْ

فداركـوا الإسْلامَـا   ونَـوِّرُوا الظَّـلامَـا

---

(1) يريد بـ « القرية » مدينة بونة التي ينسبُ إليها.

وَسَدُّوا الأَحْكَامَا وفَرّحُوا الأنَامَا[1]

« فكافأة – محمد بكداش – على هذه الدُرر، بمنقوش في صفحة القمر، وأعطاه فوق ما طلب، وكمَّلَ له المقصود والأدب»[2].

كانت هذه نماذج شعرية لأحمد البوني من خلال منظومته « الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة»، وكذلك من خلال أرجوزته التي أبدع فيها وأوجز، وهي نماذج قليلة لا نستطيع من خلالها أن نحكم على شاعريته، غير أننا نستطيع أن نقول : إنّ منظومته الشعرية هي ممّا يذكر لقيمتها التاريخية الهامة، فقد عكست واقع بونة على مستويات شتّى، ولكنّها ركيكة الأسلوب، ولغتها قلقة مضطربة، وقد اعتورتها العلة من جوانب مختلفة كشعر العلماء وبعض الفقهاء الذين يتعاطون النظم وليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب، فيتكلّفون ما ليس من سجيتهم، فيأتي نظمهم باردًا سخيفا. أمّا الأرجوزة فقيلت بأسلوب سهل سلس، وبلغةٍ رقيقة عذبة في مجملها.

ب- مؤلفاته :

بلغت مصنفات أحمد بن قاسم البوني نحو مائة كتاب ما

---

(1) محمد بن ميمون الجزائري : المصدر السابق، ص : 129 – 130.

(2) محمد بن ميمون الجزائري : المصدر السابق، ص :133.

بين مختصر ومسهب حسب ما ورد في كتابه « التعريف ما للفقير من التآليف » الذي عدَّدَ فيه أسماء مؤلفاته، وقد نشر الحفناوي قائمة لتلك التآليف في كتابه « تعريف الخلف برجال السلف »[1]، إلاّ أنَّ الأستاذ سعيد دحماني، ذكر أثناء ترجمته للشيخ أحمد بن قاسم البوني، أنَّ تآليفه بلغت زهاء (175) عنوانا، معظمُها « منظومة في قالب (أراجيز)، مواضيعها تتعلق بالحديث والسنة والقرآن»[2].

وسنتعرضُ في حديثنا عن هذه المؤلفات لفئتين متباينتين منْها، هما :

1- المطبوعة :

لأحمد البوني كتابان مطبوعان فقط – فيما أعلم – عمل بعض أهل العلم والفضل على نشرهما وإخراجهما للوجود، لينتفع بهما الطلاب والدارسون، والكتابان المطبوعان كلاهما في التاريخ، وهما :

أ- الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، نشر الأستاذ ابن أبي شنب، في التقويم الجزائري لسنة 1331 هـ/1913 م.

---

(1) أنظر الحفناوي : المصدر السابق، ج2، ص : 376 وما بعدها.

(2) انظر احمد قاسم البوني : المصدر السابق، ص : 34 – 35.

ب–التعريف ببونة إفريقية، بلد سيدي أبي مروان الشريف (تقديم الأستاذ سعيد دحماني)، نشر المجلس الشعبي البلدي بعنابة، سنة 2001 م.

2– المخطوطة :

ونعني بها تلك المصنّفات التي اشار إليها أحمد البوني في كتابه « التعريف ما للفقير من التآليف»، ونشر الحفناوي قائمة بأسمائها في كتابه « تعريف الخلف برجال السلف ».

وتوجد صورة شمسية لمجموعة عناوين منها بحوزة الأستاذ سعيد دحماني[1] وهذا ثبت ببعضها حسب الترتيب الهجائي :

1– إتحاف الأقران ببعض مسائل القرآن.

2– إتحاف الألباء بأدوية الأطباء.

3– إتحاف النجباء بمواعظ الخطباء.

4– إظهار القوة بإحكام الباب والكوة.

5– الإعانة على بعض مسائل الحضانة.

6– إعلام الأحبار بغرائب الأخبار.

7– إعلام أرباب القريحة بالأدوية الصحيحة.

8– إعلام القوم بفضائل الصوم.

[1] أنظر قائمة العناوين في المصدر السابق، ص : 24 وما بعدها.

9– إلهام السعداء لما يبلغ لمراتب الشهداء.

10– الإلهام والانتباه في رفع الإبْهام والاشتباه.

11– أنس النفوس بفوائد القاموس.

12– تحفة الأريب بأشرف غريب.

13– الترياق الفاروق لقراء وظيفة الشيخ زروق.

14– تعجيز التصدير وتصدير التعجيز.

15– تلقيح الأفكار بتنقيح الأذكار.

16– تليين القاسي من نظم الإمام الفاسي.

17– تنوير قلوب أولي الصفا بذكر بعض شمائل الحبيب المصطفى.

18– الثمار المهتصرة في مناقب العشرة.

19– الجوهرة المضيئة في نظم الرسالة القدسية (أبياتها نحو 775 بيتا).

20– حث الورّاد على حب الأوراد (في ثمانية أجزاء).

21– خلاصة العقائد للقاني والتواتي.

22– رفع العنا عن طالب الغناء.

23– الظل الوريف في البحث على العلم الشريف.

24– الفتح المتوالي بنظم عقيدة الغزالي.

25– الكواكب النيرات المعلقة على دلائل الخيرات.

26- لباب اللباب في ذكر رب الأرباب.

27- المنهج المبسوط في نظم عقيدة السيوط.

28- نظم تراجم كتاب الشمائل للترمذي.

29- نظم كتاب البخاري.

30- الياقوتتان: الكبرى والصغرى في التوحيد، وغيرها كثير[1].

ثانيا : كتابه « التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف »

تقديم :

صدر هذا الكتاب عن منشورات « المجلس الشعبي البلدي» في عنابة بالجزائر، في طبعته الأولى سنة 2001م، وقد تولّى تقديمه للقرّاء والتعليق عليه الأستاذ سعيد دحماني.

وكتاب التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف يقع في ثلاث وعشرين ومائة صفحة من الحجم المتوسط، ويضمُّ في طياته صفحات عن تاريخ بونة (عنابة) وشخصياتها العلمية خلال القرون : الخامس، والسابع، والثامن، والتاسع الهجري

[1] أنظر الحفناوي : المصدر السابق، ج2، ص : 376 وما بعدها. وأحمد البوني (تقديم : سعيد دحماني) : المصدر السابق، ص : 24 وما بعدها. وعادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص : 49 وما بعدها. وكشف الظنون، مج6، ص : 427، دار الفكر، بيروت 1981. والحموي : معجم البلدان، مج1، ص : 512، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1984 م.

(الحادي عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر الميلادي).

1- دوافع تأليف الكتاب ومصادره :

الكتاب بمثابة رد على ما أورده الرحالة محمد العبدري البلنسي[1] عن بونة في كتابه : الرحلة المغربية، فعندما زارها في أواخر القرن السابع الهجري (نحو سنة 688هـ/1289م)، وصفها بقوله : « ثم وصلنا إلى مدينة بونة، فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة، مبسوطة البسيط، ولكنّها بزحف النوائب مطوية مخبونة، تلاحظُ من كثب فحوصًا ممتدة، وتراعي من البحر جزره ومدَّه، تغازلُها العيون من جور النوائب وتأسّى لها النفوس من الأسهم الصوائب، وقد أزعج السفرُ عن حلولها، فلمْ أقض وطرًا من دخولها، ومن أغرب المسموعات أنْ صادفنا وقتَ المرور بها زُويرقا للنّصارى لا تبلغ عمارتُه عشرين شخصا، وقد حصروا البلد حتّى قطعوا عنه الدخول والخروج، وأسروا من البر أشخاصًا

[1] هو محمد بن محمد بن علي العبدري – نسبه إلى عبد الدار، قبيلة – من جنوب المغرب الأقصى، كان يسكن في السوس، وكان من العلماء، بل إنَّ المقروءات التي قرأها، والمسموعات التي سمعها من الشيوخ تدل على علوّ كعبه في العلم والأدب، وكان واسع المحفوظ، يقول الشعر. عزم على الرحلة إلى المشرق، فسافر إليه في سنة 688 هـ، وسجّل كل ما رآه في ذهابه وإيابه. (الدكتور صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، ص: 70، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1963 م. وانظر: الزركلي : الأعلام، مج7، ص : 260، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م).

فامسكوهم للفداء بمرسى البلد، وتركناهم ناظرين في فدائهم، ومن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللطف بنا في أحكام المقادير »[1].

ويبدو أنَّ العبدري كان متشائما، ويراعي مقاييس لا يقرُّه عليها جُلّ الباحثين، إذ وصف في رحلته كثيرًا من العواصم لا تتفقُ مع واقعها[2]. إلا أنّه لا ينبغي أنْ نغفل عن دقة ملاحظاته، فهو لا يغترُّ بالمظاهر، وقد اختص بميزة في رحلته لم يشاركه فيها أحدٌ من الرّحالين، هي الجراءةُ في التعبير عن رأيه وشعوره، والنقد اللاذع. لقد وصف مِصرَ وأهل مصرَ في أخلاقهم وعاداتهم وصفا دقيقا، وأصلاهم نارًا حامية من نقداته، كما أصلى العنانبة حين وصفهم بالجُبن، فقد غلبهم من الكفار عشرون. ويبدو أنَّ عدم ترحاب البونيين به أثر في نفسه حتى قال فيهم هذا الكلام (وقد أزعج السفرُ عن حلولها، فلم اقض وطرًا من دخولها). وكان مذهبه أنَّ الناس هم يعلّمون الشاعرَ الهجاء بسوء أخلاقهم[3].

لذلك تصدّى له أحمد بن قاسم البوني بهذا الكتاب واتّهمه بأنّه « أخلَّ بالتعريف ببلد العبد الضعيف بل ذكر لها نقيصة عظيمة، فعقّبَ (أحمد البوني) في التعريف ببونة إفريقية... على مقالة

(1) محمد العبدري البلنسي : الرحلة المغربية (تحقيق : الأستاذ أحمد بن جدُو). نشر كلية الآداب الجزائرية، الجزائر.

(2) المهدي البوعبدلي : لمحات من تاريخ بونة الثقافي والسياسي (محاضرات ومناقشات الملتقي العاشر للفكر الإسلامي، عنابة 10 – 19 يونيو 1976 م)، مج1، ص : 52، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر.

(3) د. صلاح الدين المنجد : المرجع السابق، ص : 71.

العبدري معتمدًا على مؤرخ بوني عاش في القرن التاسع الهجري، وهو أبو الحسن على فضلون الذي صنف كتابًا في تاريخ المدينة بعنوان (الكلل والحلل) »[1].

محتوى الكتاب :

ذكر أحمد بن قاسم البوني في كتابه هذا، وفي منظومته «الدرة المصونة في علماء وصُلحاء بونة »[2] تراجم علماء بونة من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين. ويبقى أنَّ ما تركه أحمد بن قاسم البوني عن وضع بونة (عنابة) الفكري في الكتابين المذكورين من الوثائق الفريدة الخاصة بتاريخ المدينة، في انتظار العثور – يومًا – عَلى كتاب أبي الحسن علي فضلون « الكلل والحلل» وغيره[3].

وجاء الكتاب (التعريف ببونة إفريقية...) بعد التمهيد، والمقدمة، والتوطئة والتقديم، وترجمة مصنف الكتاب[4]. في عدة مباحث، وقد ورد في التقديم أنَّ هذا الكتاب جزء من مجموعة

(1) أحمد بن قاسم البوني : المرجع السابق، ص : 26.

(2) منظومة الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، نشرها الأستاذ ابن أبي شنب، في التقويم الجزائري لسنة 1331 هـ/1913 م.

(3) أحمد بن قاسم البوني : المرجع السابق، ص : 27.

(4) هذه المقدمات من إنجاز الأستاذ سعيد دحماني، وغيره.

نصوص من أعمال الشيخ أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني، والمجموعة تشمل ثمانية عشر عنوانا، منها :

1- الدرة المصونة في أولياء بونة، وهو نظم لأحمد بن قاسم.

2- الذخر الأسنى بذكر أسماء الله الحسنى، نظم لأحمد بن قاسم.

3- التعريف ببونة إفريقية، بلد سيدي أبي مروان الشريف، لأحمد بن قاسم (وهو هذا الكتاب الذي نحن بصدد عرضه...)

وجاء الكل في سفر من أربع ومائتي صفحة من الحجم المتوسط[1].

المقدمة :

أمّا المقدمة، فقد ذكر فيها المصنّف أسباب تأليفه لهذا الكتاب، فقال : « لمّا كتبتُ بإعانة الله تعالى رحلة الإمام العبدري رحمه الله تعالى، عثرتُ على بعض الأماكن ارتكب فيها غير الصّواب، عند ذكره بلدنا وبلد قسنطينة فأردتُ التنبيه عليها ليعلمها كل أوّاب، وقد كتبتُ عليها أزيد من 300 طرة، كلُ واحدة أحسن من دُرّة عند ذي نفس برة، فمن أضافها لهذه الأوراق، كانت حاشية عليها عذب

[1] أحمد بن قاسم البوني : المرجع السابق، ص : 24 وما بعدها. وانظر بقية عناوين المجموعة هناك.

موردها وراف، وقد أعجلني الوقت عن فعل ذلك، وقد أذنت غيري أن يفعله ساعيا في خير المسالك، راجيا ثواب الإعانة على العلم الشريف ذي الظل الوريف. وقد أخل بالتعريف ببلد هذا العبد الضعيف، بل ذكر لها نقيصة عظيمة، وأمورًا مخلة بها هضيمة، لا يقبلها عقل عاقل، ولا يصدق بها ناقل، وسأفصّلُ ذلك تفصيلا حسنا، وأؤصّلُ فضلها تأصيلاً بسنا، قولاً بالحق لا مبالغة فيه ولا إيغالَ، وإن كنت في كثير من الاشتغال، وسميت هذه الأوراق (ببعض التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف)»[1].

1- الرد على اعتراض العبدري على الشيخ الفكون :

أمّا في المبحث الأول، فيتحدث المؤلف عن اعتراض العبدري على الشيخ الفكون القسنطيني صاحب الرحلة المنظومة[2]، وانتقاد العبدري لبعض الكلمات التي وردت في قصيدة الفكون المشهورة « في رحلته من قسنطينة إلى مراكش » (كالغنج، وبدور، وبهي، وغيرها)، وقد كشف أحمد البوني في هذا المبحث أخطاء العبدري، ودافع عن صحة تلك الكلمات، مقدّمًا حججا علمية لا يرقى إليها الشك، وختم المبحث بقوله : « والمصنف رحمهُ الله تعالى قطّ ما

[1] أنظر : أحمد البوني : المصدر نفسه، ص : 41 – 42.

[2] هو أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون : شاعر المغرب الأوسط في وقته، من أهل قسنطينة، رحل إلى مراكش ومَدَحَ خليفة عبد المؤمن، له ديوان شعر، كان حيًّا سنة 602هـ/1205م. (أنظر : عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص : 253 – 254. والعبدري : الرحلة المغربية، ص : 30).

نصوص من أعمال الشيخ أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني، والمجموعة تشمل ثمانية عشر عنوانا، منها :

1- الدرة المصونة في أولياء بونة، وهو نظم لأحمد بن قاسم.

2- الذخر الأسنى بذكر أسماء الله الحسنى، نظم لأحمد بن قاسم.

3- التعريف ببونة إفريقية، بلد سيدي أبي مروان الشريف، لأحمد بن قاسم (وهو هذا الكتاب الذي نحن بصدد عرضه...)

وجاء الكل في سفر من أربع ومائتي صفحة من الحجم المتوسط[1].

المقدمة :

أمّا المقدمة، فقد ذكر فيها المصنّف أسباب تأليفه لهذا الكتاب، فقال : « لمّا كتبتُ بإعانة الله تعالى رحلة الإمام العبدري رحمه الله تعالى، عثرتُ على بعض الأماكن ارتكب فيها غير الصّواب، عند ذكره بلدنا وبلد قسنطينة فأردتُ التنبيه عليها ليعلمها كل أوّاب، وقد كتبتُ عليها أزيد من 300 طرة، كلُّ واحدة أحسن من دُرّة عند ذي نفس برة، فمن أضافها لهذه الأوراق، كانت حاشية عليها عذب

[1] أحمد بن قاسم البوني : المرجع السابق، ص : 24 وما بعدها. وانظر بقية عناوين المجموعة هناك.

مورردها وراف، وقد أعجلني الوقت عن نقل ذلك، وقد أذنت غيري أن يفعله ساعيا في خير المسالك، راجيا ثواب الإعانة على العلم الشريف ذي الظل الوريف. وقد أخل بالتعريف ببلد هذا العبد الضعيف، بل ذكر لها نقيصة عظيمة، وأمورًا مخلة بها هضيمة، لا يقبلها عقل عاقل، ولا يصدق بها ناقل، وسأفصّلُ ذلك تفصيلا حسنا، وأؤصّلُ فضلها تأصيلا بسنا، قولا بالحق لا مبالغة فيه ولا إيغالَ، وإن كنت في كثير من الاشتغال، وسميت هذه الأوراق (ببعض التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف)»[1].

1- الرد على اعتراض العبدري على الشيخ الفكون :

أمّا في المبحث الأول، فيتحدث المؤلف عن اعتراض العبدري على الشيخ الفكون القسنطيني صاحب الرحلة المنظومة[2]، وانتقاد العبدري لبعض الكلمات التي وردت في قصيدة الفكون المشهورة « في رحلته من قسنطينة إلى مراكش » (كالغنج، وبدور، وبهي، وغيرها)، وقد كشف أحمد البوني في هذا المبحث أخطاء العبدري، ودافع عن صحة تلك الكلمات، مقدّمًا حججا علمية لا يرقى إليها الشك، وختم المبحث بقوله : « والمصنف رحمةُ الله تعالى قطّ ما

[1] أنظر : أحمد البوني : المصدر نفسه، ص : 41 – 42.

[2] هو أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكون : شاعر المغرب الأوسط في وقته، من أهل قسنطينة، رحل إلى مراكش ومَدَحَ خليفة عبد المؤمن، له ديوان شعر، كان حيًّا سنة 602هـ/1205م. (أنظر : عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر، ص : 253 – 254. والعبدري : الرحلة المغربية، ص : 30).

التمس عُذرًا لأحدٍ في هذه الرحلة المباركة، وإنّما شأنُه الانتقاد حتى على أشياخه الأسياد، أهل الإسناد، وتلا شنشنة المقاربة حتى الآن»[1].

2- نقد وصف العبدري لبونة :

وفي المبحث الثاني ينتقد وصف العبدري لبونة، فيقول: « وأما كلامه في بلدنا بونة، فلا يقبلُ ذلك إلاّ كلُّ ذي نفس بتصديق الكذب مغبونة، أيمكن في عقل عاقل أن تكون بلد فيها من رجال المؤمنين مئون حذرون يغلبهم من الكفار عشرون ؟ كلاّ! لا يقبل هذا عقل عاقل وإنّما هو كذب من الناقل... وما خلق الله تعالى العقل في الإنسان إلاّ ليميّز به بين الكذب والصدق... إلخ »[2].

3- ترجمة الشيخ سيدي أبي مروان :

أمّا في القسم الثالث من الكتاب، فيحدثنا المؤلف عن سيدي أبي مروان الشريف، شارح الموطأ، وصحيح البخاري، وممّا قاله عنه بعد كلام : « كان رجلاً صالحا فاضلاً حافظا نافذًا في الفقه والحديث، وأصله من قرطبة... وقد توفي سنة 501 هـ/1108م»[3].

(1) البوني : المصدر السابق، ص 46 – 47.
(2) المصدر نفسه، ص : 47 – 48.
(3) المصدر نفسه، ص : 50. وأنظر عنه، ص : 49 وما بعدها. وأنظر أيضا : الدرة المصونة في صلحاء وعلماء بونة للمؤلف نفسه، ص : 87 – 96.

4- ترجمة أحمد بن علي البوني :

وفي القسم الرابع : يتحدّثُ المؤلف عن مشاهير بونة المحروسة، من خلال موجز ترجمة الشيخ أحمد بن علي البوني دفين تونس، يقول : « وقبره بجبانتها مشهور، زرته، وبركت به، رحمهُ الله تعالى... وهو صاحب كتاب (الوعظ الغريب) وعظه يذيب الصُّخور، وطيبه يعبق دون بخور، وكتابه (شمس المعارف) الذي كلامه يغني عن سماع المعازف[1]، لا ينبُو عنه إلا غير عارف، ومن بحره غير غارف...، وقد كان من حال هذا الشيخ، رضي الله تعالى عنه، أنّه يتناول التراب، فيرجع في يده المباركة ذهبا، وإلى ذلك أشرت في الألفية المذكورة »[2] يعني « الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة».

5- ترجمة أبي عبد الله محمد المراكشي الضرير :

يواصل المؤلف في القسم الخامس من الكتاب الحديث عن مشاهير بونة المحروسة، فيحدثنا عن العالم الصالح القارئ الناظم الناثر النحوي اللغوي العروضي أبي عبد الله محمد المراكشي الضرير، وهو من علماء بونة في القرنين : السابع والثامن

(1) المعازف : جمع مفرده : العزيف : صوت الجن وهو جرس يسمع بالمفاوز بالليل (أنظر البوني : المصدر السابق، ص : 60 (هامش 50).
(2) أنظر البوني : التعريف ببونة إفريقية...، ص : 60.

الهجريين، قدم إلى بونة « بعلوم كثيرة، ونوادر غزيرة، فأعجبته واستوطنها، وكان آية في العرفان، لم يسمع بمثله الزّمان، ألّف في البيان، وفي تفسير القرآن، (وألّف) كتاب أسماع الصُمّ في إثبات الشرف من قبل الأم، وشرحًا عظيما على «بانت سعاد»، وكان يدرّس بالجامع الأعظم، وكان يحفظ من عرضة واحدة، وتلميذه أبو القاسم بن أبي موسى من عرضتين، وتلميذُه الهناد من ثلاثِ (من كتاب ابن فضلون)، وقد ذكرتُ ذلك في الألفية »[1].

6- موجز ترجمة فقهاء بونة :

ولم يفت صاحب التعريف ببونة أنْ يدّونَ بعض تراجم فقهاء بونة في كتابه، فتحدّث في القسم السادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، عن طائفة من فقهاء بونة، فذكر منهم: الفقيه العلامة عبد الرحمن آملال[2]، والفقيه المؤرّخ الشاعر أبا القاسم الجذامي[3]، وأبا زكرياء يحيى الكسيلي[4]، وأحمد بن فارح الضرير[5]، ومحمد بن إبراهيم التمتام[6]، ومحمد بن أحمد

[1] أنظر المصدر نفسه، ص : 61 وما بعدها.
[2] أنظر المصدر نفسه، ص : 66.
[3] أنظر المصدر نفسه، ص : 66 – 67.
[4] أنظر المصدر نفسه، ص : 67.
[5] أنظر المصدر نفسه، ص : 68.
[6] أنظر المصدر نفسه، ص : 69.

التمتام[1]، وأبا إسحاق إبراهيم التمتام[2]، ومحمد الهواري[3]، ومحمد بن عبد الجليل[4] وغيرهم...

وتتعلّق هذه الأقسام بهؤلاء الفقهاء من حيث التعريف بهم، والتقصي عن أنبائهم وذكر مؤلفاتهم.

7- هجومات النصارى على بلد العُناب :

وتحدّث في القسم الخامس عشر من هذا الكتاب عن هجومات النصارى على بلد العناب (بونة)، فقال :

فإن قلت : كم هجمت النّصارى على بلدكم بلد العُناب، قلت : فيما أعلم، أربع مرات.

[1] أنظر المصدر نفسه، ص : 70.
[2] أنظر المصدر نفسه، ص 71.
[3] أنظر المصدر نفسه، ص : 73.
[4] أنظر المصدر نفسه، ص : 74 ـ 75.

أولاهن : قريبة من زمن الشيخ الهواري، وقد كان في السادسة من عمره[1]. والثانية في حياة ابن عبد الجليل المذكور[2]. والثالثة عام 982هـ/1574م [3]. والرابعة سنة 1016هـ/1607م[4].

8- في مَن مدح بونة :

وفي القسم السادس عشر من كتاب التعريف ببونة يتحدّثُ المؤلف عن الشعراء الذين مدحوا بونة، فذكر منهم أربعة مع نماذج من شعرهم، وهم :

محمد بن عبد الكريم الفكون[5]، ومنصور السويدي[6]، ومصطفى الجنيني العنابي[7]، وعبد الرحمن الجامعي[8].

---

(1) لعلّهُ يشير إلى هجوم بيزاني (من جمهورية بيزا بإيطاليا) أعقبه احتلال المدينة سنة 426هـ/1034م. (أنظر المصدر السابق، ص : 76 « هامش 84»).

(2) هي حملة قامت بها فلنسية وميورقة سنة 801هـ/1399م، وباءت بفشل ذريع، وكان ذلك من 27 أوت إلى 02 سبتمبر 1399م (أنظر المصدر السابق، ص : 76 « هامش 85»).

(3) أنظر البوني : المصدر السابق، ص : 76.

(4) وهي غزوة التحالف « الطوسكاني – البروفلسالي » التي وقعت في منتصف سبتمبر، وبعد ست ساعات من الهجوم، انسحب الغزاة، وقد أسروا مائتين (200) من المدنيين الذين كانوا بالقلعة (القصبة) وخمسمائة وألف شخص (1500) من المدينة (أنظر البوني : المصدر نفسه، ص : 77 « هامش 89»).

(5) أنظر البوني : المصدر نفسه، ص : 80. وأنظر أيضا : محمد الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 166.

(6) أنظر البوني : المصدر نفسه، ص : 83. وذكره أحمد بن قاسم في ألفيته من بين فضلاء قسنطينة.

(7) أنظر البوني : التعريف ببونة، ص : 85.

(8) أنظر البوني : المصدر نفسه، ص : 87.

9- أقطاب بونة[1] :

أمّا القسم السابع عشر من الكتاب، فتحدث فيه عن أقطاب بونة، وهم خمسة :

أولهم سيدي أبو مروان.

وثانيهم البوني صاحب شمس المعارف.

وثالثهم الذي أكل مع القطب، وهو أبو العباس أحمد بن فارح الضرير.

ورابعهم جدّنا، ولي الله، سيدي محمد ساسي.

وخامسهم شيخنا، سيدي إبراهيم بن التومي، المتوفى سنة 1087هـ/1676م[2].

10- ذم بونة وحديث عن العبدري :

أمّا القسم الثامن عشر من الكتاب : فتحدّث فيه المؤلف عن الشيخ ابن عروس التونسي[3] الذي ذمَّ بونة، فقال : « أكذب من كُلّ كذّاب مَنْ مدح مدينة العُنّاب »[4]. وبالرغم من ذلك فإنّ المؤلف التمس له عذرًا، واتّهم الناقلَ بتحريف العبارة، وذكر بأنّ أصلها : « من ذمَّ بلد العُنّاب أكذب من كل كذاب » وفي هذا الشأن يورد عدة أحاديث عن العبدري لعدد من العلماء والمؤرخين يعاتبونه فيها عن قدْحه لبونة، وبعضهم هجاه بقوله : « لعلَّ قدحه فيها كان حالة

---

(1) الأقطاب : مفرد قطب : وهي أعلى مرتبة في سلم القيادة عند الصوفية، وذكر ابن خلدون في المقدمة : أنّ معناه رأسُ العارفين، ويزعمون أنّه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله سبحانه وتعالى، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان (الفصل السابع عشر في علم التصوف نقلا عن البوني : المصدر نفسه، ص : 88 « هامش 104»).

(2) أنظر البوني : المصدر نفسه، ص : 88 – 89.

(3) هو أبو العباس أحمد بن عروس، المتوفى سنة 868هـ/1463م، من أهم صلحاء مدينة تونس، وزاويته لا تزال قائمة (أنظر البوني : المصدر نفسه، ص : 90 « هامش 107»).

(4) البوني : المصدر نفسه، ص : 90.

غيبة عقله، وأيُّ قدح يقبل منْ آخِذٍ عن حلوف اليهودي – لعنة الله تعالى – »[1].

11- وصف بُونة :

وفي القسم التاسع عشر يصف لنا المؤلف بونة، فيقول : « هي بلد جمعت بين البر والبحر، فهي كالحلي في النحر، وبها من العلماء والصلحاء ما لا يحصى، ومدحها للمنصف لا يستقصى، مياهها عذبة، وثمارها كثيرة : يابسة ورطبة، وأوديتها كثيرة عذبة، جارية غزيرة كبيرة، ذات منظر وبهاء...إلخ»[2].

12- مسائل مختلفة :

ويحتوي الكتاب – بالإضافة إلى ما سبق ذكره – مسائل لغوية حول الاقتباس واستشكال العبدري للآية الكريمة ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ وتفسيرها من قبل طائفة من المفسرين، وكذلك يشتمل الكتاب على ملحقات تتعلق برسالة محمد ساسي إلى أبي الجمال يوسف باشا، وجواب يوسف باشا، ووفيات بعض أعلام بونة وغيرها[3].

[1] البوني : المصدر نفسه، ص : 94. وحلوف اليهود أحد أساتذته الذين أخذ عنهم العبدري.

[2] أنظر البوني : المصدر السابق، ص : 96 وما بعدها.

[3] أنظر البوني : المصدر السابق، ص : 99 وما بعدها.

2- قيمته العلمية والتاريخية :

يعد كتاب التعريف ببونة من المصادر المهمة التي يرجع إليها الباحثون في تاريخ بونة السياسي والاجتماعي والأدبي، وقد امتاز عن كثير من الكتب القديمة بتفردهِ بالحديث عن الحركة العلمية التي كانت سائدة في بونة خلال عدة قرون، والتي قدمّها لنا أحمد البوني من خلال التراجم الوافية التي أعدّها عن علماء وفقهاء بونة الذين كان لهم دور علمي بارز. ويستمد هذا الكتاب قيمته وأهميته من كونه يعالج موضوع تاريخ بونة وعلمائها معالجة علمية، فهو لا يترك مسألة من المسائل التي عالجها دون تعليل، ولذلك فالكتابُ صالح للجمهور والباحثين معًا.

فذلكة :

وبعد، فقد توقفنا في هذه الرحلة مع احمد بن قاسم البوني وكتابه : التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف.

وقسّمنا هذه الرحلة إلى قسمين اثنين : فكان القسم الأول منها منصبا على دراسة شخصية احمد البوني، وعلى كلّ ما يتصل بها، وبنتاجها العلمي والأدبي، وقد اصطحبنا أحمد البوني في جميع مراحل حياته، وحاولنا أن نقدم صورة عنه، في نفسه، وشعره، ومؤلفاته.

أمّا القسم الثاني، فكان منصبا على دراسة كتاب «التعريف ببونة...» وتحليل محتواه.

وقد يكون من غير المتيسّر ولا المناسب في هذه العجالة الإلمام بجميع القضايا التي عالجها المؤلف في كتابه، وهي كثيرة، وإنّما نشير إلى أهمّها، وهي كالآتي :

1. الرّد على اعتراض العبدري على الشيخ الفكون وانتقاده لبونة.

2. وصف الحياة العلمية في بونة في عدة قرون، وما كان فيها من علماء وفقهاء، وإسهامهم في مختلف العلوم.

3. التغني بجمال طبيعة بونة، ووفرة مياهها، وفواكهها وأزهارها..

4. نقد العنابة ووصفهم بالجبن، وذم بلدهم من قبل بعض الشيوخ (العبدري، والشيخ ابن عروس التونسي).

5. وقد فاضل أحمد بن قاسم البوني في أرجوزته التي أرسلها إلى محمد بكداش بين عهدين، فمدح أحدهما، وهو عهد ازدهار بونة في الماضي، وذم عصره...

وإنّه لمن المفيد حقا أن نرى اليوم كيف كانت هذه المدينة في القرون الماضية في محاسنها وعيوبها، وأنْ نحدّد ما أصابته وأصابه أهلوها من تقدم وتطور أو تقهقر وتراجع في عصرنا هذا.

قراءة في كتاب :

البربر عرب قدامى

تأليف : محمد المختار العرباوي

تقديم :

صدر هذا الكتاب عن منشورات « المجلس القومي للثقافة العربية » في الرباط بالمملكة المغربية في طبعته الأولى سنة 1993م وقد تولى تقديمه للقراء المجلس القومي للثقافة العربية.

وكتاب البربر عرب قدامى يقع في خمس وثلاثمائة صفحة (305) من الحجم المتوسط، ويضم في طياته دراسة وافية عن « عراقة البربر في العروبة ».

وقد بذل الباحث جهدا كبيرا في الحجاج الموثق لتأكيد هذه الأطروحة.

وجاء الكتاب – بعد التقديم – في عدة مباحث، وقد ورد في التقديم أن البحث يتجه إلى إثبات عروبة البربر، وقد تطلب من الباحث للدفاع عن هذه الأطروحة معالجة حقول معرفية مختلفة من مجال التاريخ إلى بعض ميادين متعلقة باللغات وبالفنون والآداب.

إن القضية التي يطرحها الكتاب للبحث ليست جديدة من حيث المبدأ، ولكن الأهداف الثاوية من وراء الطرح قد اختلفت كثيرا منذ القديم إلى اليوم... وما تزال النوايا المبيَّتة والنزاعات الاستعمارية الخبيثة في مختلف أرديتها العلمية المزعومة أو جحافلها الغازية المكشوفة أو خططها السياسية الدفينة تعمل للنيل مما أقامه العامل الحضاري العربي البربري الإسلامي من صرح وحدة كان لها وما

يزال أثرها البالغ في توجيه دفة التاريخ نحو ما يدعم حرية ووحدة الأمة في بلاد المغرب العربي وبالتالي في الوطن العربي بكامله.

والمجلس القومي للثقافة العربية بخطة الفكري الواضح في خدمة الأهداف السامية للأمة العربية، بكل ما يعمل على ترسيخ وحدتها، وتحصين مواقفها ضد الهجمات والأخطار المحدقة بها، لا يسعه إلا أن يبارك مثل هذا الجهد في خدمة المسالة القومية العربية، خاصة وأن المدرسة الاستعمارية التاريخية والسياسية لا تزال تفرخ إلى يومنا هذا وتخرج كل حين جديدا، تحاول أن تكمل به ما بدأته منذ بداية الحركة الاستعمارية من عمل دؤوب على التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، متذرعة بشتى الأساليب والحيل.

من هذا المنظور يأتي هذا الكتاب ردا على دعاوى ومواقف معادية للوحدة، طالما عانت وتعاني منطقة المغرب العربي من التعرض لها، وهي دعاوى ومواقف لم يكن الظهير البربري بالمغرب سنة 1936م أولى نكساتها في المغرب العربي، ولا كان آخر انتصار لوحدة الأمة عليها.

بيد أن الاتفاق على الهدف بل والاقتناع به، لا يكفي بالضرورة للاتفاق المطلق مع المناهج المؤصلة، والوسائل المستعملة، فمجال البحث فسيح، والقضايا شائكة...

مما يجعل مثل هذا العمل الجاد يعادل في أهميته وخطورته، ما يمكن أن يثار بصدده من نقاش وجدال، بل إن مثل هذا النقاش... يعتبر أحسن مكافأة للمؤلف ولما تحمله فيه من صبر ومجالدة. متجاوزا كل النزاعات العرقية والاختلافات الدينية والمذهبية، والاتجاهات الطائفية، وباعتباره بالتالي لأهمية العامل الحضاري العربي البربري الإسلامي في ترسيخ وتحصين وحدة الأمة[1].

1- نقد أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية :

أما في المبحث الأول فيتحدث المؤلف عن أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية وما قامت به من تحريف الحقائق وتشويهها، من حيث بث نزاعات الانقسام، ومن غير شك فإن « النزعة البربرية » من أخطر ما ابتكره الاستعمار في هذا السياق من عوامل الهدم والتقويض.

ثم تناول القضية البربرية من الناحية العلمية لمعرفة أصل البربر وحقيقة انتمائهم على ضوء جملة من المعارف تم التوصل إليها بالاعتماد على منهج مركب تتداخل فيه عدة علوم من أثرية وانتروبولوجية، وبلنولوجية، ولغوية، واجتماعية وغيرها... حيث

[1] محمد المختار العرباري : البربر عرب قدامى، ص : 4 – 5.

يكشف كل منها على جانب من هذه القضية ويوفر مجموعة من الأدلة تساعد على الاستيعاب الشامل وتقود إلى الحقيقة.

وقد كشف المؤلف في هذا المبحث عن أساليب الاستدمار الفرنسي وأهدافه الهدامة في المغرب العربي كالفرنسية وتلهيج العربية، والتمسيح، وبث التفرقة وولادة النزعة البربرية وغيرها[1]...

2- السامية والحامية من مبتكرات الاستعمار :

وفي البحث الثاني يتحدث المؤلف عن قضية « الحامية - والسامية » وهي أيضا من مبتكرات المدرسة الاستعمارية، فبعد فشلها في تصنيف البربر ضمن الشعوب الأوروبية صنفتهم ضمن ما يسمى « بالشعوب الحامية ».

بيد أن الدراسات العلمية الحديثة أقرت بأن البربر سامية صميمة وأن البربر أشقاء للعرب ومنتسبون معا إلى أصل واحد وأرومة واحدة، وهذا أول انتصار علمي يسجل ضد المدرسة التاريخية الاستعمارية على صعيد المعرفة، وأول خطوة في كنس المعلومات المغلوطة التي تحولت لدى المثقفين الغارقين في حمأة الاستعمار الثقافي إلى قناعات لا تدحض[2].

[1] المرجع نفسه، ص : 7 وبعدها.

[2] المرجع نفسه، ص : 84 وبعدها.

3- الحضارات والأنواع البشرية بشمال إفريقيا :

أما في القسم الثالث من الكتاب فيحدثنا المؤلف عن الحضارات والأنواع البشرية في ما قبل التاريخ بشمال إفريقيا، وقد اتضح للمؤلف أن هناك تنوعا ثقافيا وحضاريا في ما قبل التاريخ بشمال إفريقيا فإلى جانب الثقافة الضبعانية والوهرانية والقفصية، هناك ثقافات أخرى تنتمي إلى العصر الحجري الأعلى، تحدث عنها علماء ما قبل التاريخ، ولكن معلوماتهم عنها حتى الآن لا تزال محدودة، فالباحثون لم يتمكنوا بعد من تحديدها بدقة، ومن التعرف على أصحابها، وما يهمنا في شأن هذه الثقافات ما قاله (بالوت) عن صناعة الصفائح التي عثر عليها بالجنوب التونسي من أنه « ينبغي البحث عن الأصل باتجاه الشرق، برقة، ومصر، والشرق الأدنى » وهذا اعتراف صريح منه بوجود ثقافات قديمة بالمغرب العربي ذات أصل شرقي، وأن الشرق الأدنى هنا لا يمكن أن يكون الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب[1].

[1] المرجع نفسه، ص : 99 وبعدها.

4- **الجزيرة العربية مصدر الحضارات والهجرات القديمة :**

وفي القسم الرابع : يتحدث المؤلف عن الجزيرة العربية – مصدر الحضارات والهجرات القديمة – واستهله بمدخل وضح فيه أن البربر هجرات، فهم ليسوا أفارقة جنسا ولغة، ولا أوروبيين كما سبق ذكره، فهم إذن أسيويون من الجزيرة العربية لا بحكم سيطرة ثقافتها ولغتها على منطقة الشرق العربي الحالية منذ ما قبل التاريخ بآلاف السنين فحسب، ولكن أساسا بصفتها في نظر الجميع من أهم مراكز الهجرة العالمية وأقدمها في منطقة غرب آسيا، وذكر المؤلف كل ذلك في نقاط محاولاً الإجابة عن بعض الأسئلة الهامة، منها : فما هي هذه الجزيرة ؟ وما الذي جعل منها مصدرا قويا للهجرات ؟ ومتى كان ذلك على سبيل التقريب ؟[1].

5- **ظهور البربر بشمال إفريقيا :**

وينتقل المؤلف في القسم الخامس من هذا الكتاب ليحدثنا عن (ظهور البربر بشمال إفريقيا)، ويبتدئ كلامه في أول القسم عن العصر الحجري الحديث وظهور البربر في شمال إفريقيا معتمدا في بحثه عن الوثائق المصرية التي انفردت في الفترة الطويلة السابقة للفنيقيين بمعلومات هامة حول جماعات البربر القديمة (اللوبيون)، وقدم خلاصة لتلك الوثائق، ومن خلالها وصل في نهاية

[1] المرجع نفسه، ص : 120 وبعدها.

المبحث إلى خلاصة مفادها : إن الجماعات البربرية الأولى الرعوية وصلت إلى الصحراء الليبية وانتشرت فيها في حدود الألف الخامسة قبل الميلاد ثم تحولت إلى المناطق الواقعة شمال الصحراء كما هو واضح من تحولات الظروف المناخية في الألف الرابعة قبل الميلاد، وبهذا يكون الباحث قد توصل إلى تحديد تاريخ ظهور البربر في شمال إفريقيا وهـــو أمر لا يرتاح له من يكـــذبون على التـــاريخ وفي طليعتهم أنصار المدرسة الاستعمـــارية التاريخية والسياسية[1]...

6- **اللغة البربرية :**

وفي القسم السادس من هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن اللغة البربرية باعتبارها الأدلة اللغوية من أفضل الأساليب وأوضحها لإثبات ما بين الشعوب من علاقات ثقافية وصلات نسب، ولذا فقد خاض المؤلف في هذا الموضوع معتمدا على منجزات علم اللغة المقارن، وعلى ما توصل إليه من معلومات وحقائق لغوية في مجال الدراسات البربرية وعلاقتها باللغة العربية القديمة، ومن أبرز الجوانب التي تناولها المصنف في هذا القسم ما يأتي :

- تصنيف البربرية والفكر الإقليمي الطائفي.
- البربرية واقع لغوي قديم.

[1] المرجع نفسه، ص : 151 وبعدها.

- السمات المشتركة بين البربرية والأكدية :

1. الحالة الصوتية.
2. المقارنة مع الأكدية ولغات عربية قديمة أخرى.
3. التصريف.
4. صيغة الفعل.
5. التعريف والتنكير.
6. الناحية المعجمية.

وهكذا فإن الأدلة التي قدمها المؤلف من خلال الإطلاع على البربرية واللغات العربية القديمة يزيدنا دراية بمعرفة كثير من الأصول والظواهر اللغوية في عربية القرآن باعتبارها خلاصة لتطور لغوي واسع قديم ومتنوع[1].

7- السمات المشتركة بين البربرية والعربية :

وتحدث في القسم السابع من هذا الكتاب عن السمات المشتركة بين البربرية والعربية، فقال : إن المطلع على البربرية بمختلف لهجاتِها يدرك تَمَامًا مدى تأثرها الواسع العميق بالعربية إلى درجة أن هذا التأثير غير كثيرا من سماتِها وجعلها تختلف بدرجة أو بأخرى عما كانت عليه في العهود القديمة.

(1) المرجع نفسه، ص : 163 وبعدها.

وقد أكد هذه المسألة كثير من الباحثين على اختلاف مشاربهم، وقدم الباحث أمثلة كثيرة من أوجه التشابه اللغوي، وكذلك التشابه الاجتماعي، والتشابه في فن العمارة.[1]

8- الأسماء ودلالتها بين العربية والبربرية :

أما القسم الثامن من الكتاب، فتحدث فيه عن الأسماء ودلالتها، ولاحظ المؤلف أن الأسماء البربرية وخاصة القديمة منها لم تبحث ولم تقع مقارنتها بما في اللغات العربية القديمة، رغم ما لهذا الموضوع من أهمية في دراسة مسائل كثيرة، ومنها الهجرات وتنقل الجماعات البشرية، ثم درس جملة من الأسماء لها صلة بالواقع البربري وحللها وفحص مدلولها، ومن هذه الكلمات التي وقف عند دلالتها طويلا : البربر : وقد خصها بأكثر من عشر صفحات من التحليل والدرس.

وكلمة البربر من الكلمات ذات الشأن في تاريخ منطقتنا المغربية، وقد اكتسبت قيمتها التاريخية منذ مجيء العرب المسلمين حيث صارت منذ ذلك الزمن علما مميزا يطلقه الناس جميعا على سكان شمال إفريقيا، كما تناول بالدرس والتحليل كلمات : أمازيغ -

(1) المرجع نفسه، ص : 188 وبعدها.

المورأوالمورّيين – الطوراق – الشاوية – جيتول – أوجدالة – الفاروزيون – القبائل، وغيرها.[1]

9- مظاهر التشابه بين العرب والبربر :

أما القسم التاسع من الكتاب : فتحدث فيه المؤلف عن مظاهر أخرى من التشابه بين البربر والعرب، فتناول فيه : التنظيم الاجتماعي للبربر – أسرة الأب ودلالتها على الهجرة – الموسيقى الشعبية – تقنيات جمع المياه وفلاحة المدرجات وغيرها من عناصر التشابه في نظامهم وثقافتهم وأسلوب حياتهم[2]

10- المؤرخون المسلمون وأصل البربر :

أما القسم العاشر والأخير من الكتاب : فتحدث فيه المؤلف عن المؤرخين المسلمين وأصل البربر، حيث ذكر آراء المؤرخين وبعض النسابين المتعلقة بالبربر وأصولهم، وقارنَها بنتائج الأبحاث الحديثة، وهذه أهم العناصر التي تناولها في هذا المبحث : البربر وشجرة الأنساب – البربر وجالوت – البربر من الجبارينَ – البربر خليط – البربر وإفريقيش – مكان البربر وخروجهم منه – نظرة عامة حول الآراء السابقة، وغيرها...

---

[1] المرجع نفسه، ص : 219 وبعدها.

[2] المرجع نفسه، ص : 257 وبعدها.

وقد أسلمته الدراسة إلى نتائج علمية أهمها : أن البربر عامة ما هم إلا فرع كبير من تلك الشعوب العربية القديمة انتقل إلى المغرب على مراحل وانعزل فيه، مما ساعده خلال أحقاب طويلة على الاحتفاظ – قليلا أو كثيرا – بسمات من الصورة التي كانت لأجدادنا ذات يوم في العهود القديمة.

وهكذا تتضح عراقة البربر في العروبة وأصالتهم فيها، وهم لهذا السبب... اندمَجُوا بالعرب ونسجوا معهم في سياق التطور العام للتكوينة الجديدة للأمة العربية[1].

11- القيمة التاريخية والعلمية للكتاب :

إن هذا العرض الوجيز عن محتويات هذا الكتاب لا يعطي سوى نظرة سطحية عن قيمته الحقيقة – التاريخية والعلمية – التي ستجعل منه مرجعا أساسيا لتاريخ وأصل البربر في شمال إفريقيا، لا كما أشاعه علماء المدرسة التاريخية الاستدمارية الفرنسية الذين قاموا بتحريف التاريخ وتشويه الحقائق من حيث بث نزعات الانقسام بين أفراد المجتمع الواحد كالنزَعة البربرية التي هي من أخطر ما ابتكره الاستدمار الفرنسي في شمال إفريقيا..

وعسى أن يكون من فوائد هذا الكتاب أنّه كشف عن أساليب الاستدمار الفرنسي وأهدافه الهدامة في المغرب العربي الكبير

---

[1] المرجع نفسه، ص : 278 وبعدها.

كالفرنسة، وتلهيج العربية، والتمسيح، وبث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد، كخلق النزعة البربرية، وغيرها.

وهذا الكتاب أحد الكتب النفيسة التي لا تقل قيمته العلمية عن أثمن الأطروحات الجامعية التي تقدم لنيل شهادة الدكتوراة، فقد جمع المؤلف ما كتب في الموضوع من آراء، وما تفرق في مختلف المظان والمصادر والمراجع باللغة العربية واللغات الأجنبية، وقرأها قراءة نقدية، وحللها تحليلا علميا وقد سلك في دراسة تلك الآراء مسلك الحياد العلمي، وعارض مؤرخي المدرسة التاريخية الاستدمارية من عرب وعجم، وبين زيف بعض دعاويهم بالاعتماد على الأدلة والحجج الدامغة، مما جعل الكتاب هاما قيما لا يستغني عنه أي مهتم بتاريخ البربر، وبتاريخ شمال إفريقيا مطلقا، خصوصا وقد أضفى عليه المؤلف جمالا ورونقا بأسلوبه الممتع الشيق حيث توخى فيه السهولة والسلاسة الشيء الذي جعل الكتاب ذا قيمة علمية وتاريخية وأدبية فهو يذكر المصادر والمراجع بكل دقة، ويتعمق في البحث، ولذلك فالكتاب صالح للجمهور والباحثين معا.

شعر النساء وشعر الرجال ...
الشعر القديم والشعر الحديث ...
وقضايا أخرى...
في حوار مع
الدكتور سعد بوفلاقة

أجرت الحوار :

وردة نيني

في الحروش، في أكتوبر 2001م

س : إنّه لشرفٌ عظيم أن نلتقي بكم دكتور سعد ويجب أنْ نعترف منذ البدء أنّ الحديث معكم ثريٌّ ومثير...، د.سعد .. لو سألناك أنْ تقدّم نفسك ماذا تقول ؟

ج : بعد شكري وتقديري وثنائي على الخطوات التي تخطوها مجلة اليوم السابع في مجال النشاط الثقافي، والتي تعد من أهمّ الأسبوعيات الوطنية في هذا المجال. أبدأ فأقول : إنّ القراءة هُوِيَتي منذ طُفولتي المبكّرة. وُلدتُ ببلدة (بوالبَلُّوط) قرب الميلية بالشمال القسنطيني، ولمّا كان لديّ أربعُ سنين اندلعت ثورة التحرير الكبرى، وكانت التربية والتعليم في ظل حكم الاستدمار الفرنسي محكومة بقيم فاشية، وبخاصة في الأرياف، فقد كان النظام الاستعماري يخنُقُ القوة الخلاقة لدى كُلِّ فردٍ جزائري آنذاك، كما يخنقُ الأطفال ويُبيدُ الكبار، وكانت الشبيبة في بلدتي تمنح الرُّوحَ والجَسدَ لله وللوطن، وكنّا نَحن الأطفال نقرأ القرآن ونتعَلّمُ مبادئ العربية في كتاتيب البلدة، ولمّا تحولّت البلدة إلى خراب بفعل الحرب أصبحنا نَتمدرس في العراء تحت ظِلال أشجار البَلّوط والزيتون. وكان التّاسع عشر من مارس سنة 1962 م يوم النصر نهاية الحرب، فواصلتُ دراستي متنقّلاً بين عنابة وقسنطينة وكانت مرحلة الحرب وما بعدها مطبوعةً بالبؤس، نعم لقد كانت الحياةُ صعبةً وقاسيةً، قِدْحٌ واحدٌ من الحمّص بسبعين سنتيما هو غذاء يوم

كامل (هذا في اليوم السعيد)، أمّا بقيةُ الأيام فقطعة خبز حافية بقليل من زيت الزّيتون. ولكن الظروف بدأت تتحسن منذ مطلع السبعينيات لمّا تحصّلتُ على شهادة الأهلية، فاشتغلتُ مُدرّسًا في التعليم الابتدائي، ثم التحقت بالمعهد التكنولوجي للتربية بقسنطينة، وتخرجتُ بشهادة الأستاذية للتعليم المتوسّط. وعينت بعد ذلك أستاذ اللغة العربية في التعليم المتوسط بمدينة الحروش لعدّة سنوات ثم انتدبتُ إلى جامعة قسنطينة، وبعد أربع سنوات تخرّجْتُ مُجازًا في اللغة العربية وآدابها. اشتغلت أستاذًا بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عنابة منذ 1981م.

حصلت على درجة الماجستير سنة 1987م.

وفي سنة 1991م انتَدَبَتْني وزارة التعليم العالي والبحث العلمي إلى المغرب الأقصى للدراسة والبحث العلمي، وقد مكثتُ فيه عدة سنوات، نلتُ على أثرها شهادة دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها.

أعمل حاليا أستاذا بجامعة عنابة، وسابقا رئيس مصلحة البيداغوجيا ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها.

عضو اتحاد الكتاب الجزائريين.

عضو اللجنة الوطنية للتعريب في الجزائر.

أمّا أعمالي العلمية فهي :

1- النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى، الشركة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1994م.

2- الشعر النّسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

3- نشرتُ عشرات الدراسات والمقالات الأدبية والنقدية في الصحف والمجلات العربية منذ مطلع السبعينيات.

4- لدي كتبٌ مخطوطة ودراسات تنتظر النشر منها : شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي « دراسة موضوعية فنية »، وفي سيمياء الشعر العربي القديم، وغيرهما.

س: نودُّ دكتور أنْ تحدثنا عن المراحل التي خطوتها في البحث، وعن علاقتها بالقديم والحديث، فقد عرفنا الدكتور سعد بوفلاقة باحثا في الأدب الحديث من خلال كتابه « النرجسية في شعر نزار قباني... »، ثم دارسًا للأدب القديم، والشعر النسوي منه على الخصوص من خلال كتابَيْه : « الشعر النسوي الأندلسي... » و« شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي ».

ج : إنَّ اهتمامي بالدراسات والأبحاث الأدبية والنقدية بدأ منذ مطلع السبعينيات، وامتد إلى العقد المنتهي، ولا يزال...، وقد جمعتُ بعض هذه الدراسات التي كتبتُها في فترات زمنية مختلفة خلال

العقود الثلاثة الماضية ونشرتها في كتاب « النرجسية في شعر نزار قباني ودراسات أخرى »، وتعالج هذه الدراسات موضوعات متفرقة تتصل بالأدب وقضاياه في القديم والحديث.

ويُخَيَّلُ إليَّ أنَّ المراحل التي خطوتها في هذا المجال كانت كالآتي :

أوّلا : الابتداء بالدراسات الحديثة في شعر نزار قباني، وأدب طه حسين وغيرهما...

ثانيا : البحث في الأدب العربي القديم، وذلك من خلال دراسة نصُوص أدبية قديمة سواء أكانت للنساء أو للرجال...

ويبدو لي أنّها خطوات متكاملة، فدراسة نص أدبي قديم بمناهج حديثة مثلا يجعلني احْتَكُّ بذلك المتن القديم، وكتب التراجم والأخبار، والأمثال والأيام، وأتعلم العروض والبلاغة، كما أطلع على المناهج الحديثة كالمنهج النفسي والمنهج النصّاني، وغيرهما وقد فتحت لي هذه المناهج آفاقا جديدة ما كان لي أن أطلع عليها لو لا هذه الدراسات كما استفدتُ من بعض الدّراسات السيميائية وقد رجعتُ إلى كتاب الدكتور محمد مفتاح « في سيمياء الشعر القديم » للاستفادة منه في تحليل بعض النصوص القديمة.

وهكذا كنت في أبحاثي أدرس النّص التُّراثي القديم بمناهج حديثة، فتلك كانت طريقتي التي أسير فيها في التّعامل مع

النصوص مهما تنوعت، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال كتبي الثلاثة المذكورة سلفا.

س : ترى أستاذي الفاضل لماذا اتجهت في دراستك إلى الأدب الأندلسي، والشعر النسوي منه تحديدًا ؟

ج: في السبعينيات كنتُ طالبًا في جامعة قسنطينة – قسم اللغة العربية وآدابها – وكان الدكتور جودت الركابي – رحمه الله – أستاذ مادة الأدب الأندلسي، مقتدرًا ومتمكّنًا من اختصاصه، وناجحًا في التدريس الجامعي، وكان شديد العناية بالشعر الأندلسي، وقد حَمَّلَ طلبته على حفظ مختارات شعرية منه، وهذا الأمر كان له في نفسي أثرٌ طيّبٌ، واكتشفتُ من خلاله أنَّ هذا الشعر هو شعر جميل، فابن زيدون، وابن خفاجة، وابن حمديس وحمدونة بنت زياد المؤدب، وغيرهم كانوا يرسمون صورة حية للحياة الأندلسية ولا سيما لطبيعتها الفاتنة، فالأندلس منَحَها الله سبحانه وتعالى طبيعة فاتنة « فكانت أغنى بقاع المسلمين منظرًا وأوفرها جمالاً ». وقد تحدث عن جمالها كلّ من حلّ بها، وقد أفاض المقري في نفح الطيب في وصف طبيعتها الفتانة وجنانها البهيجة، وانتهى إلى أنَّ « محاسن الأندلس لا تُستَوْفَى بعبارة، ومجاري فضلها لا يُشقُّ غبارُه » وقد زرتُ الأندلس في مطلع الثمانينيات من القرن

الماضي، فوجدتُها – حقًّا – جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها، وصدق ابنُ خفاجة حين قال :

يا أهْـلَ أنْدَلُـسٍ للهِ دَرّكُـمُ ... ماءٌ وظِـلٌ وأنْهارٌ وأشْجارُ
ما جَنّةُ الخُلْدِ إلاّ في دِيَـارِكُمْ ... ولو تخيَّرتُ هـذا كنتُ أختارُ
لا تَخْتَشُوا بَعْدَهَا أنْ تَدخُلوا سَقَرًا ... فليْسَ تُدخَلُ بَعْدَ الجنّةِ النّارُ

كما صدق الشاعر « فرانشيسكو» حين قال « ليس في الحياة أقسى من أنْ يكونَ المرءُ أعمَى في غرناطة » وهو يستحثُّ سيدةً على إعطاء صدقة إلى فقير فاقد البصر كانَ واقفا على باب قصر الحمراء... هذا القصر الذي يعد من اجمل وأعظم قصور الدنيا كلّها، وقد بناه العقل العربي الإسلامي عندما كان العرب المسلمون سادة العالم... وقد كان من اثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوبُ، وهامت بها النفوسُ حيث تستقطب سنويا – حتى الآن – ملايين السياح والزوار من مختلف أنحاء العالم للتمتع بالمناظر الخلابة وزيارة معالم الآثار العربية الإسلامية في قرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة، والمرية، والجزيرة الخضراء، وغيرها.

بعد هذا الاكتشاف أصبحت الأندلس بالنسبة إلي تعني التاريخ العربي الإسلامي المجيد، وشعرتُ بأنّني أمام شعر جديد يمتاز بالوضوح وسهولة الفهم، والبعد عن الغموض والانغلاق فطفقتُ

أقرؤه وأستجليه مأخوذا برقة عاطفته، وصدق فنّه، ومن جراء ذلك نجحتُ بتفوق في مادة الأدب الأندلسي في مرحلة الإجازة (الليسانس)، ولمّا نجحت في السنة الأولى ماجستير نظر المجلس العلمي للمعهد في كشف نقاطي، فلاحظ ذلك التفوق فوجّهني لهذا التخصص.

أمّا اختياري للشّعر النّسوي منه تحديدًا فحينما بدأتُ أفكر في اختيار موضوع للماجستير لاحظتُ أنَّ شعر النساء لم يحظ باهتمام الدارسين كما حظي صِنوه من شعر الرجال فكان نصيبُه من البَحْث قليلاً، لذلك عزمتُ على دراسته « دراسة موضوعية فنية » مستقلة، فتناولته بالدّرس والتحليل والاستنتاج، أمّا في مرحلة السلك الثالث أي دكتوراه الدولة فقد رجعتُ القهقرى إلى صدر الإسلام والعصر الأموي بالشرق ودرستُ أيضا شعر النساء في هذه الفترة بعد أنْ ظلَّ نسيًا مَنْسيًّا، ولم تُفردْ لهُ دراسة مستقلة منْ قبل.

س : الدكتور سعد، لقد درستَ شعر النّساء في المشرق والمغرب، أي الأندلس، ترى هل هناك فرق بين شعر النساء وشعر الرجال ؟ وبين شعر المشرقيات وشعر الأندلسيات ؟

ج : لاحظ العلماء والدارسون مُنْذُ زمن بعيد وجود فروق واختلافات بين الرجال والنساء في استخدام المفردات والتعابير، فأطلقوا على بعضها أنّه من ألفاظ الرّجال، أو من ألفاظ النّساء.

ولعلّ أولَ مَنْ أشار إلى ذلك هو أبُوبكر الباقلاني (ت403 هـ) في كتابه إعجاز القرآن حين علّق على قول امرئ القيس في معلقته :

لَكَ الوَيْلاتُ إنّكَ مُرْجلي

قال : وهذا من كلام النّساء. أمّا في العصر الحديث، فقد كثر الاهتمام بلغة المرأة وظهرت دراسات تناولت خصائص المفردات والتعابير في لغة النّساء، ومن خلال تلك الدراسات يمكن الوصول إلى النتائج الآتية :

1- تفوُّق المرأة على الرجل في اختيار الألفاظ ودقة الربط في بعض المجالات التي لها علاقة باهتمامها، مثل : الألوان، والزّينة، والديكور.

2- غلبة الألفاظ التي تدلُّ على تحفظ المرأة وتردُّدها في إصدَار الحكم القاطع، مثل : (ربُّما – لعل – من المحتمل – أحسُّ بكذا – افترض كذا – تقريبا – نحو - حوالي... وغيرها).

3- تأدُّبُ المرأة وتجنُّبُها الألفاظ السوقية أو المُبْتَذلة، فهي لا تتحمل استعمال (الكلمات المرتبطة بالجنس، وتنتقي المفردات المؤدبة والخالية من الإيحاءات غير المستحبة).

4- تكثر النّساء من استخدام صفات الاستحسان وكذلك الكلمات الفارغة من المعنى، مثل (جذاب – فاتن – رائع – جميل – حلو – مزعج – مؤلم...)

5- كثرة استعمال الألفاظ التي تدلُّ على قوة المشاعر والعواطف والانفعالات. (انظر الدكتور أحمد مختار عمر : اللغة واختلاف الجنسين، ص : 95)

6- قلّما تُجيد المرأة كتابة المسرحيات والمقالات والأبحاث الفكرية والأدبية والمواضيع العلمية، وذلك لأنّ البحث يتطلب عقلا منهجيا منظما لا دخل للعاطفة والوجدان فيه كما يقول الدكتور إبراهيم الكيلاني في كتابه أديبات من الغرب.

وقد يكون السبب في عدم تفوّق المرأة في المجال العقلي، أنّها لم تتح لها الفرصة من قبل مثل فرصة الرجل.

ومن خلال دراستنا للشّعر النّسوي تبيّنَ لنا أنَّ شعر المرأة يتميز بمصطلحات خاصة، وببعض التعبيرات والإيحاءات النسوية الواضحة... وأنّه يكثر فيه تردّد كلمات النواح والبكاء ممالا نظير له في شعر الرجال، لأنَّ هذه الألفاظ ذات صلة بتكوينهن وبمشاعرهنّ أكثر من صلتها بالرّجال وأنّ رثاءهن يغلب عليه الاستهلال بالبكاء وتكرار مطالع قصائدهن، من ذلك ما نجده عند كنزة أم شملة، وهي من شواعر العصر الأموي بالمشرق، فقد وظفت في شعرها كلمة « لهفي »، وهي من كلام النساء، قالت :

لهَفِي على قوْمِي الذين تجمَّعُوا   بذي السّيد لم يلقوا عليًا ولا عمر

وكذلك قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

فيا لهفي عليه ولهفَ أمِّي   أيصبح في الضّريح وفيه يمسي

وكثيرة في مراثيهنّ صورة الدُّموع وهي تسيلُ غزيرة على الخدود على طريقة ليلى الأخيلية التي بكت توبة بن الحميّر بكاء حارًّا، وسلامة القس التي بكت الوليد بن يزيد بكاء مُرًّا، وأمّ حكيم بنت قارظ في قصيدتها التي رثت بها ولدَيْها عبد الرحمن وقثم اللذيْن ذبحهما بسر بن أرطأ وهي تنظر إليهما، وغيرهن. قد عرضتُ نماذج كثيرة من أشعار النساء تبيّن إلى أيّ حدّ تأثرن بعالمهن الخاص المتميز عن عالم الرجال، وكيف استعملن مصطلحات وتعابير نسوية لا وجود لها في شعر الرجال، ويمكن مراجعة هذه النماذج في كتابنا (شعر النساء في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص : 411 وما بعدها) كما أنّ هناك بعض الحركات والإشارات التي تصدر عن النساء مما لا نظير له عند الرجال، « كصكّ الوجه » عند النساء، كما ورد في الآية الكريمة في سورة الذّاريات عندما بُشّر إبراهيم عليه السلام بغلام عليم، قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديثُ ضَيْفِ إبْراهِيمَ المُكرمين، إذ دَخلوا عَلَيْه فقالوا سَلامًا قالَ سَلامٌ قومٌ مُنكرُونَ...﴾ إلى أنْ يقول سبحانه جل وعلا : ﴿ فأوْجَسَ مِنْهُمْ خيفة قالوا لا

تَخَفْ وبشَّرُوه بغُلام عَليم فأقبَلتْ امْرأتُه في صَرَّةٍ فصَكّتْ وَجْهَهَا وقالت عَجُوزٌ عقيمٌ..﴾. وصكت وجهها، أي : لطمته بجميع أصابعها تعجبًا. فإنّ مثل هذه الحركة التعجبية لا يمكن أنْ تصدر إلا عن النساء.

ولتأكيد الاختلاف بين ألفاظ النساء وألفاظ الرجال' فكرت مرة في اختبار ذاتي يتعلق بمعرفة الفرق بين الطلبة والطالبات في استخدام المفردات والتعابير، وكان حقل التجربة هو أوراق امتحان طلّابي المائة والخمسة وثلاثين طالبا. كان نظام الامتحان يجبر الإدارة على نزع أسماء الطلبة من أوراق الامتحان ووضع عوضها أرقامًا سرية بحيث تسلم الأوراق إلى الأستاذ نكرة لتصحيحها ثم تُرَدّ إلى الإدارة لِتُعَرّفها. وقبل الشروع في عملية تصحيح أوراق أحد الامتحانات رأيتُ أنْ أضع حرف ألف (أ) بقلم رصاص في زاوية الورقة عندما أظن أنها لطالبة، وحرف ذال (ذ) حينما اعتقد أنها لطالب، وبعد تعريف الأوراق وفرزها، وجدتُ أنّني لم أخطئ إلا في ورقتين ظننتُهما لطالبين، وكانتا لطالبتين مسترجلتين، إحداهما كان لها شوارب (شنبات) وهذا يعني أن هناك مفردات وتعابير نسوية فلما نجد لها شبيها عند الرجال. وأنّ هناك فارقا محسوسا بين شعر المرأة وشعر الرجل، في كثير من الأغراض، وأنّ التهمة التي توجّه إلى شعر النّساء بالضعف والتخلف، هي

تهمة باطلة فيها كثيرٌ من التّجنّي والظلم للشاعرات ولشعرهن، وإنني لا أنفي أنَّ شعر بعض النساء ضعيف وركيك... ولكن يجب ألاّ ننسى أنّ في شعر الرجال أيضا من الرسالة والرداءة وضعف التأليف والتعقيد ما يغطي على شعر النساء.

على العموم فالشاعرات كنَّ يتفوّقنَ أحيانًا على الشعراء، وقد تفوّقت ليلى الأخيلية على النابغة الجعدي بشهادة ابن سلام والأصمعي. أمّا الشق الثاني من السؤال المتعلق بالموازنة بين شعر المشرقيات وشعر الأندلسيات فقد لاحظتُ من خلال اتصالي بشعر النساء عامة سواء أكان ذلك في المشرق أم في المغرب العربيين، أن هناك أوجه اتفاق وأوجه اختلاف.

فأوجه الاتفاق تتمثل في بناء القصيدة النسوية فقد تبيّن لي سيادة القصيدة القصيرة، وغلبة المقطّعات عند الشاعرات خلافا لما كان سائدا بين كثير من الشعراء الذين تفاخروا بمطولاتهم. وأطول قصائد النساء على الإطلاق رائية ليلى الأخيلية في الرثاء، فقد بلغت ثمانية وأربعين بيتا بَيْدَ أنَّ ذلك لا يطعن في شاعرية المرأة بل يلائم نفسيتها.

وكذلك في الأساليب، فقد درستُ أساليبهن على المستوى الصوتي والمستوى المعجمي، والمستوى البلاغي، فوجدت تشابها بين المشرقيات والمغربيات، ولقد رصدت الدّراسة ظواهر لغوية

بارزة مشتركة طغت على أشعارهن، تبعا لتنوع الأغراض الشعرية واختلاف الأحوال النفسية للشواعر، نجملها فيما يأتي :

1- لغة رقيقة، عذبة، تُحركُ المشاعر، وتدَغدِغُ الأحاسيس، وتُشَهّي النفوس، خاصة في شعر الغزل والغربة والحنين إلى الأوطان.

2- لغة قوية، وجزلة، مصوتّة، سيطرت على لغة المدح والفخر والتحريض على القتال.

3- لغة ركيكة مستهجنة، سوقية، سيطرت على لغة الهجاء والغزل الإباحي، وترقيص الأطفال.

أمّا أوجه الاختلاف فتتمثل في كون الشاعرات الأندلسيات لم ينظمن في جميع الأغراض الشعرية المعروفة، فلم يصلنا شعر منهنَّ في الزهد أو الحماسة، وكذلك الرثاء إلا نادرًا، مع أنَّ الرثاء يُعَدُّ من أهم الموضوعات الشعرية التي نظمت فيها المرأة المشرقية، وهو أقرب إلى نفسية المرأة التي تعد أرهف إحساسا، وأقوى عاطفة من الرجل ولعل ندرة غرض الرثاء عند الأندلسيات، ووفرته عند المشرقيات يعود لظروف إقليمية واجتماعية...

وهناك موضوع آخر اختلفت فيه المرأة الأندلسية الشاعرة عن أختها المشرقية، حيث أباحث الأندلسية لنفسها أنْ تتغزل بالمؤنث أو ما يسمى بالجنسية المثلية، كما عند ولادة بنت المستكفي وحمدونة

بنت زياد، وهذه الظاهرة لم تكن معروفة لدى شاعرات المشرق، ولا سيما في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، مما يدل دلالة واضحة على انحلال المجتمع الأندلسي بأخرة.

كما شاعت في شعر المشرقيات، وبخاصة في العصر الإسلامي والأموي، النزعة السياسية، فقد كان منهنَّ المناصرات للإسلام والمسلمين، ومنهنَّ من وقفن في وجهه يَهْجُونَ المسلمين، ويدافعن عن الشّرك والمشركين. كما كان من بين المسلمات من تشيَّعْنَ لعليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، ومن ناصرن معاوية بن أبي سفيان، ومن وقفن بجانب الخوارج، وكان هؤلاء وأولئك يبكين كُلّ من يقتل من شيعتهنّ. أمّا الشاعرات الأندلسيات فلم أعثر على شعر لهنّ في السياسة ولعل ذلك يعود إلى أنّ السياسة موضوع خطرٌ فتحاشينه أو ربما يعود إلى أنّ المرأة الأندلسية بطبيعتها لا تهتم بالسياسة ولا حتىّ بالرثاء، حيث انشغلت بحياة اللهو وفتنة الطبيعة الجميلة التي جعلتها وديعة مستسلمة للحياة الحُلوة الرضية فلم تحفل بالسياسة ولا بالرثاء الذي يذكرها بالموت.

س : هل تعدُّ كُتبًا أخرى ؟

ج : أجل، لقد شرعتُ في كثير، بعضها بالاشتراك مع آخرين، أذكر منها :

1- دراسات في الأدب الأندلسي

2- دراسات في الأدب المغربي القديم

3- دراسات في الأدب الجاهلي «النشأة والتطور والأغراض والخصائص»

4- دراسات في الأدب الإسلامي والأموي

4- الشعرية العربية (المفاهيم والأنواع والأغراض)

5- تفسير وإعراب سورة يوسف عليه السلام

6- المغني في النحو والصّرف والإعراب

7- شعر الصحابة (جمع وتصنيف ودراسة) بالاشتراك مع آخرين

8- معجم الشهداء لولاية سكيكدة (خلال ثورة التحرير الكبرى 1954-1962) مشروع بحث

9- في سمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى...إلخ

س : علمنا أنكم أشْرَفْتُم على فتح الدراسات العليا (الماجستير) - تخصص أدب عربي قديم - خلال هذه السنة : 2001/2002م. كيف ترون مستقبل الأدب العربي القديم... ؟

ج : فعلاً، لقد قدّمتُ مشروعًا في السنة الماضية لفتح الدراسات العليا – تخصص أدب عربي قديم – خلال هذه السنة 2002/2001م.

ولقد اعترضتنا عقبات وصعوبات جمة ولكننا استطعنا التغلب على تلك الصعاب وتذليل تلك العقبات بالمثابرة والصبر، وكان يدفعنا إلى ذلك إيماننا العميق بأهمية الأدب العربي القديم من حيث قيمته الأدبية والثقافية والاجتماعية، كما أنّ جامعتنا ليس لها العدد الكافي من الإطارات المتخصصة في هذا المجال، وبخاصة أن الدراسات العليا – تخصص أدب قديم – لم تفتح بقسمنا منذ العام الجامعي : 1982/81م.

وكان الهدف من فتح الدراسات العليا – بالإضافة إلى ما سبق ذكره – هو تكوين متخصصين في الأدب العربي القديم جاهليّه وإسلاميّه، مشرقيّه ومغربيّه.

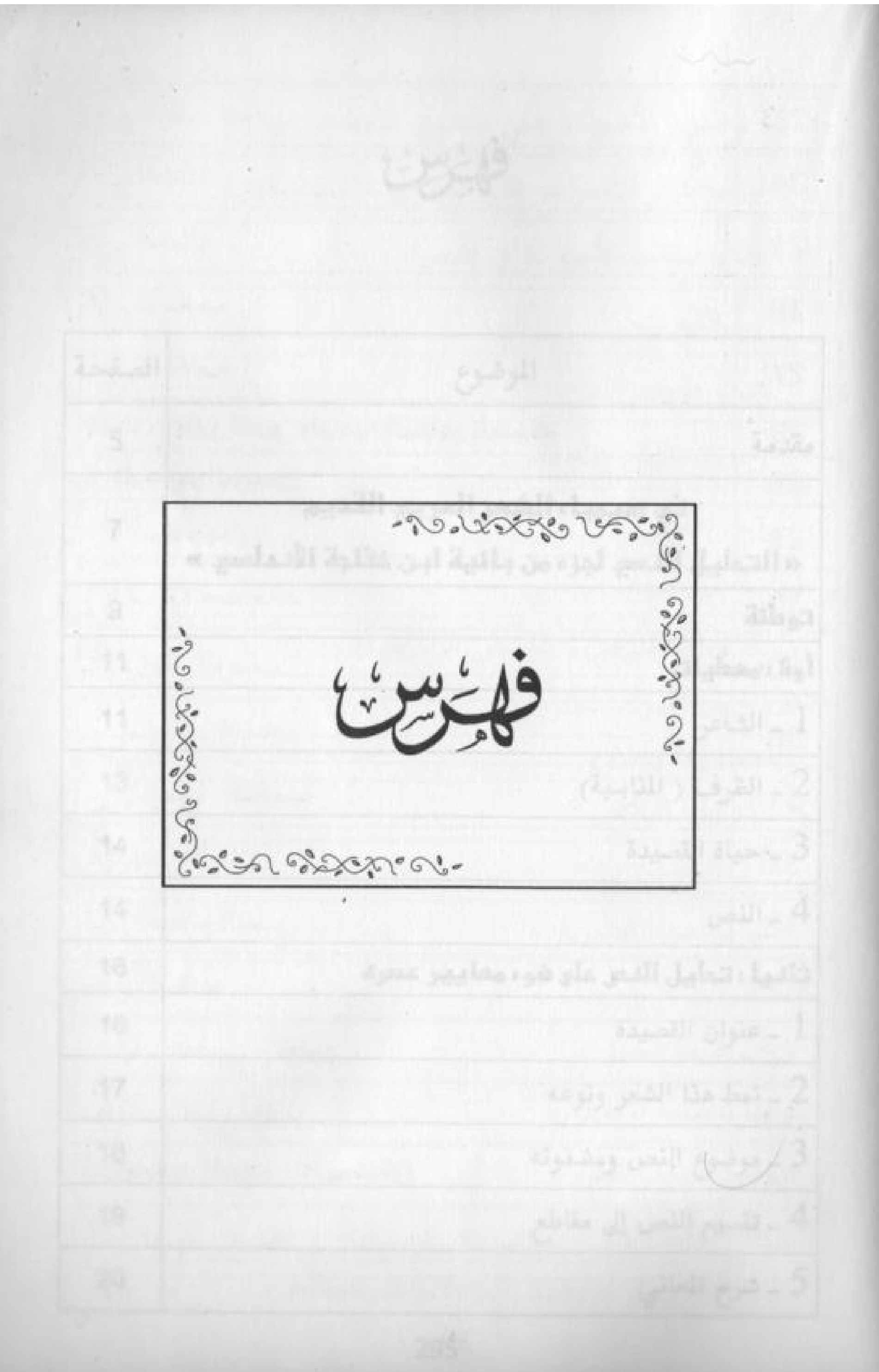
أمّا بالنسبة لمستقبل الأدب العربي القديم، فإنّي أرى بأنّ الاهتمام به قد انبعث من جديد، وبخاصة بعد أنْ فشل دُعَاة الشعر الصناعي الذين عجزوا عن المنافسة البريئة الشريفة، فأخذوا يعملون على إفساد أذواق الشعوب العربية، وتشويه تراثهم المجيد، فقلّدوا الغرب دون وعي، وأخذوا بظاهر الأمور، وقد صدق فيهم قول الفيلسوف العربي الأندلسي محمد بن رشد في الشخص الذي يترك جميع

القواعد التي وضعها الأقدمون، ثم يحاول أنْ يصل بالبرهان الشخصي (أو بالتقليد الأعمى للآخرين) إلى جميع قواعد العلم الإنساني « هو رجلٌ أهل بأن يُضحك منه»، إنّ أفراد النّوع الإنساني، كما يقول الدكتور عمر فرّوخ، يتوارثون صفاتهم ووجودهم أبًا عن جّد، فإذا حاول فردٌ من أفراد البشر أنْ يلغي اختيار الذين سبقوه على سلّم الإنسانية ليَسْلُكَ في حياته كما تَميلُ إليه غريزتُه، فإنَّه يكونُ قد سلخَ نفسَه من عالم الحيوان الناطق إلى عالم الحيوان الأعجم.

س : هل من كلمة أخيرة تقولها للطلاب ؟

ج : أقول لإخواني الطلاب والطالبات، كما قال لنا يوما أستاذنا الدكتور جودت الرّكابي، رحمهُ الله : عليهم أنْ يكونوا متفائلين، وأنْ يعلموا أنَّ التعليم الجامعي هو تعليم شخصي بخلاف التعليم ما قبل الجامعي، عليهم أنْ يعودوا إلى المراجع ويصبروا كثيرا على القراءة والدراسة الواعية العميقة... وأنْ يحسنوا التخطيط والاستفادة من وقتهم في المرحلة الجامعية، فهي مرحلة زاهرة عامرة، إذا أحسنوا الاستفادة منها، كانت نتيجتها – بعون الله – نجاحهم في مستقبلهم كله، وعلى إخواني الطلاب والطالبات ألاّ ينزعجوا من بعض السلبيات... فالمستقبل لهم، وهو أمامهم يبنونه بإرادتهم وعزمهم، وفقهم الله.

في الختام أشكر باسم أسرة تحرير مجلة اليوم السابع الأستاذ الدكتور سعد بوفلاقة على هذا اللقاء المثمر والممتع.



فهرس